اللآلـئُ المُنيرة
في
تهذيب السيرة

الدكتور
نوح مصطفى الفقير

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2009/7/3073

239
الفقير، نوح مصطفى
اللآلئ المنيرة في تهذيب السيرة
نوح مصطفى الفقير – عمان: المؤلف ، 2009
(190) ص
ر.أ. : 3073/ 7/ 2009
الواصفات:/ السيرة النبوية/


www.sunna.info



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله؛ خلق فسوّى، وقدّر فهدى، والصلاة والسلام على خير الورى ﷺ، الذي عمّ نوره البقاع؛ ورَفعَه ربُّه إلى سـدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وعلى آل بيته الأطهار الأخيار، سـلالة المرتضـى، صـلاة دائمة أبداً، ما تتابعت قطرات الندى، وانفلج صبح نهار وغدا، وعلى صحبه وأتباعه، وعلى كل مَن سار على سراطه، واقتفى أثره، واتبع سنته، وبه اقتدى فاهتدى...وبعد؛

فيقول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[1]، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِـرَاجًا مُّنِيرًا}[2]، إنه الرسـول الأكرم ﷺ؛ صاحب السيرة الغنية بالمآثر والمفاخر؛ فهو فجر طلع، ونور لمع، وبرهان سطع، ملأ الوجود عدلاً وبراً، وبهاءً وجمالاً، وأنساً وخيراً، ونوراً وعطراً، فاق الأقران، وأزال الأحزان، وأبهج الجنان، وغرس شجرة العدل والأمان، وطوى صفحة الإثم والبغي والعدوان.

لذلك أسـكن المسـلمون نبيَهم المحبوبَ في القلوب، وكان في حياتهم كالماء الصيّب المصبوب؛ فالتزموا مجلسه، ولم يصبروا على فراقه، والتمسوا البركة من ماء وضـوئه، وجمعوا عطره الشـريف، وطيّبوا به الطيب؛ فإذا تكلم خفضـوا أصـواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وقد قيل: والله ما رأيت أحداً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً.

لقد اكتفى بالقليل عن القناطير، وآثر الحصـير على الفراش الوثير؛ ولبس لبوس العز والفخر والتوقير، وعزف عن السندس والإستبرق من الحرير، وكان يمرُّ عليه وعلى آل بيته الشـهر والشـهران يكفيهم الأسـودان، وتقرّب إلى الله بإطعام الفقير والأسير، وكان يربط الأحجار على بطنه الشريف، وأكل مع أصحابه أوراق الشجر حتى تشققت أشداقهم، وصبر على أذى الكافرين لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يوحّد الله، وصدق القائل:

لم تزلْ في ضمائرِ الكونِ	تُختارُ لك الأمهاتُ والآباءُ
ما مضت فترةٌ من الرسلِ	إلا بشّرت قومَها بك الأنبياءُ
تتباهى بك العصورُ وتسمو	بكَ علياءُ بعدها علياءُ
وسعَ العالمينَ علماً وحلماً	فهو بحرٌ لم تُعيهِ الأعباءُ
كلُّ فضلٍ في العالمينَ فمن	فضلِ النبي استعارَه الفضلاءُ

[1]. سورة التوبة 128.

[2]. الأحزاب 45-46.

وما زال العلماء المسلمون في كتابة السيرة النبوية يتسابقون، ويتنافسون، وهم بين مطوّل مسهب مستوعب، وبين مختصر وشارح ومُهذّب، نثراً وشِعراً، سنداً ومتناً، واختلف الأساتذة الباحثون؛ السابقون واللاحقون، في وضع منهاج يكون لتعليم السيرة النبوية نبراساً وسراجاً، ومختصراً ليكون من طلاب العلم قريباً، ولمن ضاقت به أوقاته سهلاً، ولاستفساراتهم مجيباً، على أن يكون غير مُخل، مع كونه غير ممل.

وسأسير – بإذن الله- خلف فضيلة الدكتور محمد سعيد البوطي في كتابه فقه السيرة النبوية، كونه مقرراً في مناهج كليات الشريعة وأصول الدين، وأتنعم بسيرة النبي ﷺ العطرة من خلاله، فهو المرجع الأساسي لهذا الكتاب، وسأخرّج الآيات والأحاديث الشريفة من مظانها، ولن أزح عن توضيح المغمور، وتثبيت المشهور، ورائدي أنني بين الأجرين أدور؛ إن أصبت أو أخطأت، راجياً القبول والحبور يوم اللقاء والنشور.

والحمد لله رب العالمين

مقدمات
لدراسة السيرة النبوية الشريفة

أهمية السيرة النبوية في فهم الإسلام

تنبع أهمية دراسة السيرة من سمو أهدافها؛ والهدف العام هو **(أن يتمثل المسلم حقيقة الدين الإسلامي متجسدة عملياً وتطبيقياً في حياة نبيه ﷺ، بعد أن فهمها نظرياً في الذهن)**؛ وتفصيله في الأهداف الآتية:

1. فهم شخصية النبي ﷺ، وأنه مؤيد بوحي، وليست قوته نابعة من عبقريته.
2. الاقتداء به ﷺ؛ فقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[1].
3. تفسير آياتٍ من كتاب الله، وفهم مقاصد كثيرٍ من الأحاديث النبوية الشريفة.
4. الاطلاع على المعارف الإسلامية الصحيحة؛ عقيدة وتشريعاً وآداباً.
5. تلمس أجدى أساليب التربية والتعليم؛ فقد كان ﷺ مربياً فاضلاً، ومعلماً ناصحاً.

ومما يجعل سيرته ﷺ وافية بتحقيق أهدافها أنها شاملة لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية؛ كونه ﷺ فرداً مستقلاً وعضواً في المجتمع؛ وهو نموذجُ الشاب المستقيم، والداعي إلى الله، ورئيس الدولة الذي يسوس الأمور بصدق وحنكة وحكمة بالغة، وهو الزوج المثالي، والوالد الحاني، والقائد الحربي الماهر، والسياسي الصادق.

كتابة السيرة النبوية الشريفة

يتصف أسلوب كتابة السيرة النبوية الشريفة بأنه:

1. **منطلق تدوين التاريخ الإسلامي:** يُعدّ تدوين السيرة منطلقاً لتدوين التاريخ الإسلامي، فقد دوّنت أحداثه على إثرها، ولم يُغفل المؤرخون المسلمون التاريخ الجاهلي في الجزيرة العربية، وإنما تمّ رصد كل ما يتعلق فهم السيرة على معرفته.
2. **كُتبت السيرة بمنهجية علمية:** فالسيرة قاعدة السنة، وقد تميّز تدوينها بمنهج علمي دقيق، يرتكز على قواعد مصطلح الحديث النبوي؛ وهو منهج علمي سليم.
3. **مصدر موثوق من مصادر التاريخ الإسلامي:** لأن مظان السيرة في القرآن وفي كتب الحديث عامة، وفي هذه المصادر ثقة بالغة عند المسلمين.

تدوين السيرة: مرّ تدوين السيرة النبوية ضمن مراحل؛ أشهرها:

1. **مرحلة تدوين بعض السيرة ضمن الحديث الشريف:** فقد نهى الرسول ﷺ أول الأمر عن كتابة شيء غير القرآن؛ لئلا يختلط القرآن بالسنة، ولما اطمأن سمح بكتابة الحديث، فبدأ تدوين بعض السيرة ضمن الحديث النبوي الشريف.

---

1 . سورة الأحزاب 21.

2. **مرحلة تدوين السيرة عموماً:** كتبت السيرة مستقلة عن الحديث بعد مرحلة تدوين الحديث، وتنقسم هذه المؤلفات من حيث وصولها إلينا إلى أقسام:

أ. **مؤلفات لم تصل إلينا:** فأول من كتب عروة بن الزبير المتوفى 92هـ[1].

ب. **مؤلفات وصلتنا:** أولها المغازي والسير لمحمد بن إسحق المتوفى 152هـ، ويُعد من أوثق ما كتب في السيرة في عهده، ولئن لم يصل إلينا بذاته، إلا أن ابن هشام رواه لنا مهذباً منقحاً.

مصادر السيرة النبوية: المصادر التي اعتمدها سائر كُتاب السيرة محصورة في:

1. كتاب الله تعالى، والسيرة في القرآن على سبيل الإجمال، لا التفصيل.
2. السنة من حيث أنها مصدر تشريعي؛ فلم يراع فيها التتابع الزمني للأحداث .
3. الرواة الصحابة الذين حضروا مشاهد سيرته، فرووها لمن بعدهم.

المنهج العلمي في رواية السيرة: كُتبت السيرة ضمن قواعد مصطلح الحديث، فنقلت بمنتهى الدقة والتجرّد، ولم تقحم التصورات الفكرية أو النفسية؛ فالمنهج المتبع هو المنهج الموضوعي العلمي؛ بدءاً من يوم ولادة النبي ﷺ إلى وفاته، أما استنباط النتائج والأحكام والمبادئ من هذه الأخبار فعمل آخر مستقل بذاته، لا شأن له بالتاريخ، وينهض على قواعد أخرى؛ كالقياس الاستقرائي، والدلالات، وضمن قالب يقصيها عن سلطان الوهم الذي يعبر عنه جيمس[2] بإرادة الاعتقاد.

السيرة النبوية على ضوء المذاهب الحديثة في كتابة التاريخ: ظهرت في القرن التاسع عشر طرائق في كتابة التاريخ؛ ويجمعها المذهب الذاتي؛ ويُعد (فرُويْد)[3] من أكبر المتحمسين له، ولا ضير عندهم في إقحام النزعة الذاتية أو التوسم والاسترداد[4] أو الاتجاه الفكري في تفسير الأحداث وتعليلها، بل هو واجب المؤرخ عنده، وهذه الطريقة تجعل كتابة التاريخ وتدوينه عملاً فنياً مجرداً، ولا يُعدّ عملاً علمياً دقيقاً، وهو مذهب يمزّق جميع الحقائق ويمسخها بالوهم والهوى، وهذا المذهب أساس لمدرسة جديدة في دراسة السيرة، تعود نشأتها إلى أيام الاحتلال البريطاني لمصر، ومصر هي منبر العالم الإسلامي آنذاك؛ لوجود الأزهر[5] فيها؛ إذ قرر الاحتلال البريطاني الإقدام على أحد أمرين، لا ثالث لهما:

أولهما: أن يقطع ما بين الأزهر والأمة؛ فلا يبقى له عليه سلطان.

---

1 . ثم كتب أبان بن عثمان ت 105هـ، ثم وهب بن منبه ت 110هـ، ثم شرحبيل بن سعد ت 123هـ، ثم ابن شهاب الزهري ت 124هـ، ولم يصل منها شيء، ويقال: إن بعض ما كتبه وهب محفوظ في ألمانيا.

2 . وليم جيمس: فيلسوف أمريكي، ولد في نيويورك 1842 وتوفي 26 آب 1910، عالم نفس حديث.

3 . سيموند فرويد Freud فيلسوف يهودي، ولد عام 1856 في مورافيا في جمهورية التشيك، وتوفي 1952م

4 .التوسم والاسترداد طريقة غربية تعتمد على التأمل بالحادثة التاريخية، وتأويلها وفقا لما يراه الكاتب، ومن أصول الطريقة تلك أن يبتعد الكاتب عن كل ما لا يقبله العلم مثل المعجزات.

5 . جامع وجامعة؛ بناه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، وتم بناؤه 361هـ وأنشأ لنشر المذهب الشيعي.

ثانيهما: أن يتم التسلل إلى القيادة فيوجّه الوجهة التي ترضي مصالح الاحتلال.

ومن عوامل نشأة هذه المدرسة أنه أحس المسلمون بالتخلف مقابل نهضة الغرب، وكانوا يتطلعون إلى التحرر من الأثقال التي خلّفتهم إلى الوراء؛ فتسلل الكيد الاستعماري إلى صدور بعض المسلمين؛ فأوهمهم أن الغرب تحرر يوم أخضع الدين النصراني لمقاييس العلم؛ فإذا ما خضع الدين الإسلامي لتلك المقاييس فإنه سيتخلص من الغيبيات المنافية لمقاييس العلم! وسرعان ما انبهر ضعاف الإيمان بهذا، وتبنّوه وسمّوه بالإصلاح الديني، وأرادوا إعادة تحليل كتب الإسلام؛ ومنها السيرة النبوية؛ فلجأوا إلى الطريقة الذاتية؛ فأنكروا المعجزات والخوارق، وراحوا يروجون للنبي ﷺ صفة العبقرية والبطولة، بعيداً عن صفة النبوة والوحي، ومن مؤلفات هذا المذهب كتاب (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل؛ وفيه يصرح أنه لم يأخذ بكل ما سجلته كتب السيرة والحديث، وإنما أخذ ببعضها فقط، ومن تلك المؤلفات مقالات محمد فريد وجدي[1] في مجلة نور الإسلام بعنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)، وفيها يتكلف بتأويل نواحي الإعجاز بالأسباب العادية، ولقد أوّلت هذه المدرسة حوادث السيرة بما يتوافق مع مذهبهم من غير دليل، بهدف نسف هذه العقيدة من جذورها، ومن تأويلاتها الباطلة:

1. طير الأبابيل الوارد في صريح القرآن أوّل بداء الجدري!.
2. الإسراء يحمل على سياحة الروح وعالم الرؤى!.
3. السيرة النبوية ثورة يسار ضد يمين؛ أثارتها النوازع الاقتصادية طلباً للرزق!

وغاب عنهم أمران؛ **الأول**: أن نفي الخوارق يتضمن نفي الوحي بتمامه؛ وهو ينبوع الإسلام، **والثاني**: أن الإسلام لا يحتاج إلى مصلح يتدارك شأنه؛ ولذلك لم يستمر انبهار أرباب هذه المدرسة؛ لأنه يقوم على أساس واهٍ، ولمّا فتحوا أعينهم بعد غفلة انجابت الغاشية، والتقت أعينهم مع الضياء؛ وتبيّنت الحقائق، والباحث الحر يؤمن بأن المعجزات لا تتنافى في جوهرها مع حقائق العلم وموازينه؛ لأنها تخرق المألوف، وقد ثبت أن العلاقة بين الأسباب ومسبباتها في الأمور الخارقة علاقة اقتران مطرد؛ ويمكن تعليلها واستنباط قانون منها، وليس العكس؛ فلا يجيب القانون عن معجزة إلهية؛ لأنها ليست من اختصاصه، ومتى وقعت خارقة أصبحت موضوعاً جاهزاً للتحليل، وتغطى بقانونها التابع لها، ولقد أثبت الغزالي أن العلم في أحكامه وقوانينه جدار ينهض فوق أساس هذا الاقتران وحده؛ وسر هذا الاقتران عند الله الخالق، ووافق على ذلك العالم التجريبي (دافيد هيوم)[2].

كيف ندرس السيرة النبوية؟

تدرس السيرة ضمن الهوية النبوية؛ فقد قدّم النبي ﷺ نفسه على أنه آخر نبي؛ وأنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يُبدّل شيئاً لقوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ

---

1 . محمد فريد وجدي مؤلف دائرة المعارف، توفي 1373 هـ = 1954 م.

2 . ديفيد هيوم (David Hume) فيلسوف اسكتلندي، رفض أن العقول البشرية نسخ مصغرة عن "العقل الإلهي.

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}[1]، فليس هو زعيماً سياسياً أو مصلحاً اجتماعياً، بل هو بشر نبي، من هنا كان لزاماً علينا أن ندرس السيرة النبوية من خلال تلك الهوية، وبإتباع الأسس الآتية:

1. دراسة جميع النواحي الإنسانية في حياته ﷺ، وإلا وقعنا في الشقاء؛ إذ كيف نسمع للنبي ﷺ ثم لا يهمنا إلا التأمل في فصاحته وحكمته!
2. توخي الصدق والدقة بناء على منهج أهل الحديث، المتجرد عن أي هوى، وسنكتشف أنه ﷺ لم يخترع شرعاً، وإنما بلّغ دين الله بأمانه.
3. تحاشي تحليل الألغاز التي تبعدنا عن النبوة؛ فلا يمكن فهم لغز الفتح الإسلامي الذي قضى على حضارتي الفرس والروم، قبل أن تنمو فيه حضارة أو مدنية! إلا إذا وضعنا النبوة والتأييد الإلهي في الحسبان؛ قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}[2].

سر اختيار الجزيرة العربية مهداً لنشأة الإسلام

ينبغي أن نتصور ما كانت عليه فارس والروم قبل معرفة حال العرب، وكذا اليونان والهند، أما فارس فكانت حقلاً للفلاسفة، والزرادشتية ديانة السلطة الحاكمة؛ ومن انحرافاتهم زواج المحارم! فقد تزوج يزدجرد الثاني[3]بابنته! وديانة المزدكية تجعل الناس شركاء في النساء؛ كما يقول الشهرستاني[4]، أما الرومان فسيطرت عليهم الروح الاستعمارية؛ وكانت منهمكة في خلاف مع النصارى؛ فحصل التلاعب بالدين، وكثرة الأتاوات التي تدفع على الأرض، وأما اليونان والهند فقد كانت غارقة في الخرافات؛ كما قال الندوي[5].

وجملة القول إن انحلال تلك الأمم نابع من الحضارة التي قامت على أساس القيم المادية وحدها، متجاهلة مقاييس العقل الرشيد الذي يقودها إلى السبيل المستقيم الصحيح.

أما الجزيرة العربية فكانت هادئة بعيدة عن مظاهر الترف، والتسلط، لانعدام القوة العسكرية لديهم، وليسوا فريسة للأساطير لانعدام الفلسفة؛ وكانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة (الخام)؛ التي تتراآى فيها الفطرة الإنسانية السليمة والاتجاهات الإنسانية الحميدة؛ كالوفاء والنجدة والكرم، ولكنهم ضلّوا الطريق إليها؛ فقتلوا أولادهم بدافع الشرف، وأتلفوا الأموال بدافع الكرم، وأثاروا الحروب بدافع النجدة؛ قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ

---

1 . الحاقة 44-47.

2 . القصص 5.

3 . حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي.

4 . صاحب كتاب الملل والنحل المتوفى سنة 548 هـ = 1153 م، وانظر الملل والنحل 2/86.

5 . الندوي علامة، داعية، هندي توفي 1420هـ ، وانظر كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص 28.

قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ}[1]، فكان العرب يعيشون وسط حضارتين جانحتين؛ كحالنا اليوم؛ الغرب المادية والحضارة الروحية في الهند والصين؛ كما يقول محمد المبارك[2]، فإذا تصوّرنا هذه الحال سهل علينا أن نستجلي الحكمة الإلهية من حمل العرب مشعل الدعوة إلى الإسلام، والذين يتناسب حالهم في الأمية مع حال رسولهم ﷺ، ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بقوله: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ}[3]؛ فهي رحمة عظيمة بالعباد؛ ومن الحِكم أيضاً:

1. البقعة مباركة بدعوة إبراهيم عليه السلام، فلا غرابة أن تكون مهداً لدعوة نسله خاتم النبيين محمد ﷺ.
2. البقعة الجغرافية؛ المتوسطة بين الأمم، ولذلك انتشرت الدعوة بسهولة ويسر.
3. اللغة العربية لغة القرآن؛ والجزيرة العربية هي أرض اللغة.

وقد يُظن أن السبب أن العرب كانوا لا يزالون يعيشون في فترة البحث، فهم أطوع للعلاج؛ بينما يصعب علاج أصحاب التدين الباطل! والصواب أن هذا صحيح بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة، فيختار السهل، بخلاف القدير سبحانه؛ فإذا تعلقت إرادة الله بأي مكان هيأ له ما هيأه في الجزيرة العربية، وهو خالق كل شيء.

علاقة دعوة النبي ﷺ بالدعوات السماوية السابقة

محمد ﷺ خاتم النبيين؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَاناً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِلاَّ هَذِهِ اللَّبِنَةَ، فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)[4]؛ فلدعوته ﷺ علاقة بدعوات الأنبياء السابقين؛ تقوم على أساس التأكيد والتتميم؛ إذ دعوة كل نبي تقوم على أساسين؛ أساس العقيدة، وأساس التشريع والأخلاق.

أما العقيدة فلم يختلف مضمونها عند الأنبياء؛ لأنها الإيمان بوحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص والإيمان بأركان الإيمان، فلا يمكن أن يبعث الله نبياً يبلغ الناس أن الله ثالث ثلاثة، ثم يبعث بعده نبياً آخر يبلغهم أن الله واحد لا شريك له، بل جاء كل نبي منهم مصدقاً لمن سبقه ومبشراً بمن بعده؛ قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}[5]، وهذا يؤكد أن الدين واحد هو الإسلام؛ قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ

---

1 . سورة البقرة 198.

2 . محمد المبارك، ولد عام 1912 في دمشق، عالم، توفي عام 1981 ومن مؤلفاته الأمة العربية في معركة تحقيق الذات.

3 . سورة الجمعة آية 2.

4 . مسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين.

5 . الشورى 13.

الإِسْلامُ}[1]، وفيها ردّ على من يدّعي أن نبياً ما بُعث بعقيدة خاصة به؛ قال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[2]؛ فالأنبياء بعثوا بالإسلام، ولكن أقوامهم تفرقوا ظلماً.

أما الشرائع وهي الأحكام التي تنظم الحياة فمتعددة؛ لأن التشريع من نوع الإنشاء لا الإخبار عن شيء سابق؛ ففيه التجديد والتطوّر ومواكبة الأحداث؛ بحسب ما تقتضيه مصالح العباد؛ ولهذا كانت شرائع الأنبياء السابقين خاصة محصورة حسب ما تقتضيه حال تلك الأمة، ولم تكن عامة للناس؛ وكل شريعة ناسخة للشريعة السابقة، إلا ما أيده التشريع المتأخر أو سكت عنه، ولذلك قالوا: (شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد ما ينسخه)، ويوضح تجدد الشرائع المثال الآتي: بعث موسى عليه السلام لبنى إسرائيل وحالهم يقضي أن تكون شريعتهم شديدة؛ تقوم على العزائم لا الرخص، ثم بعث فيهم عيسى عليه السلام، وكان يحمل إليهم شريعة أسهل وأيسر؛ قال تعالى: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}[3]؛ فأكّد العقيدة، وجدّد في الشريعة؛ بإيجاد بعض التسهيلات، ونسخ بعض ما كانوا قد يعانونه من الشدة في الأحكام.

الجاهلية وما كان فيها من بقايا الحنيفية

الإسلام امتداد للحنيفية السمحة؛ التي بعث الله بها إبراهيم عليه السلام؛ قال تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}[4]؛ وقال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[5]، والعرب أولاد إسماعيل عليه السلام؛ وقد توارثوا ملّة أبيهم ومنهاجه؛ من توحيد الله وعبادته، وتقديس حرماته، بتعظيم وخدمة البيت الحرام.

ولما امتدت بهم القرون خلطوا الحق بكثير من الباطل الذي تسلل إليهم، واندس المشعوذون والمبطلون، ودخل فيهم الشرك، وعبدوا الأصنام؛ فابتعدوا بذلك عن منهج الحنيفية، وعمتهم الجاهلية، وأول من أدخل عبادة الأصنام عمرو بن لُحيّ؛ قالﷺ (رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفَ، أَخَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ- أمعاءه- فِي

---

1 . آل عمران 19.

2 . البقرة 130-132.

3 . آل عمران 50.

4 . الحج 78.

5 . آل عمران 95.

النَّارِ)[1] وفي ابن هشام: (إنه كان أول من غير دين إسماعيل؛ فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي)[2].

دوافع عبادتهم الأصنام: دفعهم إلى ذلك أمور؛ منها الجهل بحقيقة عقيدة التوحيد، والأمية التي كانت متفشية فيهم، والتأثر بمن كان حولهم من أشتات القبائل والأمم، غير أنه بقيت فيهم بقية من الناس متمسكة بالحنيفية؛ تصدق بالبعث والنشور، وتوقن بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، وتكره عبادة الأوثان، ومن هؤلاء؛ قس بن ساعدة الأيادي، ورئاب الشنّيّ، وبحيرا الراهب، وإن كانت هذه المبادئ لا تكاد تظهر في حياتهم إلاّ مشوهة؛ ومن ذلك تعظيم البيت، والطواف، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة، وهدي البُدن، فأصله مشروع ومتوارث، ولكنهم يطبقونه على غير وجهه، ويقحمون فيه ما ليس منه؛ كالتلبية؛ فقد كانت كنانة وقريش تقول: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك) فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، والخلاصة أن إبراهيم عليه السلام بعث بالحنيفية السمحة، وكانت تغمر حياة العرب عقيدة التوحيد، ثم ابتعدوا عن الحق رويداً رويداً، وظهرت ظلمات الشرك، وظلّت بقايا من معالم الحق القديم في سير بطيء، ويقلّ أنصارها، ثم استنارت شعلة الدين الحنيف من جديد؛ ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ فأقبل الوحي الإلهي فمحا الضلالات والظلمات، وأنار مكانها قبس الإيمان، وأيّد الله بقايا الحنيفية وأكّدها، وهذا معروف بالبداهة.

شبهة وتفنيدها: بعض الناس يخضعون اعتقاداتهم للهوى، وقد صفدوا عقولهم بأقسى أغلال العبودية والاسترقاق الفكري! يدّعون أن العصر الجاهلي أخذ يستيقظ قبيل البعثة! وأخذت الأفكار العربية تثور على مظاهر الشرك وعبادة الأصنام، وتمثلت هذه اليقظة والثورة ببعثة محمد ﷺ؛ ومعنى هذا أن نور الهداية ظهر قبل النبوة! والتاريخ يقرر عكس ذلك تماماً بصراحة؛ فالعهد الذي سبق البعثة كان أبعد العهود الجاهلية عن الهدى؛ عدا بعض مبادئ الحنيفية، ككراهية الأصنام والنزوع إلى بعض الفضائل، وخالفهم آخرون؛ فقرروا أن محمداً ﷺ لم يستطع القضاء على ما كان معروفاً من الأعراف والتقاليد والاعتقادات فأسبغ عليها ثوب الديانة؛ وأضاف إلى جملة العقائد الغيبية عند العرب رقابة عليا، قوامها شخصية إله قادرٍ، فعالٍ لما يريد، فاستمروا بعد الإسلام يؤمنون بالسحر وبالجن، وظلوا على ما كانوا عليه من الطواف بالكعبة وتقديسها؛ وينطلق هؤلاء من فرضيتين؛ **الأولى:** أن محمداً ﷺ ليس نبياً، **والثانية**: أن ما كان لدى العرب إنما هو من تقاليدهم؛ فليس احترام الكعبة وتقديسها أثراً من آثار دعوة إبراهيم عليه السلام؛ وإنما هو من التقاليد العربية المختلفة! ومن القائلين بهذا المستشرق

---

1 . صحيح مسلم ، باب النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ.

2 . البحيرة التي لا تحلب، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم؛ والوصيلة الناقة البكر إذا ولدت أنثى ثم أنثى سيّبوها، والحام فحل الإبل إذا كبر لا يحمل عليه شيء وسمّوه الحام؛ وانظر تهذيب سيرة ابن هشام ج 1/ ص 21.

جيب[1]في كتابه (بنية الفكر الديني)[2]، وقد جردته عصبية العمياء من مقومات كرامته، وتجاهل الحقائق الناصعة؛ فجزم أن بنية الفكر الديني الإسلامي إنما هي العقائد والأفكار الغيبية عند العرب (الإحيائية العربية)؛ تأملها محمد فغيّر ما أمكنه تغييره، ثم عمد إلى الباقي فكساه حلّة الدين الإسلامي، وواجهته المشكلة العظمى؛ لأنه أراد أن يبني الحياة الدينية لشعوبٍ وأممٍ، لا للعرب فقط، فأقام هذه الحياة ضمن منهج القرآن! وادعى أنه ليس أول من قال بهذا؛ وأنه مسبوق بأقوال جماعة من المفكرين المسلمين، ومنهم الشيخ الكبير شاه ولي الله الدهلوي[3]؛ ونقل نصاً من كتابه حجة الله البالغة[4]، ولم ينقله بأمانه؛ بل حرّف وبدّل، وهذا ما تفعله العصبية العمياء، وعند مناقشة غير المسلمين لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الأمور الآتية:

أ. أن القائلين أغمضوا أعينهم عن الحقيقة، وليس لهم دليل عقلي أو تاريخي.

ب. لا يجوز أن نغمض الفكر عن دلائل نبوته ﷺ لمجرد التسليم لفرضية أنه ليس بنبيّ، ومن أدلة نبوته الوحي، وتطابق دعوته ودعوة الأنبياء قبله وصفاته وأخلاقه.

ت. لا ننسى الملة الحنيفية؛ ولا نسلّم أن سيدنا محمداً ﷺ إنما طلاها بطلاء الدين.

---

1 . إلياس جيبGibb : مستشرق اسكتلندي، وتعلم تاريخ العرب والترك والفرس وفلسفتهم توفي عام 1901 م.

2 . بنية الفكر الديني جيب 58.

3 . شاه ولي الله أحمد الدهلوي الهندي، فقيه حنفي من أهل دهلي بالهند، توفي 1176 هـ = 1762 م

4 .انظر حجة الله البالغة للدهلوي 1/122.

من المولد إلى البعثة

نَسبُهُ ﷺ

اختاره الله من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب[1]؛ قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)[2]، وهو قسمان؛ قسم متفق عليه؛ وهو(21) جَدّاً، من محمد إلى عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقسم مختلف فيه؛ إلى آدم عليه السلام؛ وهذه غير منضبطة.

مولده: ولد يوم الاثنين 12 ربيع الأول عام الفيل[3] 571م على الأرجح، وولد يتيماً؛ إذ مات أبوه عبدالله وأمه حامل به لشهرين، فعُني به جده عبد المطلب.

رضاعته: أرضعته امرأة من بني سعد؛ اسمها حليمة؛ وكانت سنة مجدبة، فما نزل في ديارهم حتى عادت منازلهم مُخضرّة؛ فكانت أغنامها تعود ممتلئة الضرع[4].

حادثة شق الصدر: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ – فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقَعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ)[5]، وكان قد تمّ له من العمر خمس سنوات[6].

---

1 . ميّز الله العرب على سائر الناس، وفضّل قريشاً على سائر القبائل؛ روى الترمذي- في المناقب- أنه ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا)؛ وحبه ﷺ يقتضي محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها محبة عامة؛ من غير نظر إلى خصوص الأفراد؛ فقد يكون بعضهم من المنحرفين؛ فيلغى الشرف حينئذ.

2 . مسلم: كتاب الفضائل، باب فَضْلِ نَسَبِ النَّبِي ﷺ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

3 . عام حاول فيه أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم الكعبة فرده الله عن ذلك بالآية الباهرة التي وصفها القرآن الكريم.

4 . يدل هذا على علوّ شأن الرسول ﷺ، وإكرام الله له منذ كان طفلاً وأكرم بسببه منازل السعدية؛ ولقد علمتنا الشريعة الاستسقاء ببركة الصالحين؛ والرسول ﷺ في مقدمة أسباب البركة والإكرام الإلهي؛ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} الأنبياء 107.

5 . مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء.

6 . حادثة شق الصدر التي وردت في الخبر الصحيح من دلائل النبوة؛ وليست الحكمة منها استئصال غدة الشر؛ إذ لو كان الشر منبعه غدة لأمكن أن يصبح الشرير خيّراً بعملية جراحية؛ ولكنها عملية تطهير معنوية، وإعلان أمر الرسالة والعصمة منذ صغره بوسائل مادية، يراها الناس.

وفاة أمه آمنة وجده عبد المطلب

لمّا بلغ ست سنوات ماتت أمه آمنة، فكفله جده عبد المطلب، ولمّا تمّ له ثمان سنوات مات جده[1]، فكفله عمه أبو طالب.

رحلته الأولى إلى الشام وقصته ﷺ مع الراهب بحيرا[2]

لما تمّ له ﷺ اثنتا عشرة سنة سافر مع عمه إلى الشام، ولما نزلوا بصرى مرّوا على راهب هناك؛ يقال له بَحيرا، وكان عالماً بالإنجيل، فجعل يتأمل النبي ﷺ ويكلّمه، ثم قال لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني[3]، فقال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً، فقال: هو ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال بحيرا: صدقت، فارجع به بلده واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه هنا ليُبلِغُنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة[4].

---

1 . ولد ﷺ يتيماً، فتولاه الله برعايته، ونشـــأ محروماً من رعاية الأب والجد، ومن عاطفة الأم وحنوّها؛ والحكمة إن لا يُقال: لقد رضـــع لبان دعوته بإرشـــاد وتوجيه من أبيه وجده؛ وورث منهما الرفادة والســـقاية، والمال والجاه، وليس بمســـتغرب حينئذٍ، وكان من تتمة هذه الحكمة أن يموت عمه؛ حتى لا يتوهم أن له مدخلاً في دعوته؛ فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا.

2 . ابن هشام 1/180، تاريخ الطبري 2/287، ورواه الترمذي، وصححه الألباني، والقدر المشترك من الروايات ثابت.

3 . كان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه.

4 . أهل الكتاب يعلمون بعثة النبي ﷺ، وذلك بواســـطة ما جاء في التوراة والإنجيل، ومن الدلائل أن اليهود كانوا يستفتحون - يستنصرون - على الأوس والخزرج بمبعثه ﷺ ويقولون: إن نبياً سيبعث قريباً سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، ونكثوا فنزل: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَــدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْــتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} البقرة 89، روى القرطبي- في الجامع 2/163- أنه لما نزل: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} البقرة 146 سأل عمر عبدالله بن ســـلام وقد كان كتابياً فأســـلم: أتعرف محمداً كما تعرف ابنك؟ فقال نعم وأكثر؛ بعث الله أمينه في ســـمائه إلى أمينه في أرضه؛ بنعته فعرفته، أما ابني فلا أدرى ما الذي قد كان من أمه.

كدحه ﷺ في سبيل الرزق ورعيه للأغنام

استقبل ﷺ فترة الشباب بالسعي للرزق، واشتغل برعي الغنم[1]؛ قال ﷺ: (كنت أرعى الغنم على قراريط[2] لأهل مكة)[3]، وحُفظ من الانحراف إلى اللهو والعبث؛ قال ﷺ: (ما هممت بشـــيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين؛ كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرســـالة، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ســـمعت عزفاً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني، فنمت فما أيقظني إلاّ حرّ الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء)[4].

---

1 . إقباله ﷺ على رعى الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق فيه ثلاثة دلائل هامة؛ منها:

الأولى: الذوق الرفيع والإحساس الدقيق؛ وقد جمّل الله بهما نبيه ﷺ؛ فقد كان عمه يحوطه بالعناية، ولكنه ﷺ لما آنس قدرةً على الكسب أقبل يكتسب؛ ليخفف عن عمه، ولو بالقليل؛ فهو تعبير أخلاقي رفيع، وبذل للوسع، وشهامة في الطبع، وبر في المعاملة.

الثانية: نوعية الحياة التي يرتضيها الله للصالحين؛ والله قادر على إغنائهم عن رعاية الأغنام، ولكن لنعلم أن خير المال ما يكتسب بكد اليمين، وشر المال ما لا يبذل مقابله فائدة للمجتمع.

الثالثة: الداعية لا يتكل على العطايا، بل يعتمد على جهده بمورد شريف؛ ولا يستجدي، ولئلا تكون لأحد منّة؛ فيعيقه عن الصدع بالحق، وهذه هي الحكمة، وإن لم تخطر في بال الرسول ﷺ؛ لأنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الرسالة الإلهية.

2 . القيراط جزء من الدينار أو الدرهم

3 . البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

4 . رواه الحاكم، الطبراني، وحفظ الله إيّاه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه يوضح حقيقتين:

الأولى: أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية الفطرية التي جُبل الناس عليها؛ من السمر واللهو، وأن نفسه تحدثه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

الثانية: أن الله عصمه قبل النبوة من جميع مظاهر الانحراف التي لا تتفق مع مقتضيات الدعوة ؛ من رغائب النفس التي لا تليق بالرسالة؛ وهو عاصم خفي غير عاصم النبوة.

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين عناية إلهية تُسيّره، وهذه من أعظم الأدلة على معنى النبوة، وقد يسأل سائل: لماذا لم ينتزع الله هذه الدوافع الغريزية من يوم ولادته؛ فلا يجد في نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ذلك؟ والجواب أنه حينذاك لا يدل على أكثر من شذوذ في تركيبه النفساني، وليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية، وفي وجودها يُسهّل على الناس أسباب الإيمان برسالته، ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه.

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة تاجرة؛ ذات شرف ومال[1]؛ تستأجر الرجال في مالها، بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن محمد صدق الحديث، والأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، ومعه غلامها مَيسَرة، وقَبِل ﷺ هذا العرض؛ فرحل إلى الشام، فحالفه التوفيق، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة، فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم، ووجد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة؛ فأخبر خديجة، فأعجبت بأمانته، وزاد إعجابها لما نالت البركة بسببه، فعرضت نفسها عليه، عن طريق صديقتها (نفيسة بنت منيّة)، فوافق ﷺ، وكلّم أعمامه، فخطبوها له، من عمها عمرو بن أسد، وتزوجها ﷺ وقد بلغ خمسة وعشرين عاماً، ولها أربعون عاماً، وكانت قد تزوجت قبله بعتيق وأبي هالة.

1 . فضل خديجة، ومنزلتها في حياته ﷺ؛ وهي مكانة سامية؛ يدل على ذلك أنه ثبت أنها خير نساء زمانها على الإطلاق، قال ﷺ: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ) -رواه مسلم كتاب الفضائل، باب مِنْ فَضَائِلِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ- وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النبي ﷺ إِلاَّ عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ، قَالَتْ فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا) -رواه مسلم كتاب الفضائل، باب فضل خديجة أم المؤمنين- وعن عائشة: (كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة؛ فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام، فأخذتني العبرة؛ فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خير منها؟ فغضب ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبنى الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء) رواه أحمد في المسند.

زواجه ﷺ من خديجة

يظهر من زواجه ﷺ من خديجة عدم اهتمامه ﷺ بأسباب المتعة الجسدية كبقية الشباب؛ ولو كان كذلك لطمع بالأقل سناً؛ إنما رغب فيها لشرفها؛ فهي العفيفة الطاهرة، وقد دام الزواج حتى توفيت، ولم يتزوج غيرها وهي معه، وكان تعدد الزوجات مشهوراً، وهي ليست بكراً وأكبرُ منه، وهذا أدعى أن يتزوج غيرها، وفي هذا رد على المستشرقين الذين تخيّلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه في صورة الرجل الشهواني! وليس غريباً عليهم؛ فهي صناعتهم، ويتكسبون منها، أما أتباعهم الذين يقلدونهم فهدفهم محاربة الإسلام، وليس عملاً فكرياً لقصد البحث أو المحاجة؛ لأن المطلع على سيرته ﷺ تثبت العكس؛ فالرجل الشهواني لا يعيش خمسة وعشرين عاماً في البيئة العربية الجاهلية وهو عفيف النفس، دون أن يسير مع التيار وهو يموج حوله، أما زواجه بعد ذلك من عائشة وغيرها فإن لكل زواج حكمة وسبب؛ تدلان على رفعة شأنه، وكمال أخلاقه، وهي أبعد ما تكون مجرد قضاء الوطر والرغبة الجنسية، ولو كان كذلك لاستجاب لتلك الرغبة في وقتها، وقد كان خالي الفكر من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية.

اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة

الكعبة أول بيت لعبادة الله[1]، بناها إبراهيم عليه السلام[2]؛ قال تعالى؛ {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[3]، وتعرضت الكعبة للعوادي؛ التي صدعت جدرانها، وكان منها سيل ضعّف بنيانها، فلم تجد قريش بداً من إعادة بنائها، وشارك ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة؛ فقد كان ينقل الحجارة على كتفه، ما بينها وبينه إلاّ إزاره، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة، وفي الصحيح أنه (لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلاَنِ حِجَارَةً فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيّﷺ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى عَاتِقِكَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَفَعَلَ فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: إِزَارِى

---

1 . أهمية الكعبة وشرفها وقداستها؛ مثابة للناس وأمناً، وهي على ما لها من قداسة ووجاهة، لا تأثير لها فيما يتعلق بالألوهية؛ فهي حجارة لا تضر ولا تنفع، وقد كسّر إبراهيم عليه السلام الأصنام، واقتضت حكمته تعالى أن يرفع شعاراً للتوحيد، وبطلان عبادة الأصنام، وهو المعنى الصحيح للدين، وقد آن لمن يعبد الأصنام أن يستعيض عنها بالمعبد الذي أقيم لعبادة الله وحده، وإذا كان لا بد للمؤمنين من رابطة يتعارفون بها، ومثابة يؤوبون إليها فليس أجدر من هذا البيت؛ قال الله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} -البقرة 125- وهو معنى الحج إليه والطواف حوله.

2 . اختلفوا فيما قبل إبراهيم عليه السلام؛ هل كانت الكعبة مبنية قبل ذلك أم لا ؟ وجاء في بعض الروايات أن أول من بناها آدم عليه السلام، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: بعث الله جبريل ﷺ إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً، فخط لهما جبريل ﷺ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل، حتى أصابه الماء فنودي من تحته حسبك يا آدم، فلما بنياه أوحى الله إليه أن يطوف به، وقيل له أنت أول الناس، وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح عليه الصلاة والسلام، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه) - رواه البيهقي في دلائل النبوة- وهذه الرواية تفرد بها ابن لهيعة، ومعلوم أنه ضعيف لا يحتج به، وهناك روايات وآثار قريبة في المعنى من هذا الذي رواه البيهقي إلاّ أن جميعها لا يخلو من ضعف أو نكارة، وقيل: أن أول من بناه شيث.

3 . البقرة 127.

إِزَارِي، فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ)[1]، ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حل المشكلة[2]؛ التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، وخضع الجميع لاقتراحه، وهو الأمين والمحبوب من الجميع [3].

اختلاؤه في غار حراء

لما قارب ﷺ الأربعين، نشأ لديه حب للعزلة، وحبب الله إليه الاختلاء في غار حراء، فكان يخلو فيه، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى[4]؛ وهكذا إلى أن جاءه الوحي.

---

1 . رواه مسلم: باب الاِعْتِنَاءِ بِحِفْظِ الْعَوْرَةِ.

2 . يتبين مدى حكمته ﷺ في تدبير الأمور، وقطع دابر الخصومات، التي تراق فيها الدماء، وقد وصل بهم الخلاف إلى درجة القتال؛ فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد الرسول ﷺ ونحن ينبغي أن نحيل هذه المزية فيه ﷺ إلى ما اختاره الله له من القيام بعبء الرسالة والنبوة، قبل أن نحيلها إلى العبقرية؛ فالأصل أنه رسول، ويتبين من القصة مدى سمو منزلته ﷺ بين قريش، على اختلاف طبقاتهم؛ فقد كان ملقباً عندهم بالصادق الأمين، وكان محبوباً منهم كلهم، وكانوا لا يرتابون في صدقه، وفي كريم أخلاقه، وهذه ظاهرة تكشف لك عن مدى الحقد والعناد، وقد امتلأت بهما أفئدتهم، بعد أن جاءتهم الرسالة من عند الله.

3 . بنيت الكعبة أربع مرات؛ **أولها:** بناء إبراهيم وإســـماعيل عليهما الســـلام؛ {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} -البقرة 127- وفي الحديث أن إبراهيم عليه السلام قال: (يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْـــمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي) -رواه البخاري كِتَاب أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا- **وثانيها:** بناء قريش قبل الإسلام، واشترك فيه النبي ﷺ، ونقصوا من طولها في الأرض ستة أذرع تركوها في حجر إسماعيل؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: (يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ) -رواه البخاري كتاب الحج باب فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا- **وثالثها:** بناء عبدالله بن الزبير؛ وذلك لمّا احترق زمن يزيد بن معاوية سنة ست وثلاثين، ورموا البيت بالمنجنيق؛ فتهدم واحترق، فانتظر ابن الزبير حتى قدم الناس موسم الحج، فقال: أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة؟ فقال ابن عباس: أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجدّه فكيف بيت ربكم؟ ثم باشر في رفع بنائه، **ورابعا:** بعد مقتل ابن الزبير؛ إذ (كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ، وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أُسٍّ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيخِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَـيْءٍ، أَمَّا مَا زَادَ فِي طُولِهِ فَأَقِرَّهُ، وَأَمَّا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ، وَسُدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ، فَنَقَضَـــهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ) -رواه مسـلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها- وعزم هارون الرشـيد على أن ينقضـــها، ويعيدها كما بناها ابن الزبير، فقال له الإمام مالك: أنشـــدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة الملوك من بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلاّ غيره، فتذهب هيبته في قلوب الناس، فصرفه عن رأيه فيه.

4 . للخلوة أهمية في حياة المسلم عموماً والداعية خصوصاً؛ فكل مسلم مهما كان عابداً ساعات عزلة؛ يحاسب فيها نفسه، ويفكر في دلائل عظمته، وهي على الداعية أوجب، والحكمة تتمثل في أمور؛ **أولها:** قطع شر آفات لا يقطعها إلا العزلة، كالكبر والرياء والحسد، والخلوة مع النفس علاجها؛ ليتأمل حقيقتها ومدى حاجته إلى عناية الله وتوفيقه دائماً، وليتأمل ضعفه، وأنه لا فائدة لمدحهم للتزلف أو حسدهم، وليتفكر في عظمة الله، فيحيي القلب بنور العرفان، **وثانيها:** تربية محبة الله في القلب؛ فهو أساس كل دعوة صحيحة، ولا تتأتى من مجرد الإيمان العقلي؛ لضعف تأثيره في القلوب، ولو أثّرت لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين بالله، ولامتلأت أفئدتهم بحبه، ولن تسمع بعالم جبر ضحى بروحه إيماناً بقاعدة رياضية؛ فالوسيلة إلى المحبة بعد الإيمان كثرة التفكر والتأمل في عظمة الله، والإكثار من ذكره بالقلب واللسان، وإنما يتم ذلك بالعزلة، وهى العدة الكبرى تفعل ما لا يفعله الفهم العقلاني المجرد، ولقد فرّق الشاطبي بين عامة المسلمين الذين دخلوا في ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم، وخواصهم الذين دخلوا يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم، وإن اتخاذ الوسائل لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية مما أجمع عليه المسلمون؛ وجمهور العلماء يسمونه التصوف، وبعضهم يسميه

بدء الوحي

روى الإمام البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[1] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[2]، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى - ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا[3]، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ[4]) .

واختلف في مدة فتر الوحي؛ قيل: ثلاث سنوات، وقيل: أقل من ذلك، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر.

الإحسان، وابن تيمية يسميه علم السلوك، واختلاء النبيﷺ كان وسيلة لتحقيق هذه الدوافع نفسها؛ بيد أنه لا يفهم معنى الخلوة بالانصراف الكلي بالكهوف والجبال عن الناس؛ فهو مخالف لهديه ﷺ، والدواء يؤخذ بقدر، وإلاّ انقلب إلى داء، وإن رأيت بعض الصالحين يفعله فمردّ ذلك إلى حالة خاصة به، وليس عمله حجة على الناس.

1 . العلق 1-5.

2 . يسألون: لماذا لم ير الصحابة الملك؟ **والجواب:** ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار؛ فوسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين، والله قادر أن يزيد في قوة بعضها، فيرى ما لا تراه العيون الأخرى؛ يقول مالك بن نبي - مهندس ميكانيكي من الجزائر، توفي عام 1973م-: (إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نموذجية، لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق البنفسجية لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية)انظر الظاهرة القرآنية 127.

3 . شاباً قوياً.

4 . البخاري: كتاب بدء الوحي.

وروى البخاري عن جابر أن النبيﷺ قال: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي[1]، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ -إِلَى قَوْلِهِ -وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} فَحَمِيَ الْوَحْيُ[2] وَتَتَابَعَ)[3].

---

1 . حديث بدء الوحي أساس تترتب عليه جميع حقائق الدين، وفهمه مدخل إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الوحي هو الفيصل بين الإنسان الذي يفكر برأيه وعقله، والإنسان الذي يُبلّغ عن ربه؛ من أجل هذا يشكك أعداء الإسلام بالوحي، ويبذلون جهداً من فنون التصورات المتكلفة؛ من أجل التلبيس والخلط بينه وبين الإلهام، وحديث النفس، والتفكير الذاتي والكشف التدريجي؛ يقولون: تفكيره المستمر أوصله إلى عقيدة كفيلة بالقضاء على الوثنية، وأحياناً يدّعون أنما علّمه بشر كبحيرا الراهب، ويتناقضون؛ فمرة يدّعون أن النبي ﷺ كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع! وأخرى يقولون: إن الوحي حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية، وحديث بدء الوحي دليل واضح، يبين زيف هذه الادعاءات الباطلة؛ وينطوي على حكمة باهرة، وحقيقة ناصعة واقية من التأثر بأخيلة الأعداء المتكلفة، والأدلة على بطلان قولهم كثيرة؛ منها:

(1) أن النبي ﷺ رأى جبريل بعيني رأسه لأول مرة، وليس من وراء حجاب، وفوجئ بجبريل أمامه، وضمه ثلاث مرات، ويقول له: اقرأ، فليس أمراً ذاتياً مردّه إلى حديث النفس المجرد.

(2) كيفية استقباله ﷺ للوحي، فقد قذف الله في قلبه الخوف، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط على فؤاده؛ فلا يخاف ولا يرتعد، ولم يحصل.

(3) أنه خشي على نفسه أن يكون الذي تمثل له آتياً من الجن، أخلاقه الفاضلة تحول دونه.

(4) أنه ﷺ لم يكن متشوقاً للرسالة؛ ولم تخطر في باله ؛ ولذلك قطع خلوته وعاد يرجف فؤاده.

(5) لا انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى، وهذه انفعالات قسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها.

(6) الإلهام أو حديث النفس أو التأملات العلوية لا يستدعى الخوف والرعب وامتقاع اللون.

(7) تأكيد ورقة بن نوفل على أنه إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد نزل على الأنبياء.

(8) انقطاع الوحي؛ فقد توقف عنه بعد ذلك مدة، وجزع ﷺ جزعاً عظيماً حتى حاول أن يتردى من شواهق الجبال، وفي ذلك أبلغ الرد على من يدعي الإشراق النفسي للنبيﷺ؛ ومن البداهة أن صاحب الإلهامات النفسية لا يمر بمثل هذه الأحوال من الانقطاع والاتصال.

2 . استمرار الوحي بعد انقطاعه له دلالات نستطيع أن نجملها فيما يلي:

(1) التمييز الواضح بين القرآن والحديث؛ إذ كان ﷺ يأمر بكتابة القرآن، ويستودع كلامه ذاكرة أصحابه؛ خشية اختلاط كلام الله بكلام، القرآن موحى به لفظاً ومعنى.

(2) سكوت النبي ﷺ على بعض الأسئلة؛ فيمكث زمناً انتظاراً لنزول الوحي، وربما يخالف الأولى فتنزل الآيات تصرفه عن ذلك وقد تنطوي على عتب أو لوم.

(3) النبي ﷺ أميّ؛ فكيف علم الحقائق القرآنية التاريخية؛ {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} العنكبوت 48.

(4) صدق النبي ﷺأربعين سنة مع قومه يستدعي أن يكون صادقاً مع نفسه، ولذا قضى على أي شك يتعلق بالوحي إليه؛ {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} يونس 94، فقال ﷺ: (لا أشك، ولا أسأل) رواه ابن كثير عن قتادة.

3 . البخاري: كتاب الوحي.

من البعثة إلى الهجرة

مراحل الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ

مرت الدعوة في حياته ﷺ بأربع مراحل؛ **الأولى**: سراً واستمرت ثلاث سنوات، **والثانية**: جهراً باللسان فقط، دون قتال واستمرت إلى الهجرة، **والثالثة**: جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر واستمرت إلى صلح الحديبية، **والرابعة**: جهراً مع محاربة كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين؛ وهي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية، وحكم الجهاد في الإسلام.

الدعوة سراً

استجاب النبي ﷺ لأمر الله، فدعا إلى عبادة الله وحده، ولكنه دعا سراً؛ حذراً من مفاجأة قريش المتعصبة لوثنيتها، فلم يكن ﷺ يظهر دعوته في المجالس العامة، ولم يكن يدعو إلاّ قرابته أو من له معرفة سابقة[1]؛ وكان أوائل من دخل الإسلام خديجة بنت خويلد، وعلي ابن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً؛ وهم الذين كانوا يلتقون بالنبي ﷺ سراً، وكان أحدهم إذا أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة، ويستخفي عن أنظار قريش، ولما زاد عددهم على الثلاثين -رجالاً ونساءً- اختار ﷺ دار أحدهم؛ وهو الأرقم ابن أبي الأرقم؛ ليلتقي بهم لحاجات التعليم، وكانت الحصيلة

---

1 . وجه السرية الدعوة أنه ﷺ لم يكن تكتم خلال هذه الفترة بسبب الخوف على نفسه؛ لأنه لمّا قال الله تعالى له: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} -المدثر 1-2-علم أنه رسول، وأيقن أن الله يعصمه من الناس، ولو أمره أن يصدع علناً لما توانى، ولو كان يتراءى له مصرعه، ولكن الله ألهمه أن يدعو من يغلب على ظنه أنه يستمع له، تعليماً للدعاة وإرشاداً لهم إلى الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وبما يقرره العقل السليم من الوسائل من غير أن يخدش أصل الإيمان أو يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام ومن ذلك: **أولاً:** عدم الغفلة عن الاعتماد والاتكال على الله وحده، **وثانياً:** أن لا يتمسك بالأسباب تمسكاً يعطيها معنى التأثير والفعالية؛ ومن هنا تدرك أن أسلوب الدعوة في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية؛ كونه ﷺ إماماً، وليس من أعماله التبليغية كونه نبياً؛ وبناءً على ذلك يجوز استعمال المرونة في كيفية الدعوة؛ من حيث التكتم والجهر، حسب الظروف والواقع، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة الدعوة الإسلامية؛ وقد أجمع جمهور الفقهاء على تقديم مصلحة حفظ أنفس المسلمين، وعدم القتال إذا غلب عليهم الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم؛ بسبب قلة العدد أو ضعف العدة، لأن مصلحة حفظ الدين هنا موهومة أو منفية الوقوع؛ قاله العز بن عبدالسلام -توفي660هـ- في قواعد الأحكام في مصالح الأنام -95/1- ولا تجوز المسالمة مع المتربصين ولا القعود عن الجهاد إذا توفرت أسباب القوة.

إسلام ما يقارب الأربعين رجلاً وامرأة[1]؛ عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش[2].

الجهر بالدعوة

دخل الناس في الإسلام أرسالاً نساء ورجالاً، حتى فشا ذكر الإسلام، وبعد ثلاث سنين أُمر الرسول ﷺ أن يصدع بالحق جهراً؛ قال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[3]، وقال له: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[4]؛ فبدأ ﷺ بتنفيذ أمر ربه؛ فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي؛ يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ؛ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا[5]، فَنَزَلَتْ {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ})[6]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:(لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}[7] دَعَا رَسُولُ

---

1 . كان معظم الداخلين من الفقراء والضعفاء والأرقاء؛ كما مع نوح عليه السلام؛ قال قومه: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} -هود 27- وفرعون وشيعته كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين؛ حتى قال الله عنهم: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} -الأعراف 137- فهذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى؛ والحكمة والسر أن حقيقة الدين الخروج عن سلطان الناس إلى سلطان الله وحده؛ وهي حقيقة تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين، وتناسب حالة المستضعفين والمستعبدين، فيكون رد فعل المتكبرين المكابرة، وتكون الاستجابة من المستضعفين، والإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به ﷺ كان قدراً مشتركاً بين زعماء قريش ومستضعفيها؛ فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق محمد ﷺ فيما يخبر عن ربه، فكان دخول المستضعفين في الدين عن إيمان وقصد ورغبة، وليس للتخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم؛ فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم والانقياد له ﷺ شيء، أما الزعماء والكبراء فصدتهم زعامتهم عن الانقياد والإتباع له، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب، أضف إلى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بألوهية الله وحده من الاعتزاز به، وعدم الاكتراث بسلطان غير سلطانه، أو قوة غير قوته فهذا الشعور - وهو ثمرة الإيمان- يزيد في نفس الوقت قوة، ويجعل صاحبه في نشوة وسعادة غامرة.

2 . يزعم محترفو الغزو الفكري أن دعوة محمدﷺ نابعة من وحي بيئته العربية، وأنها تمثل حركة الفكر العربي! وهو غير صحيح للأسباب أهمها:

أولاً: رصيد هذه الدعوة خلال ثلاث سنوات من بدايتها أربعون رجلاً وامرأة، أغلبهم من المستضعفين والأرقاء والأعاجم؛ كصهيب وبلال، لو كان كما يقولون لما كان الأمر كذلك.

ثانياً: أن بيئته العربية هي التي أرغمته وأتباعه على الهجرة من بلاده؛ كراهية للدعوة.

3 . الحجر 94.

4 . الشعراء 214-215.

5 . رد أبي لهب واتفاق معظم المشركين على معاداته يدل على أن الرسول ﷺ فاجأهم بما لم يكن متوقعاً، وفيه رد قاطع على من يدعي أن الدين ثمرة من ثمار القومية، وأن محمداً ﷺ كان يمثل آمال العرب؛ ولا نحتاج إلى مناقشة هذه الدعوى المضحكة، فالذين يروجونها يعلمون سخفها وبطلانها، ولكن مصلحتهم تتطلب ترويجها؛ فليس المهم أن تكون الدعوى صحيحة ليمكن ترويجها عندهم.

6 . البخاري: كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ . باب وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ أَلِنْ جَانِبَكَ.

7 . الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار عشيرته مع أنهم داخلون بعموم الدعوة إلماح إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً؛ وهي كالآتي:

اللهِ ﷺ قُرَيْشــاً، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَـكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَـكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَـأَبُلُّهَا بِبَــــلاَلِهَا)[1]، وكان رد فعل قريش أن أدبروا عنه، وتنكروا لدعوته، معتذرين بأنهم لن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم، وحينئذ نبههم الرسـول ﷺ إلى ضــرورة تحرير أفكارهم وعقولهم، ولم يقلدهم، وأوضــح لهم أن آلهتهم لا تفيدهم أو تضــرهم شـيئاً، وعاب التقليد؛ كما قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَــيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ}[2]؛ فلما عاب آلهتهم وســفّه أحلامهم، وبيّن أن اعتذارهم بأنها تقاليد آباءهم جَرّ إلى وصـــف آباءهم بعدم العقل[3]،

أولاً: أدنى درجة هي مسؤولية الشخص عن نفسه؛ ولإعطائها حقها استمرت مدة ابتداء الوحي طويلاً؛ ريثما يطمئن ﷺ إلى أنه نبي يوحى إليه؛ فيؤمن بنفسه أولاً ويوطن ذاته لقبول الوحي.

ثانياً: الدرجة التي تليها هي مسؤولية المسلم عن أهله وقرابته، وتوجيها إلى القيام بواجبها، وهذه مسؤولية كل صاحب أسرة، والفرق بين دعوته في أسرته ودعوة الرسول في قومه أن الأول يدعو إلى شرع جديد؛ وهذا يدعو بدعوة رسوله الذي بعث إليه؛ فهو ينطق بلسانه، وكما لا يجوز للنبي أن يقعد عن تبليغ قومه كذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أسرته، بل يلزمهم به إلزاماً.

ثالثاً: مسؤولية العالِم عن حيّه وبلدته، والحاكم عن دولته؛ وكل منهما ينوب مناب الرسول ﷺ؛ إذ هما الوارثان الشرعيان للرسالة؛ فيقال للحاكم خليفة؛ أي خليفة الرسول ﷺ، وفي العلماء قال ﷺ: (إِنّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ) -الترمذي: كتاب العلم، باب ما جَاءَ في فَضْلِ الْفِقهِ عَلَى العِبَادَةَ - ومسؤولية الرسول ﷺ أشمل؛ لأنه مسؤول تجاه نفسه وأسرته والناس كلهم، ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، وفي الثالثة العلماء والحكام .

1 . مسلم: كتاب الإيمان .باب {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، سأبلها: سأصلها؛ شبه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء وهذه تبرد بالصلة.

2 . المائدة 104.

3 . عاب رسول الله ﷺ على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة، دون تفكر منهم في صلاحها أو فسادها، ودعاهم إلى تحرير عقولهم من الإتباع الأعمى؛ وفيه دليل على أن مبنى هذا الدين على العقل؛ ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من أمور اعتقادية أن يقوم على أساس من اليقين والفكر الحر، دون تأثر بعرف أو تقليد؛ حتى قال صاحب جوهرة التوحيد:

فكلُ من قلّدَ في التوحيدِ إيمانُه لم يخلُ من ترديد

والتقاليد في عرف علماء الاجتماع: (مجموعة العادات التي يرثها الآباء عن الأجداد، أو التي تسري بمجرد عامل الاحتكاك في بيئة من البيئات، أو بلدة من البلدان، بشرط أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسي الذي يمد في تلك العادات من أجل الحياة والبقاء؛ فهي جميع ما اعتاده الناس من أنماط حياتهم؛ من مظاهر اللهو في أفراحهم، وأشكال الحداد في أحزانهم، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الاقتباس التلقائي)، والإسلام لا ينطوي على التقاليد؛ عقيدة وأحكاماً؛ فالعقيدة قائمة على أساس العقل، والأحكام قائمة على أساس المصالح الدنيوية والأخروية؛ وهي مصالح تدرك بالتفكير والتدبّر الذاتي، وإن قصر عن إدراكها فهم بعض العقول لبعض العوارض والأسباب؛ وبذلك تدرك خطيئة من يطلق كلمة (التقاليد الإسلامية) على ما يتضمنه الإسلام من عبادات وأحكام وأخلاق؛ لأنها توحي إلى الأذهان أن السلوك والخلق الإسلامي ليس مبدأ إلهياً فيه سر سعادة البشر، وإنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء والأجداد، والنتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم؛ الذي يُراد فرضه على المجتمع في عصر متطور ومتقدم وجديد، والحق أن هذه حلقة في سلسلة حرب الإسلام بالشعارات المدسوسة؛ لأن التقاليد إذا مر عليها زمن أصبح من السهل على أعداء الإسلام محاربتها ابتداءً من النقطة التي تنفذ إليها حرابهم وسهامهم؛ وحينئذ يستفيق المسلمون ليجدوا معظم مبادئ الإسلام وأحكامه كالزواج والطلاق وحجاب المرأة وصيانتها قد أسبل عليها رداء التقاليد، وسيبرز من يدعو إلى نبذها والخروج عن إسارها وكسر قيودها، خصوصاً في هذا العصر الذي أصبحت السيادة فيه لحرية الرأي والتفكير، وإذا

أعظموا الأمر، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلا عمه أبا طالب الذي منعه، وقام دونه.

الإيذاء[1]

اشتدت معاداة قريش للرسول ﷺ ومن ذلك ما ورد في الأحاديث الآتية:

1. (قال عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)[2].

كانت المبادئ البشرية قد تخطئ الصواب أحياناً لشذوذ في أفكار أصحابها، فإن مبادئ الإسلام لا تخطئ الصواب أبداً؛ لأن الذي شرعها هو خالق العقول والأفكار، وهذا وحده دليل عقلي كاف للاقتناع بهذه المبادئ واليقين بوجاهتها وصوابها.

1 . يتساءل المسلم؛ لماذا يُعذّب النبي ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله وهم جنوده وفيهم رسوله؛ يدعون إلى دينه ويجاهدون في سبيله؟ والجواب أن أول صفة للإنسان أنه مُكلّف بحمل ما فيه كلفة ومشقة، والدعوة والجهاد من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله، وإدراك عبودية الإنسان لله من ضرورات ألوهيته؛ ومن أجل هذا كان واجب عباد الله في هذه الدنيا تحقيق أمرين اثنين:

أولهما: التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح.

ثانيهما: سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج والمال من أجل تحقيق الإيمان الذي كُلفنا به، وإن ما يلاقيه المجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي سنة إلهية تقتضيها حِكم ثلاث:

أولاً: صفة العبودية الملازمة للإنسان؛ قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} -الذاريات 56- و**ثانياً:** صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية؛ فكل عاقل راشد مكلف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، وتحقيق النظام الإسلامي في مجتمعه، ويتحمل الشدة والأذى، و**ثالثاً:** إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز بينهما؛ قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} العنكبوت 1-2.

ولو شاء الله لجعل السبيل إلى إقامة المجتمع الإسلامي سهلاً معبداً، وحينئذ تُفقد هذه الحِكم؛ ولا سبيل لمعرفة تضحية العبد، وأنه قد باع حياته وماله لله يوم أن أعلن الإيمان به، وعلى أن جميع أهوائه تابعة لما جاء به الرسول ﷺ، ولا يتمحص الواحد منهم عن الآخر؛ فهذه هي سنة الله في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولا تحويلاً، وقد حدث مع أنبيائه وأصفيائه فأوذوا، وأوذي أصحابهم؛ فالعذاب الذي يلقاه المسلم في طريقه إلى إقامة المجتمع الإسلامي ليس في حقيقته عقبات تصد السالك عن بلوغ الغاية؛ بل هو سلوك في الطريق الذي خطه الله تعالى بين المسلم والغاية التي أمره بالمسير إليها؛ وبمقدار ما يجدونه في طريقهم من العذاب بمقدار ما يقتربون إلى الغاية التي ينشدونها؛ فعلى المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من النكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم ؛ قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} -البقرة 214- فلا يتوهم متوهم أن العذاب الذي يلاقيه المسلمون هو دليل على ابتعادهم عن النصر؛ بل إنه قريب؛ وهذا هو السر في أنه ﷺ بشّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد فارس والروم، ولم تفتح هذه البلاد عليهم إلا بعد وفاته ﷺ بزمن غير يسير، وكان من مقتضى محبة الله لرسوله أن يفتح كل تلك البلاد في حياته وبقيادته وتحت إشرافه؛ ولكن النصر مرتبط بقانونه وهي سنة إلهية، فالمسلمون في حياة الرسول ﷺ لم يكونوا قد دفعوا أقساط الثمن كله لتحقيق النصر، وليست المسألة أن ترتبط الفتوحات باسم الرسول ﷺ، ولكن ليبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله على صدقهم فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول والرضى تحت قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} التوبة 111.

2 . البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة المؤمن.

2. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ، وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلاَ جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَىَ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَىَ مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ)[1].

3. روى الطبري وابن إسحاق أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب، فنثرها على رأسه، وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله يقول لها: يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك.

وأما أصـــحابه فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت التعذيب، وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شـــيئاً؛ فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْـتَنْصِــرُ لَنَا أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[2].

سياسة المفاوضات

كان عتبة بن ربيعة سيداً ذا بصيرة ورأي في قريش؛ فقال في ناديهم: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه، وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء، ويكف عنا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد؛ قم إليه فكلّمه، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منّا حيث علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً؛ تنظر فيها؛ لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً مَلّكناك علينا[3]، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيّاً

1 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
2 . البخاري: كِتَاب الْمَنَاقِب، باب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ.
3 . كان المشركون يفاوضونه وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته، والغاية من رسالته، وهم يعلمون أنه لن ينزل عند شيء من مغرياتهم؛ من الزعامة والجاه؛ ولم يكن ﷺ يضمر هذه المطالب من وراء دعوته؛ ولذلك لم يلن لهم، وأنصت لهم، وفاوض مفاوضة طويلة مع تخويف وتهديد ورجاء وهي تعرض عليه! ولو كان طالباً لها لما انتظر طويلاً ولقبل سريعاً، ثم إن معيشته ﷺ كانت مطابقة لكلامه، فلم يعرض عن المُلك بلسانه ليصل إليه خلسة بسعيه وعمله؛ بل كان ﷺ بسيطاً في مأكله ومشربه؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ) -رواه البخاري في كِتَاب فَرْضِ الْخُمُسِ، باب نَفَقَةِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ- وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (لَمْ يَأْكُلْ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ)- البخاري في كتاب الرقاق، باب فَضْلِ الْفَقْرِ- وكان ﷺ بسيطاً في ملبسه وأثاث بيته، يؤثّر في جنبه الحصير، وما عرف أنه نام على شيء وثير، حتى إن نساءه جئن إليه يوماً وفيهن السيدة عائشة رضي الله عنها يشتكين الفاقة، ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن، فأطرق ولم

تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فقال له رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، ثم قال: {حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ}[1]، ثم مضى ﷺ في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى: { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[2]، فأمسك عتبة بفيه، وناشده أن يكف عن القراءة، وذلك خوفاً مما تضمنته الآية من تهديد، ثم عاد عتبة إلى أصحابه، فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعْتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه مُلْكُكم، وعِزّه عزّكم، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم[3].

وروي أن نفراً من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل جاءوا، فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يعطوه المال، حتى يكون أغناهم، وأن يزوّجوه أجمل أبكارهم، على أن يترك شتم آلهتهم، وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة إلى الحق الذي بُعث به، قالوا: نعبد إلهك يوماً، وتعبد آلهتنا يوماً، فرفض ذلك أيضاً، ونزل قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[4]، ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة، فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة

يجب، ثم نزل قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} -الأحزاب 28-29- فتلا رسول الله ﷺ عليهن هاتين الآيتين، ثم خيّرهن بين قبول العيش معه على الحالة التي هو فيها، أو الإصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة المال وحينئذ يفارقهن ويسرحهن سراحاً جميلاً، فاخترن العيش معه على ما هو عليه، في كل ذلك رد على أرباب الدعوات والمنادين بالثورة والإصلاح الديني؛ وفيه ردٌ على الأعداء أمثال كريمر البريطاني -توفي 1908م، وفان فولتن الألماني -تـوفي 1909م- وغيرهم من الذين يدّعون أن النبيﷺ كان يضمر حباً للزعامة.

1 . فصلت 1-6.

2 . فصلت 13.

3 . يدل هذا على شرف الغاية والوسيلة؛ ولذلك لم يمنح ﷺ صلاحية أن يسلك أي سبيل؛ لأن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات؛ وللمسلم أن يسلك الطريق التي جعلها الله وسيلة لغاية منضبطة ضمن حدود الشريعة؛ ومن الأدلة أن رسول الله ﷺ لم يرضَ ما عُرض عليه من الزعامة والملك؛ وكان يمكن اتخاذ المُلك وسيلة إلى تحقيق دعوة الإسلام؛ وللسلطان وازع قوي في النفوس، ولكنه ينافي مبادئ الدعوة نفسها؛ إذ لو جاز لانمحى الفرق بين الصادق والكاذب الذي يخادع، ولتلاقى الجميع على طريق واحدة اسمها الحكمة والسياسة؛ وهذا ينافي فلسفة هذا الدين؛ التي تقوم على شرف الوسيلة والغاية معاً؛ ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية في معظم حالاتهم إلى التضحية والجهاد والأتعاب؛ لأن سبيلهم لا تسمح لهم بالتعرج، والمطلوب سلوك أقرب الوسائل إلى عقول الناس وأفكارهم؛ وهذا هو الفرق بين الحكمة والمخادعة، وبين الحكمة والمسالمة.

4 . سورة الكافرون.

والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذي يأتيه رَئياً من الجن، فقال لهم ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، فقالوا له: فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشدَّ عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليفجّر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن بعث لنا منهم قصيّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول؛ أحق هو أم باطل؟ وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة؛ يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإن صنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، ثم إنهم قالوا له: إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل في اليمامة؛ يقال له الرحمن، وأنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وأنّا والله لا نتركك وما بلغت منا، حتى نهلك أو تهلكنا، ثم انصرفوا عنه[1].

الحصار الاقتصادي

أجمع كفار قريش أمرهم على قتل الرسول ﷺ، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ إليهم، فلما عجزت قريش عن قتله أجمعوا على منابذته ومَن يحميه من بني هاشم وبني المطلب ومن معه من المسلمين؛ فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدَعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يُسلّم بنو المطلب رسول الله ﷺ للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة، والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها، وقيل: استمر ذلك سنتين فقط، وقيل: إن ذلك كان قبل الهجرة إلى الحبشة، والرواية الأولى تدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد الهجرة إلى الحبشة وبعد إسلام عمر، وحوصر ﷺ وأقاربه الكافرون ومن معه من

---

1 . طلبت قريش مطالب لا يقدر عليها شرطاً لإتباعها إياه، قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا} -الإسراء 90-94- وليس السبب في عدم استجابة الله لهم ما يظنه البعض من أن الرسول ﷺ ما أوتي من المعجزات إلا معجزة القرآن! وإنما السبب أنهم إنما يطالبون بذلك كفراً وعناداً وإمعاناً في الاستهزاء برسول الله ﷺ، كما هو واضح في أسلوب ونوع المطالب، ولو علم الله فيهم صدق الطلب وحسن النية لحقق لهم ذلك، ولكن أمر قريش في ذلك مطابق لما وصفهم الله تعالى بقوله: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} - الحجر 14-15- فلا تنافي بين هذا وما ثبت من إكرام الله لنبيه ﷺ بالمعجزات الكثيرة المختلفة.

المسلمين في شعب بني المطلب؛ أما المسلمون فصبروا تديّناً، وأما الكافرون فحمية[1]، أما أبو لهب -عبدالعزى بن عبدالمطلب- فإنه خرج إلى قريش فكان معهم، فجهد النبيﷺ والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة، واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط[2] وورق الشجر، وذكر السهيلي[3] أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحد أصحاب رسول الله إلى السوق ليشتري شيئاً من الطعام؛ يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون[4] من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به[5]، فلما كان على رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة[6]، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله، وأخبر الرسول ﷺ عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب: أربُّك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة؛ موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاءوا بها وهي مطوية، فقال أبو طالب: إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يَكذبني قط- أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة، فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاءون، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة، فوجدوا

---

1 . كان دافع المسلمين الانصياع لأمر الله، وطلباً لرضاه، وكان دافع المشركين حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذي سيلحق بهم لو خلوا بين النبيﷺ وقريش يقتلونه، فقد آثروا أن يجمعوا بين رغبتين في صدورهم؛ الأولى: الثبات على الشرك والاستكبار على الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، والثانية: الانصياع للحمية؛ بحماية القريب من بطشة الغريب وظلمه؛ بحق أو بباطل، وليس كما قال بعض المبطلين؛ الذين يدّعون أن عصبية أقاربه كانت تكمن خلف دعوته، وتحوطها بالرعاية والحفظ! ودليلهم موقفهم من المقاطعة؛ وإنها لمغالطة مكشوفة؛ لأن من الطبيعي أن تقودهم الحمية الجاهلية إلى الذود عن حياة ابن عمهم عندما تتهددها يد غريبة، وتعصب ذوي القربى لا ينظر إلى مبدأ، ولا يتأثر بحق أو بباطل؛ ولذلك اجتمع فيهم صفتان متناقضتان؛ هما الاستكبار والانتصار له، ولم يحققوا أي فائدة من وراء ذلك، بل أوذوا، والمهم أن حماية الأقارب لرسول الله ﷺ لم تكن حماية للرسالة، وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب، واستغلها المسلمون وسيلة من وسائل الجهاد ضد الكافرين.

2 . الخبط بفتح الخاء والباء: وَرَقَ شجر السَّمُرِ.

3 . عبد الرحمن السهيلي توفي 581 هـ =1185 م، حافظ، عالم باللغة والسير، له الروض الأنف.

4 . يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل.

5 . ثبت رسول الله ﷺ ومن معه رغم هذا الضيق الخانق، وفيه رد على الذين يتأولون رسالة الإسلام على أنها ثورة يسار ضد يمين؛ أي ثورة المضطهدين ضد المترفين! ومَن تصوّر حلقات الإيذاء والتعذيب أدرك أنه لا يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها؛ للأدلة التالية:

الأول: عرض المشركون عليه ﷺ الملك والزعامة، على أن يتخلى عن دعوته، ولم يرض بذلك، ولم يَثُر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه كي يقبل؛ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بأكثر من هذا؟.

الثاني: لقد قوطع المسلمون عن سبيل كل معايشة؛ فلم يُترك طعام يدخل إلى بيوتهم، حتى أكلوا أوراق الشجر، وهم صابرون؛ أفهكذا يصنع من تعتلجُ وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش؟!.

الثالث: عندما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة تركوا المال والأرض والممتلكات، وتجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون في المال؛ لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلاًً، ولا يقيمون وزناً لدنيا فاتتهم.

6 . دويبة صغيرة تأكل الخشب وغيره.

الأمر كما أخبر الصادق ﷺ فقالوا: هذا سحر ابن أخيك! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً، ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش مشوا في نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار؛ وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية، والمطعم ابن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود؛ وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية؛ أقبل على الناس عند الكعبة؛ فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يُباعون ولا يُبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة إلى بني هاشم وبني المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم[1].

أول هجرة في الإسلام

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن ملكها لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان في مقدمة المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة وزوجته، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف؛ حتى اجتمع في أرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ بضعة وثمانون رجلاً[2]، فلما رأت قريش ذلك أرسلت

1 . يدّعي أعداء الإسلام أن غاية المسلمين رفع المعاناة عنهم، وليست الغاية نشر الدين، ويدعون أنه كانت أغلبية المسلمين من الفقراء والمضطهدين؛ فأرادوا بذلك ينفّسوا عن كربهم، وأنهم يتأملون مستقبلاً اقتصادياً أفضل في ظل الدين الجديد! ويدل على بطلان هذا الادعاء أنه تمكّن المسلمون من فتح بلاد الروم والفرس في حقبة يسيرة؛ لأنهم صدقوا الله في إسلامهم، ولم يكن من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوات الدنيا، ولو كان لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح؛ فلو طمع عمر بكنوز كسرى لحُرمها، لو راود هذا الحلم المسلمين في القادسية لما دخل ربعي سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التي غمس فيها السرادق غمساً؛ يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها؛ وهو يقول لرستم: إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم! أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال؟ إن المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهي الذي يقول: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}- القصص 5- والشريعة تقضي بإرساء العدالة بين الناس، وبالضرب على يد كل ظالم، ومن المُسلّم به أن يحاربها أهل البغي؛ لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، ومن المُسلّم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم؛ لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، وليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها؛ كما هم أرباب الزعامات وعشاق العظمة والسيطرة.

2 . إن الاستمساك بالدين أساس كل قوة، وهو السياج لحفظ كل كرامة؛ فواجب الدعاة تجنيد كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها؛ ذلك أن الدين لو فُقد لم تُغن تلك الأشياء عنه، وإذا قوي شأنه وقامت دعائمه فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله يعود أقوى من ذي قبل؛ حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة، وسنة الله أن القوى المعنوية هي الحافظة للقوى المادية، ومهما كانت الأمة غنية في عقيدتها كان سلطانها المادي أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءً وأمنع جانباً، ومهما كانت فقيرة تائهة في عقيدتها فإن سلطانها المادي يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال؛ وإن بدا عكس ذلك في أمة فالواقع أنها تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة؛ من غير أن تحس بسرعته؛ لأن عمر الإنسان قصير أمام طول عمر التاريخ؛ ومثل هذه الحركة إنما تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل، وقد تجد أمة تعرّت عن كل مقوماتها المادية للمحافظة على العقيدة الصحيحة وبناء

إلى النجاشي عبدالله ابن أبي ربيعة، ومعه عمرو بن العاص -ولم يكن قد أسلم بعد- وأرسلوا معهما هدايا مختلفة كثيرة؛ له ولحاشيته وبطارقته، رجاء أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين في جواره، ويسلمهم إلى أعدائهم، فلما كلّما النجاشي في ذلك - وكانا قد كلما بطارقته من قبله وقدّما إليهم ما جاءا به من الهدايا - رفض النجاشي أن يُسلِم أحداً من المسلمين إليهما حتى يكلمهم في شأن دينهم الجديد هذا؛ فجيء بهم إليه، ورسولا قريش عنده، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل؟ فكلمه جعفر ابن أبي طالب؛ فقال: أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش، فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئاً مما جاءهم به الرسول ﷺ من عند الله، فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، ثم قال لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم التفت إلى رسولي قريش قائلاً: انطلقا؛ فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون، ثم إنهما عادا فقالا للنجاشي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون؛ فأرسل إليهم في ذلك، فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ، يقول: هو عبدالله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول؛ فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود[1]، ثم رد إليهما هداياهما، وزاد استمساكه بالمسلمين الذين استجاروا به، وعاد الرسل إلى قريش خائبين، وبعد

النظام السليم، فما تلبث إلا وتستحوذ على الوطن المسلوب والمال المغصوب، وتعود إليهم قوتها مضاعفة معززة، ولن تجد الصورة الصحيحة إلا في عقيدة الإسلام ونظامه الاجتماعي؛ ولذا كان من أسس الدعوة الإسلامية:

أولاً: التضحية بالمال والحياة في سبيله؛ ليضمنوها لأنفسهم؛ ومن أجل هذا شرعت الهجرة في الإسلام؛ وهي ضرب من العذاب، وليست هرباً من الأذى، بل هي تبديل للمحنة ريثما يأتي النصر.

ثانياً: الهجرة تكون إلى المكان الذي تمارس فيه دينك وتدعو إليه بحرية؛ ولذلك ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا إلى بلاد كافرة؛ لأنها أجدر بالإقامة فيها؛ والحكم يدور بين الوجوب والجواز والحرمة؛ أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بشعائر الإسلام، والجواز يكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به، والحرمة تكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره.

1 . هذه هي حقيقة العلاقة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد ﷺ وعيسى عليه السلام؛ فالنجاشي مخلص وصادق في نصرانيته، وكان مقتضى إخلاصه أن لا يتحول عنها إلى ما يخالفها، ولكنا رأيناه يؤيد ما سمعه من القرآن عن حياة عيسى عليه السلام، وذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين من حوله؛ وهذا يؤكد أمرين:

أولاً: أن الأنبياء كلهم إنما جاءوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها عن بعضهم قيد شعرة.

ثانياً: أن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم.

فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكة، فرجعوا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفياً؛ وكان جميعهم ثلاثة وثلاثين رجلاً، وكان من بين من دخل بجوارٍ عثمان ابن مظعون؛ إذ دخل بجوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة دخل بجوار أبي طالب[1].

أول وفد إلى رسول الله ﷺ

وفَدَ إلى رسول الله ﷺ أول وفْدٍ من خارج مكة؛ لفهم شيء عن الإسلام، وكانوا بضعة وثلاثين رجلاً من نصارى الحبشة؛ جاؤوا مع جعفر ابن أبي طالب لدى عودته إلى مكة، فلما جلسوا إلى رسول الله ﷺ واطّلعوا على صفاته وأحواله، وسمعوا من القرآن آمنوا كلهم، فلما علم بذلك أبو جهل أقبل إليهم قائلاً: ما رأينا ركباً أحمق منكم! أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نسأل أنفسنا خيراً[2]؛ فنزل فيهم قول الله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}[3].

---

1 . يجوز للمسلم أن يدخل في حماية غيره عند الحاجة؛ سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي قبل إسلامه، أو كان مشركاً كأولئك الذين عادوا إلى مكة في حمايتهم؛ كأبي طالب، وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ في حمايته عندما رجع من الطائف، وهذا مشروط بعدم الإضرار بالدعوة أو التغيير لأحكام الإسلام، أو السكوت على اقتراف المحرمات؛ وإلا وجب الخروج عن تلك الحماية؛ كما في موقف النبيﷺ مع عمه .

2 . في خبر هذا الوفد المكوّن من ثلاثين رجلاً نصرانياً - وقيل: أربعين- أمران:

أولاً: قدوم الوفد للقاء الرسول ﷺ والتعرف على الإسلام وإعلان الولاء للدعوة الجديدة في وقت يعاني المسلمون الإيذاء والمقاطعة يدل على أن ما قد يلاقيه الدعاة لا يعني الفشل؛ فالإيذاء سبيل النصر، ولا بد للدعوة من أن تؤتى ثمارها؛ وقد علم أبو جهل بهذه الحقيقة، فنطق بكلمات، ولكن ما عساه أن يصنع؟ ولا يقدر إلا على إنزال مزيد عذاب بالمسلمين، ولا سبيل له على الدعوة.

ثانياً: نوعية إيمان أفراد هذا الوفد؛ هل هو إيمان من يخرج من ظلمات الكفر إلى النور؟ الواقع أنه استمرار لإيمانهم السابق؛ فقد كانوا أهل إنجيل يؤمنون به، ويسيرون على هديه، والإنجيل يأمرهم بإتباع الرسول الذي يأتي من بعد عيسى عليه السلام، ويتحدث عن صفاته، فليس إيمانهم انتقال من دين إلى دين، بسبب تفضيل أحدهما على الآخر، وإنما هو حقيقة إيمانهم بعيسى عليه السلام، وهو معنى قوله تعالى: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} -القصص 53- لأنه مما يدعو الإنجيل للإيمان به، وهذا هو شأن كل من تمسك بما جاء به عيسى أو موسى عليهما السلام؛ إذ الإيمان بالتوراة والإنجيل يستدعي الإيمان بالقرآن، وقد أمر الله رسوله أن يكتفي بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما في التوراة والإنجيل؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} - المائدة 68- فالدين الحق واحد لم يتعدد، منذ خلق الله آدم عليه السلام، فمن الخطأ أن نقول:(الأديان السماوية) ونريد العقائد والشرائع، ويجوز أن نقول: (شرائع سماوية)؛ لأنها تعني العبادات والمعاملات.

3 . القصص 52-53.

عام الحزن[1]

وهو العام العاشر من بعثته ﷺ، فقد توفيت خديجة رضي الله عنها، وتوفي عمه أبو طالب[2]، وكان بين الوفاتين شهر وخمسة أيام[3]، أما خديجة فهي وزير صدق على الإسلام؛ يجد الرسول ﷺ عندها أنسه وسلواه، وأما أبو طالب فقد كان عضداً وحرزاً في أمره، وكان ناصراً له على قومه، قال ابن هشام: فلما هلك أبو طالب نالت قريش من الرسول ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية؛ فإن الله مانع أباك؛ ولقد أطلق النبي ﷺ على هذا العام عام الحزن لشدة ما كابد فيه من الشدائد في سبيل الدعوة.

هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف

لما نالت قريش من النبي ﷺ فآذته خرج يلتمس النصرة، وانتهى ﷺ إلى الطائف، فعمد إلى نفر من سادات ثقيف؛ فجلس ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه رداً منكراً، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة، فقام ﷺ من عندهم، وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة؛ حتى أن رجليه لتدميان[4]،

---

1 . سمي هذا العام بعام الحزن؛ لا لمجرد فقده عمه وزوجته، فقد استساغ بعضهم إقامة الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن مستدلين بهذا، والواقع أن النبي ﷺ لم يحزن على فراقهما ذلك الحزن الشديد مستوحشاً بفقدهم، بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة في وجهه؛ فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات للدعوة كثيرة، وبعد وفاته سدت تلك المجالات، والكل ما بين مستهزئ ومعتد ومتهكم به، فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من الوظيفة التي كلفه الله بها بنتيجة، ولذلك كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية؛ قال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآَيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} الأنعام 33-35.

2. لقد توفي أبو طالب قبل أن يشتد ساعد المسلمين، وكان له دور بارز في حماية الرسول ﷺ من كثير من المصائب، ووراء ذلك حِكم تتعلق بأسس العقيدة؛ منها لو أنه بقي إلى جانب الرسول ﷺ يحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية لأوهم أنه كان من وراء هذه الدعوة؛ وأن الحظ الحسن هو الذي هيأ لهذه الدعوة من يدفعها إلى الأمام، ويحميها بسلطانه، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله، فأوذوا وهو محفوظ مستريح البال! فبموت أبي طالب تجلّت حقيقتان هامتان:

أولاً: أن الحماية والنصر من الله، وقد عصم الله رسوله ﷺ ، وستبلغ دعوته منتهاها بالتوفيق.

ثانياً: العصمة لا تنافي الإيذاء وإنما هي من القتل، ومن عدوان يوقف الدعوة، وقد أوذي الأنبياء؛ قال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} الحجر 94-95.

3 . طبقات ابن سعد.

4 . إن ما لاقاه النبي ﷺ من ألوان المحنة من جملة أعماله التبليغية؛ إذ تدل على أنه ﷺ بلّغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر، وكيفية تطبيقه، تنفيذاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا}- آل عمران 200- فبلغهم ذلك كما بلغهم العقيدة وأحكام العبادات بالوسيلة التطبيقية؛ وبيّن أن الصبر من مبادئ الإسلام؛ ولذلك استقبل تلك المحنة راضياً صابراً محتسباً، فلا يُتوهَم أن الضجر قد نال منه، وأنه ربما استعظم تلك المحنة فتوجه إلى الله بالدعاء، فالحقيقة أنه ﷺ كان بوسعه أن ينتقم من السفهاء الذين آذوه، ومن الزعماء الذين أغروا به سفهاءهم، ولكنه ﷺ لم يشأ ذلك؛ ودليل ذلك حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ

وزيد بن حارثة يَقيه بنفسه، وشج ﷺ في رأسه[1]، حتى وصل إلى بستان لعتبة بن ربيعة؛ فرجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل شجرة عنب، وقد أنهكه التعب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، فلما اطمأن رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء:(اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْته أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنْ عَافِيَتُك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُك، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلا بِك)[2]، ثم إن ابني ربيعة تحركت الشفقة في قلبيهما؛ فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: (عَدّاس)، فأرسلا إليه قطفاً من العنب في طبق؛ فلما وضع عَدّاس العنب بين يدي رسول الله ﷺ، وقال له: كُل، فمد رسول الله يده قائلاً: بسم الله، ثم أكل، فقال عَدّاس متعجباً: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له الرسول ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى[3]؛ فقال الرسول ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عَدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذلك أخي؛ كان نبياً وأنا نبي؛ فأكب عَدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه[4].

قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي؛ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ؛ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ؛ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)- البخاري كتاب بدء الخلق، ومسلم: كتاب الجهاد والسير- وربما يقول قائل: ما معنى رفع صوته بالدعاء الذي تدل ألفاظه على الضجر؟ والجواب: الشكوى إلى الله تعالى عبادة، والضراعة له والتذلل على بابه طاعة، وللمحن حِكم؛ من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى الله، وتلبسه جلباب العبودية له، فليس بين الصبر والشكوى تعارض؛ بل الواقع أنه ﷺ كان يعلمنا الأمرين؛ بصبره الشديد علمنا أن هذه وظيفة المسلمين عامة والدعاة خاصة، وبضراعته علّمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها؛ فالرسول ﷺ يوطن نفسه لتلقى كل أنواع الضر في سبيل ربه، وهو مع ذلك بشر يتألم للضر، ويستريح للنعيم، ولكنه يفضل الضر على النعيم إرضاءً لوجه ربه وأداءً لحق العبودية، ولا ريب أن هذا هو مناط استحصال الثواب، وظهور معنى التكليف للإنسان.

1 . وقاية زيد بن حارثة رضي الله عنه للرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء، حتى شج رأسه نموذج لما ينبغي أن يكون عليه المسلم بالنسبة لحماية قائد الدعوة والدفاع عنه، وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته؛ وهذا هو حال الصحابة، أما اليوم فلا يتصور الدفاع عنه بذلك النحو؛ وإنما يتحقق على نحو آخر؛ وهو أن لا نضن على أنفسنا بالمحن في سبيل الدعوة الإسلامية، وذلك إذا كان هنالك قادة للدعوة يخلفون النبي ﷺ في دعوته؛ فعلى المسلمين أن يكونوا جنوداً مخلصين لهم، كشأن الصحابة مع الرسول ﷺ.

2 . لو نجح النبي ﷺ في دعوته دون مشقة؛ لطمع المسلمون من بعده بأن يستريحوا، ولاستثقلوا المحن؛ فالتعذيب الذي ذاقه ﷺ يخفف وقع المحنة على المسلمين؛ لشعورهم أنه أصابهم ما أصاب رسولهم، الذي ألقي التراب على رأسه في السوق، ولقي ما لاقاه في الطائف، فيستسهلون كل محنة.

3 . قرية بالموصل بالعراق.

4 . المتأمل يجد الأذى هنا قاسياً، لكنه يعتبر مواساة له ﷺ ورداً إلهياً على الإيذاء على سفاهة أولئك الذين آذوه، وتجد اعتذاراً له عن سفاهتهم؛ وذلك في مظهر عَدّاس؛ إذ أسرع الإجلال يعتذر عن الشر، وجاءت القبلات بعد العداوة، وكان ابنا ربيعة من ألد الأعداء، وممن مشوا إلى أبي طالب مع أشراف قريش، يسألونه أن يكّفه عنهم، أو يخلي بينهم وبينه، أو ينازلوه إياه حتى يهلك أحد الفريقين، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني؛ لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة، وجاءت النصرانية تعانق الإسلام؛ إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح؛ كالأخ من أخيه، غير أن نسب الأخوة الدم، ونسب

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به النفر من الذين ذكرهم الله تعالى، فاستمعوا له[1]، فلما فرغ من صلاته ولوّا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قص الله خبرهم عليه ﷺ في قوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[2]، وقوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}[3]..إلى آخر الآيات[4].

الدين العقل، ثم أتمّ القدر رمزه في هذه القصة، بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة؛ فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامي العظيم، الذي امتلأ حَبّاً، كل حبة فيه مملكة.انظر وحي القلم مصطفى صادق الرافعي 2/ 30.

1 . استماع الجن إليه ﷺ وهو يصلى في جوف الليل بنخلة - كما في الصحيحين- فيه دليل على أن الجن مكلفون، قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} -الأحقاف 29-31- وفي البخاري - كِتَاب الْأَذَانِ، باب الْجَهْرِ بِقِرَاءَةِ صَلَاةِ الْفَجْرِ- (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ؛ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ قَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ}، وزاد مسلم - في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن- (مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ...)؛ قال ابن حجر -في فتح الباري 466/5-: (كأن البخاري حذف هذه اللفظة عمداً؛ لأن ابن مسعود أثبت أن النبي ﷺ قرأ على الجن، فكان ذلك مقدّماً على نفي ابن عباس)، وقد أشار إلى ذلك مسلم -في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن- فأخرج عقب حديث ابن عباس هذا حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ؛ قال: (أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ)، ويمكن الجمع بين الروايتين بتعدد الحادثة؛ ثم إن الذي رواه البخاري ومسلم يختلف عما رواه ابن إسحاق من ناحيتين؛ **أولاهما:** أن رواية ابن إسحاق خالية من الإشارة إلى أنه كان يصلى بأصحابه، بل تفيد أنه كان يصلي منفرداً، في حين أن الروايات الأخرى ذكرت أنه كان يصلى بأصحابه، و**ثانيهما:** ليس فيها تقييد الصلاة بالفجر، والروايات الأخرى تنص على أنه كان يصلى الفجر، فأما رواية ابن إسحاق فلا إشكال فيها، بينما في الروايات الأخرى إشكالان:

الأول: كيف يستقيم أنه كان ﷺ يصلى بطائفة من أصحابه ولم يكن معه في ذهابه إلى الطائف ورجوعه منها إلا زيد بن حارثة؟ و**الثاني:** كيف يستقيم أنه ﷺ كان يصلى الفجر والصلوات الخمس لم تشرع إلا ليلة الإسراء والمعراج، وإنما كان المعراج بعد ذهابه إلى الطائف، على ما ذهب إليه كثير من المحققين؟ والجواب على الإشكال الأول أنه يحتمل أن يكون قد التقى ببعض من أصحابه فصلى بهم الفجر، والجواب على الإشكال الثاني أن استماع الجن تكرر أكثر من مرة؛ وهذا ما ذهب إليه الجمهور إذا كانت الإسراء والمعراج بعد الطائف؛ فإن كانت قبل ذلك فلا إشكال البتة.

ويجب الإيمان بوجود الجن للأخبار المتواترة، ولئن كانت حواسنا لا تشعر بهم؛ فذلك لأن وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية، وأجمع المسلمون على أن إنكار الجن أو الشك في وجودهم يستلزم الردة، ومن يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجن لأنه لم ير الجان فسينكر كثيراً من الموجودات اليقينية لعدم إمكان رؤيتها؛ والقاعدة العلمية المشهورة تقول: (عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود)؛ أي عدم رؤيتك لشيء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً أو غير موجود.

2. الأحقاف 29-31.

3 . الجن 1.

4 . كل ما رآه ﷺ في سياحته إلى الطائف بعد القسوة والعذاب في مكة لم يكن له أي تأثير على ثقته بالله تعالى، أو على قوة العزيمة الإيجابية في نفسه؛ مما يدل على أن يقين النبوة كان ثابتاً في قلبه ﷺ.

ثم عاد رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة؛ يريد دخول مكة، فقال له زيد: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، ثم أرسل رجلاً من خزاعة إلى مُطْعِم ابْن عَدِيٍّ يخبره أنه داخل في جواره، فاستجاب مُطْعِم لذلك، وعاد ﷺ إلى مكة[1].

معجزة[2] الإسراء والمعراج

الإسراء: الرحلة التي أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، والمعراج هو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السموات العلا، ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده عموم الخلائق من ملائكة وإنس وجن، كل ذلك في ليلة واحدة، واختلف في ضبط تاريخها؛ هل كانت في العام العاشر من البعثة أم بعد ذلك؟

قال ابن سعد في طبقاته الكبرى: إنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً؛ ولذلك فهي من معجزاته الباهرة التي أكرمه الله بها[3]، أما قصة ذلك ففي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ

---

1 . المحن لا تصدنا عن السير، ولا تبث فينا الكسل؛ فمن استمد القوة من الله جدير بأن لا يعرف لليأس والكسل معنى؛ إذ ما دام هو الآمر فلا شك أنه هو الناصر أيضاً، وإنما يأتي التخاذل والكسل واليأس بسبب المحن التي تعترض السبل والمبادئ التي لم يأمر بها الله؛ إذ في مثل هذه الحال يركن العاملون إلى قوتهم الخاصة بهم، فمن الطبيعي أن تنقلب القوة بسبب طول المعاناة إلى يأس وتخاذل نظراً لمقياس القوة البشرية المحدودة.

2 . المعجزة لا معنى ذاتي لها عند التأمل، ويراد بها معنى نسبي مجرد؛ فهي في اصطلاح الناس كل أمر خارج على المألوف، والمألوف يتطور ويختلف باختلاف الثقافات؛ فرب معجزة في زمن انقلبت اليوم إلى شيء مألوف، ورب مألوف في بيئة متمدنة مثقفة ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين؛ والحقيقة أن المألوف وغير المألوف معجزة في أصله؛ فمن المعجزات الكواكب وحركة الأفلاك، والإنسان نفسه، وكم كان دقيقاً ذاك العالم الفرنسي شاتوبريان -توفي 1848م- الذي أطلق على الإنسان (الحيوان الميتافيزيقي)؛ أي الغيبي المجهول، غير أن الإنسان يحسب أن المعجزة هي تلك التي تفاجئ ما اعتاده فقط! وليس عسيراً على الله أن يزيد معجزة، أو أن يبدّل في بعض أنظمته.

3 . يبالغ بعض الباحثين في تصوير حياة الرسول ﷺ على أنها حياة بشرية عادية؛ وذلك ببيان أن حياته ﷺ لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات، بل كان منكراً لها؛ غير عابئ بها ولا ملتفت إليها، وأنها ليست من شأنه، ويستدلون بمثل قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا الْآَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ} - الأنعام 109- بحيث يخيّل إلى الناس أن سيرته ﷺ بعيدة كل البعد عن معجزات الأنبياء، وإذا أمعنا في منبع هذه النظرية نجد أنها في الأصل فكرة بعض المستشرقين؛ من أمثال غوستاف لوبون -فرنسي توفي1931م- وأوغست كونت- فرنسي توفي 1857م- وجولد زيهر - يهودي مَجري توفي 1920م - وغيرهم، وأساس هذه النظرية عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً؛ ذلك لأن الإيمان بالله إذا استقر في النفس سهل الإيمان بكل معجزة، ثم تلقف هذه النظرية أناس من المسلمين؛ جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون سبب، سوى الافتتان بزخرف خداعهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوروبا، وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده- مصري توفي 1905م- ومحمد فريد وجدي- كاتب إسلامي شركسي توفي سنة 1954م- وهيكل، ثم نظر محترفو الغزو الفكري في تشكيك المسلمين بدينهم فوجدوا أنه يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة؛ وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية، وغرس الأفكار الإلحادية في الرؤوس؛ فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله ﷺ كالبطولة والعبقرية والقيادة في عبارات من الإعجاب والإطراء، ويبالغون في نفس الوقت في تصوير حياته العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات؛ كي يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبي ﷺ في أذهان المسلمين، قد تكون صورة (محمد العبقري) أو (محمد القائد) أو (محمد البطل) ولكنها ليست (محمد النبي الرسول)؛ وحينئذٍ تكون جميع حقائق النبوة من غيبيات وخوارق من باب ما يسمونه الميتيولوجيا -الأساطير- لأن ظاهرة الوحي رأس المعجزات، ويكون أيضاً انضوائهم تحت لوائه بتأثير العبقرية ومقومات القيادة في حياته، ويتجلى هذا واضحاً في إشاعة كلمة (محمديين) كتسمية جديدة بدلاً عن مسلمين، وإذا تأملنا في حياته ﷺ وجدنا حقائق كثيرة؛ منها:

رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ[1]، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ[2]، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الْخَالَةِ: عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا- فَرَحَّبَا، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً}[3] ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

أولاً: أبرز صفة في حياته ﷺ هي النبوة، ومعنى المعجزة قائم في أصل النبوة؛ فلا تُنفى المعجزة إلا بهدم النبوة، وقد صرح بعض المستشرقين بذلك؛ مثل شبلي شميل - لبناني توفي 1917م- حينما سمى الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة! ولا معنى للبحث إذ الدين محل شك عنده.

ثانياً: أن الله سبحانه وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يديه ﷺ لا مناص من قبولها، ولا مجال لردها؛ لأنها نقلت إلينا متواترة قطعية؛ فمن ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة؛ وحديث انشقاق القمر على عهده ﷺ حينما سأله المشركون ذلك، ومن العجيب أن هؤلاء يتجاهلون هذه الأحاديث المتواترة، ومن الواضح أن سبب هذا التجاهل هو التهرب من الإشكال العويص الذي سيواجهونه لدى النظر في هذه الأحاديث؛ إذ هي تناقض النظرية التي تطوف برؤوسهم.

1 . الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس فيه دلالات؛ منها:

أولاً: الاقتران الزمني بين إسرائه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات لدلالةً باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى.

ثانياً: العلاقة الوثيقة بين ما بعث الله به كل من عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به.

ثالثاً: الحفاظ على هذه الأرض المقدسة، ومدى ما ينبغي أن يوجد لدى المسلمين في كل عصر من حمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين، وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم، ويعيدوها إلى أصحابها المؤمنين، ولعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذي جعل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يستبسل ذلك الاستبسال العظيم، ويفرغ كل جهده في سبيل صد الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين .

2 . في اختيار النبي ﷺ اللبن على الخمر دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة؛ والذي ينسجم مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة؛ فليس في الإسلام شيء يتعارض والطبيعة الأصيلة في الإنسان، ولو أن الفطرة كانت جسماً ذا طول وأبعاد لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره، وهذا من أسرار سرعة تقبل الناس للإسلام وسعة انتشاره؛ إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية فإنه يظل نزاعاً إلى استجابة نوازع الفطرة لديه، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية.

3 . مريم 57.

قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ الله مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْساً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئاً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ)[1]، ولما كانت صبيحة اليوم التالي وحدث الرسول ﷺ الناس بما شاهد، طفق المشركون يجمعون بعضهم[2]؛ ليتناقلوا هذا

---

1 . متفق عليه، واللفظ لمسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السَّماوات وفرض الصَّلوات.

2 . ينبغي التنبه للأمور الآتية:

أولاً: موقع معجزة الإسراء والمعراج من الأحداث التي كانت تمر برسول الله ﷺ في ذلك الحين يتبين من خلال ألوان المحن التي لاقاها ﷺ من قريش وفي الطائف، وقد ظهر في دعائه بالضعف والحاجة إلى النصير؛ وهذا الشعور بشري، وهو مظهر العبودية لله، والطمع في معونته، ولعله خشي أن يكون الذي يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله عليه لأمر ما؛ فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج تكريماً له، وتجديداً لعزيمته وثباته، ودليلاً على أن الذي يلاقيه ﷺ هي سنة الله مع محبيه.

ثانياً: كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد معاً باتفاق جمهور المسلمين؛ قال النووي في شرح مسلم ما نصه:(والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده ﷺ والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتار إلى تأويل)، ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك؛ إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل)، ومن الأدلة استعظام مشركي قريش وتعجبهم للخبر، وسرعة تكذيبهم له، إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم على هذا الوجه لما استدعى الأمر منهم أي تعجب أو استعظام أو استنكار، وما سألوه عن صفات بيت المقدس؛ لأن المرئيات في النوم لا حدود لها، بل ويجوز مثل هذه الرؤيا على المسلم والكافر.

الخبر الطريف ويضحكوا منه، وتحداه بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس، ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه، والرسول ﷺ حينما زاره لم يخطر في باله أن يجيل النظر في أطرافه، ويحفظ أشكاله وعدد سواريه، فجلّى له الله عز وجل صورته بين عينيه، وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلياً كما يسألون؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ[1]: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلاَ اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ) ، أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول؛ رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق؛ إني لأصدقه على أبعد من ذلك.

وفي صبيحة ليلة الإسراء والمعراج جاء جبريل وعلّم الرسول ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها، وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثليهما مساءً، كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء إسلام الأنصار

كان النبي ﷺ خلال هذه الفترة يعرض نفسه في مواسم الحج سنوياً على القبائل؛ التي تتوافد إلى البيت الحرام؛ يدعوهم إلى توحيد الله، فلا يستجيب له أحد؛ يقول ابن سعد: (كان الرسول ﷺ يوافي الموسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومِجنّة وذي المجاز؛ يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة؛ فلا يجد أحداً ينصره؛ ويقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب، فيردون علي رسول الله أقبح الرد ويؤذونه)[2]، وروى ابن إسحاق (أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة؛ فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك)[3]، وفي السنة الحادية عشر من البعثة عرض نفسه على القبائل، فبينما هو عند العقبة[4] لقي رهطاً[5] من الخزرج؛ أراد الله بهم الخير؛ فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى

ثالثاً: احذر أن تركن إلى كتاب يسمى بـ(معراج ابن عباس)؛ فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند، ألصقت بابن عباس، وهو بريء منه، وأنه لم يؤلف كتباً، وقد راح يروج له بعضهم، مع أنهم يعلمون أنه كتاب مكذوب، ومن المروجين لويس عوض المتوفى1990م .

1 . متفق عليه: البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ومسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال.

2 . الطبقات الكبرى لابن سعد 1/200.

3 . سيرة ابن هشام 1/425، تاريخ الطبري 2/350.

4 . موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة.

5 . كانوا ستة: أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر.

الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال، قال لهم اليهود: إن نبياً مبعوث الآن قد أطلّ زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم! فلما كلم الرسول هؤلاء النفر ودعاهم إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام، وقالوا: قد تركنا قومنا؛ ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل[1].

بيعة العقبة الأولى

انتشر الإسلام خلال تلك السنة في المدينة، ولما كان العام الذي يليه، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا الرسول ﷺ على بيعة النساء[2]؛ أي أنه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد، وكانت بيعة النساء ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان منهم: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن التيهان؛ ففي الحديث أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ مِنْ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ[3]وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: (تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ قَالَ فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ)[4].

---

[1] . سيرة ابن هشام 2/428.

2 . أي على نمطها في البنود التي بايع النساء عليها.

3 . البخاري: كتاب المناقب، باب وفود الأنصار وبيعة العقبة.

4 . لقد أينع الصبر وأثمر، ولقد رأينا النبي ﷺ صابراً داعياً، ولم يكن يقصر الدعوة على قريش، بل كان يدعو في موسم الحج؛ فلا يرى مجيباً له؛ وكان يقول: (هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي؟) رواه أحمد، وهو يعاني من عدم الاستقرار، فلا ينقص ذلك من عزيمته، ولا ييأس، أملاً في الوصول إلى نشأة مد إسلامي زاخر؛ هذا الثمن كان سهلاً على الله أن لا يكون، ولكنها سنة الله؛ ليتحقق التعبد له اختياراً، كما تحققت العبودية له إجباراً، ولا يتحقق بدون استشهاد، والغُنم بالغُرم؛ والسير إلى ذلك في طريق شائكة مجهدة غير معبدة، والمتأمل في الثمار يجد أنها:
أولاً: جاءت من خارج قريش، فلم تدع مجالاً للشك في مصدرها؛ فلا يظن ظان بأنها دعوة قومية؛ حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته، وكي لا توجد ثغرة لمطعن؛ وهذا ما قاله واحد من الباحثين الأجانب أنفسهم، فقد نقل عن دينه -المستشرق الذي اعتنق الإسلام وتوفي 1929م- قوله: (إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي ﷺ بهذا الأسلوب الأوروبي المحض لبثوا ثلاثة أرباع قرن؛ يدققون ويمحصون بزعمهم، حتى يهدموا ما اتفق عليه جمهور المسلمين من سيرة نبيهم، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة، والروايات المشهورة من السيرة؛ فهل تسنى لهم شيء من ذلك؟ الجواب: لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى

فلما أرادوا الانصراف بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير ﵁ وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى مقرئ المدينة[1].

بيعة العقبة الثانية

عاد مصعب ﵁ إلى مكة في موسم الحج التالي، ومعه جمع كبير من المسلمين المدينة؛ خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين، فعن كعب بن مالك قال: واعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا

بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين لا نجد إلا خلطاً وخبطاً، وإنك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره).

ثانياً: مهدت المدينة لقبول الدعوة؛ فقد كان سكان المدينة خليطاً من العرب -الأوس والخزرج- واليهود - بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع- وزرع اليهود الضغائن بين العرب، فدارت بينهم حروب طاحنة، وكان آخر ما وقع بينهم بُعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان كلما وقع شيء بينهم هدد اليهود العرب بأن نبياً قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم؛ فهذه الظروف جعلت أهل المدينة يتطلعون إلى هذا الدين، عسى أن تتوحد بفضله صفوفهم، ويلتئم شملهم، وتذوب أسباب الشقاق مما بينهم.

ثالثاً: في بيعة العقبة الأولى أسلم عدد من أهل المدينة، ولم يكن إسلامهم مجرد نطق بالشهادتين، بل كان بالجزم القلبي والنطق اللساني، ثم التزموا بالبيعة؛ بأن ينصبغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بعامة مبادئ البيعة؛ فليست مهمته ﷺ أن يلقن الناس كلمة الشهادة، ثم يتركهم يرددونها بأفواههم، وهم عاكفون على انحرافاتهم وبغيهم ومفاسدهم، صحيح أن الإنسان يصدق عليه اسم المسلم إذا صدق بالشهادتين، وأحلّ الحلال، وحرّم الحرام، ولكن بالتصديق بالرسالة عامة، والرسالة هي المفتاح لإقامة المجتمع المسلم، ومن العجب أن البعض يحاولون تقسيم مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام، فللإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهر العبادة، ولهم منه نظمه وتشريعه وأخلاقه؛ يغيّرون ويبدلون كما يريدون! ولو تنبه السابقون من البغاة لهذا الحل الطريف لما توانوا عن الدخول فيه، وإظهار الطواعية له، ما دام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكمتيهم، ولا ترك شيء من قوانينهم، ولما بخلوا في مقابل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يقومون بها، ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم الدخول في نظام وحكم آخر؛ فمن أجل ذلك عاندوا؛ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} النساء 60، غير أنك لا تجد في هذه المبايعة بنداً يتعلق بالجهاد؛ لأنه حينئذٍ لم يكن مشروعاً، وهذا معنى أنها كانت على نمط مبايعة النساء.

1 . إرسال الرسول ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة لدعوة أهل المدينة وتعليمهم قراءة القرآن، وإقامة الصلاة يدل على أنه ليس وحده ﷺ المتكفل بعبء الدعوة إلى دين الله؛ وإنما هو واجب أتباع الدين؛ والدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الإسلام نفسه، فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها؛ فملخص الدعوة:(الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)، وهو معنى الجهاد، وهو من فروض الإسلام، ومن هنا تعلم أنه لا معنى ولا مكان لكلمة (رجال الدين) حينما تطلق على فئة معينة من المسلمين؛ فكل من دخل الإسلام فقد بايع على الجهاد؛ فالمسلمون كلهم رجال لهذا الدين؛ اشترى الله أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة يسخرونهما في سبيل إقامة دينه، ونصر شريعته؛ ولذلك راح مصعب ﵁ يدعو أهل المدينة إلى الإسلام، ولقد كان الرجل يدخل وفي يده الحربة يريد أن يقتله بها، فما هو إلا أن يتلو عليه شيئاً من القرآن، حتى يلقى حربته، ويتخذ مجلسه معهم مسلماً موحداً، حتى انتشر الإسلام في المدينة، فمن هو مصعب هذا؟ إنه إذ ذاك كان أنعم غلام بمكة، وأجود شبانها حلّة وبهاءً، ولما دخل الإسلام طوى كل تلك الرفاهية وذلك النعيم، وانطلق وراء رسول الله ﷺ؛ يتجرع كل شدة، ويستعذب كل عذاب، حتى قضى نحبه شهيداً في غزوة أحد، وليس له مما كان يلبسه إلا ثوب واحد، أرادوا أن يكفنوه به، فكانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه، فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: (هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَبِيلِ اللهِ، نَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ شَيءٌ يُكَفَّنُ فِيه إِلاَّ نَمِرَةٌ فَكُنَّا إِذَا وَضَعْنَاهَا عَلَى رَأْسِهِ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ، وإِذَا وَضَعْنَاهَا عَلَى رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: ضَعُوهَا مِمَّا يَلِي رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ) رواه البخاري كتاب المغازي باب غزوة أحد.

مضـــى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رســول الله ﷺ نتســلل تســلل قطا[1] مستخفين؛ حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان؛ نسـيبة بنت كعب وأسـماء بنت عمرو، قال: فاجتمعنا في الشـعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، فتكلم القوم، وقالوا: خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسـلام؛ ثم قال: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسـاءكم وأبناءكم)، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: (نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا[2]، فبايعنا يا رسـول الله؛ فنحن والله أبناء الحروب، وأهلُ الْحَلْقَةِ[3]، ورثناها كابر عن كابر، فاعترض القول- والبراء يتكلم- أبو الهيثم بن التيّهان فقال: (يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسـيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسـالم من سالمتم)[4]، ولقد كان؛ قال ﷺ: (أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما تخيرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم، ككفالة الحواريين لعيسـى بن مريم، وأنا

---

[1] . كناية عن المشي الثقيل.

2 . أزرنا: أي نساءنا وأهلنا، كنى عنهن بالأزرِ.

3 . الْحَلْقَةِ: السلاح.

4 . **وجوه الاتفاق والافتراق بين البيعتين:** تتفقان في الجوهر، وفيهما إعلان الدخول في الإسلام أمام الرسول ﷺ، وأخذ للمواثيق والعهود على السمع والطاعة، والإخلاص، والانصياع لأوامر رسولهﷺ، وأما وجوه الافتراق فمن وجوه؛ ونلحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والدرس:

أولاً: عدد المبايعين كان في الأولى اثني عشر رجلاً ، أما في الثانية فكان بضعة وسبعين، يدل على جهد مصعب رضي الله عنه؛ فقد عاد لا لينطوي كل على نفسه، بل ليدعو إلى الإسلام؛ ولذلك دخل الإسلام كل دار في المدينة، وأصبح حديث أهلها عن الإسلام، وتلك وظيفة المسلم في كل عهد ومكان.

ثانياً: خلو بنود الأولى من الإشارة إلى الجهاد، ولكنها في البيعة الثانية تضمنت التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن الرسول ﷺ، والسبب أن أرباب الأولى رجعوا وهم على موعد معه ﷺ في نفس المكان في الموسم التالي، ليعودوا إليه بعدد أوفر، ويجددوا البيعة؛ فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال، ما دام أن الإذن به لم يأت بعد، وأن المبايعين سيلتقون مرة أخرى؛ فالأولى مؤقتة مقصورة على البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد، أما الثانية فهي الأساس الذي هاجر ﷺ إلى المدينة بناءً عليه، وهي شاملة للمبادئ التي ستتم مشروعيتها بعد الهجرة، وفي مقدمتها الجهاد، وهو حكم الله ورسوله ﷺ وأنه سيشرع في المستقبل القريب، فلم تكن مشروعية القتال في الإسلام إلا بعد الهجرة على الصحيح، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام في سيرته أنه إنما شرع قبل الهجرة عند العقبة الثانية؛ لأن النبي ﷺ إنما أخذ على أهل المدينة عهد الجهاد نظراً للمستقبل، والدليل ما سبق ذكره أن العباس بن عبادة قال بعد البيعة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال ﷺ:(لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)، وعن ابن عَبّاسٍ قَالَ: (لَمّا أُخْرِجَ النبيّ ﷺ مِنْ مَكّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجُوا نَبِيّهُمْ لِيَهْلِكُنّ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالى: {أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُوا} - الحج 39 - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ) -رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحج - ولعدم فرض الجهاد قبل الهجرة حِكم منها:

أولاً: من المناسب أن يكون الجهاد مسبوقاً بالتعريف بالإسلام وإقامة حججه، وهي المراحل الأولى في الجهاد، ولذا كان تحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون في المسؤولية عنها.

ثانياً: اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن لا يُحمّلهم واجب القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام؛ تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام.

كفيل على قومي)، وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك، فلما بايعنا رسـول الله ﷺ قال:(ارفضّـوا إلى رحالكم)، فقال لـه العباس بن عبادة:(والله الذي بعثك بالحق إن شـــئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسـيافنا)، فقال ﷺ:(لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[1]، فرجعنا، فنمنا حتى أصـبحنا، فلما أصـبحنا غدت علينا جِلّة قريش، فقالوا: يا معشـر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صـــاحبنا هذا تسـتخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنـه والله مـا من حيّ من العرب أبغض إلينـا أن تنشـــب الحرب بيننـا وبينهم منكم)، فانبعث مَن يحلف بالله ما كان من هذا شـــيء، وما علمناه، وقد صـــدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض، ونفر الناس من منى، فتحرى القوم الخبر، فوجدوا أن الأمر قد كان، فخرجوا في طلبنا، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[2] والمنذر بن عمرو- وكلاهما كان نقيباً - فأما المنذر فأعجز القوم فهرب، وأما سـعد فأخذوه، فربطوا يديه بشـراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة؛ يضـــربونه ويجذبونه بجبهته، وكان ذا شـعر كثير، قال سـعد: فو الله إني لفي أيديهم يسـحبونني، إذ أقبل إليّ رجل ممن كان معهم، فقـال:(ويحك، أمـا بينـك وبين أحد من قريش جوار ولا عهـد؟ قلت: بلى والله، لقد كنت أُجيرُ لكلٍ من جبير بن مطعم والحارث بن أمية تجارَهما، وأمنعهم ممن أراد

---

1 . الحديث عن الجهاد مهم؛ لأن بعضهم يخلطون الحق بالباطل؛ بغية التشكيك؛ بالجهاد كونه أخطر ركن؛ إذا استيقظ في النفوس فلن تقف أي قوة مهما بلغت؛ فينبغي إيقاف مدّ إسلامي، فما هو الجهاد؟

إنه بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة المجتمع الإسلامي، والقتال من أنواعه، وغايته إقامة المجتمع الإسلامي، وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة، وكان الجهاد أولاً مقتصراً على الدعوة السلمية مع الصبر للمحن، ومع بدء الهجرة شُرع القتال الدفاعي؛ أي رد كل قوة بمثلها، ثم شرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة في طريق إقامة المجتمع الإسلامي، على أن لا يقبل من الوثنيين والمشركين إلا الإسلام، وذلك لعدم إمكان الانسجام بين الإسلام وما هم عليه من الإلحاد، أما أهل الكتاب فيكفي خضوعهم للمجتمع الإسلامي، على أن يدفعوا الجزية، مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة، واستقر حكم الجهاد عند المرحلة الأخيرة، وهو واجب المسلمين في كل عصر إذا توافرت لديهم القوة، وعن هذه المرحلة يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} -التوبة 123- ويقول ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) -البخاري كتاب الاعتصام ومسلم الإيمان- فلا معنى لتقسيم الجهاد إلى حرب دفاعية وأخرى هجومية؛ إذ مناط الجهاد ليس هو الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، إنما مناطه إقامة المجتمع الإسلامي، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوماً أو دفاعاً، أما القتال الدفاعي المشروع فكدفاع المسلم عن ماله وعرضه أو حياته، وذلك نوع آخر لا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه، وهو ما يسمى بقتال الصائل، وهناك مغالطات دست على الجهاد؛ تتمثل في نظريتين متناقضتين؛ **الأولى:** تنادي بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف وأن النبي ﷺ وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح على أيديهم فتح قهر، لا فتح قناعة، و**الثانية:** تهتف بعكس ذلك فالإسلام دين سلام، الجهاد فيه لرد العدوان فقط، ورغم التناقض فالغاية مقصودة؛ إذ أشاعوا أولاً أن الإسلام دين بطش، وآتت الشائعة ثمارها، وأنكر المسلمون هذا الظلم، والتمسوا الرد، فقام بعضهم فاصطنع الدفاع عن الإسلام، وراح يردد أن الإسلام دين سلام والجهاد فيه لرد العدوان، فصفق البسطاء، وأخذوا يؤيدون؛ فلا شأن له بالآخرين، إلا إذا داهموه في عقر داره، وفاتهم أن هذه النتيجة هي غرض المشككين؛ وصدق الله: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} -محمد 20- ومازال الإنكليزي أندرسن يقول: إن الجهاد اليوم ليس بفرض لقاعدة (تغير الأحكام بتغير الأزمان)؛ فالجهاد في رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة؛ لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية، وأوضاع الحرية ورقي العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة!.

2 . موضع قريب من مكة.

ظلمهم ببلادي) قال: (ويحك فاهتف باسمهما)، ففعلت فجاء جبير بن مطعم والحارث بن أمية، فخلصاه منهم.

قال ابن هشام: وكانت لبيعة الحرب شروط، سوى شرطه عليهم في بيعة العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود[1]، أخذ لنفسه، واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة، قال عبادة بن الصامت: (بَايَعْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ فِي عُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَمَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْعَدْلِ أَيْنَ كُنّا لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ)[2]، وكانت أول آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول ﷺ قول الله تبارك وتعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[3].

إذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة

قال ابن سعد: يروى عن عائشة رضي الله عنها أنه لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه؛ فقد جعل الله له منعة وقوماً، وأهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين[4]؛ لما يعلمون من الخروج؛ فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا بهم، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، واستأذنوه في الهجرة؛ فقال: (قد أخبرت بدار هجرتكم؛ وهي يثرب؛ فمن أراد الخروج فليخرج إليها)؛ فجعل القوم يتجهزون، ويتواسون، ويخرجون، ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحابه ﷺ أبو سلمة رضي الله عنه، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة، ومعه امرأته؛ بنت أبي حشمة؛ فهي أول ظعينة[5] قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول

---

1 . **بيعة العقبة مقدمة للهجرة:** انتهى إلى ســـمع المشـــركين من أهل مكة خبر هذه البيعة، وما تم فيها بين النبي ﷺ والمسلمين من أهل المدينة، ولعل من حكمة ذلك تهيئ أسباب هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، إذ كان لهذا الخبر أثر كبير في تضييقهم الأمر على رسول الله ﷺ وإجماعهم الرأي على قتله، والتخلص منه، وبذلك مهدت البيعة الثانية للهجرة.

2 . النسائي : كتاب البيعة، باب البيعة على القول بالعدل.

3 . الحج 39-40.

4 . كانت فتنة المسلمين في مكة الإيذاء، وما يرونه من المشركين من ألوان السخرية، فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة أصبحت فتنتهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، وكانوا أوفياء لدينهم، مخلصين لربهم، وقابلوا المحن بصبر ثابت، حتى إذا أذن ﷺ بالهجرة، توجهوا إليها، وتركوا وراءهم الوطن، وما فيه من مال ومتاع؛ لأنهم خرجوا مستخفين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأثقال؛ فتركوا كل ذلك ليسلم لهم الدين، وهو مثل المسلم المخلص؛ لا يبالى بشيء في سبيل أن يسلم له دينه، هذا عن المهاجرين، أما الأنصار فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية، والمحبة في الله، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب وحدها، ولذلك كان الميراث في صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين، وأخوته، والهجرة في سبيله، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد تكامل الإسلام ؛ وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة؛ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} الأنفال 72.

5 . الضعينة: هي المرأة في الهودج.

الله ﷺ أرسالاً فنزلوا على الأنصار في دورهم؛ فآووهم ونصروهم وآسوهم، ولم يهاجر أحد إلا متخفياً، غير عمر ﷺ، فقد روى علي ﷺ أنه لمّا همّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى -أخذ- في يده أسهماً، واختصر عنزته- عصاه- ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف في البيت سبعاً متمكناً مطمئناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف فقال: (شاهت الوجوه؛ لا يُرْغِمُ اللهُ إلاَّ هذه المَعاطِسَ، من أراد أن يثكل أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي)، قال علي ﷺ: فما اتبعه إلا قوم مستضعفون[1]؛ علّمهم ما أرشدهم، ثم مضى لوجهه.

وهكذا تتابع المسلمون في الهجرة؛ حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، أو معذب محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج[2].

هجرة الرسول ﷺ

روى البخاري[3] أن أبا بكر ﷺ (تَجَهَّزَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ -وَهُوَ الْخَبَطُ- أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)[4]، وفي هذه الأثناء رأت قريش أنه صار للرسول ﷺ أصحاب بغير

---

1 . المقارنة بين هجرة عمر ﷺ علانية، وهجرته ﷺ مستخفياً تدل على أن تصرّف عمر تصرف شخصي، لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الوسائل ما يحلو له، وما يتفق مع جرأته وإيمانه بالله، أما الرسول ﷺ فهو مشرّع؛ أي أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا؛ ولو أنه ﷺ فعل كفعل عمر لحسب الناس أن هذا هو الواجب، وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر؛ ولذلك استعمل ﷺ كل الأسباب المادية التي يهتدي إليها العقل البشري؛ فترك علياً في فراشه يتغطى ببرده، واستعان بمَن يدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر في بال الأعداء، وأقام في الغار ثلاثة أيام، وليس فعله بسبب خوفه من الوقوع في قبضة المشركين؛ والدليل أنه لمّا تحلق المشركون حول الغار استبد الخوف بأبي بكر ﷺ والنبيﷺ يطمئنه، كل ذلك ليعلم المسلمون أن الاعتماد على الله، ولكن لا ينافي ذلك احترام الأسباب، ومن أبرز الأدلة أنه عندما لحق به سراقة يريد قتله لم يشعر بشيء من الخوف، بل كان مستغرقاً في قراءته ومناجاته ربه؛ لأنه يعلم أن الله سيمنعه ويعصمه من الناس.

2 . يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان:

أولاً: وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، قال ابن العربي - أحكام القرآن 876/2-: (أن هذه الهجرة كانت فرضاً في أيامه ﷺ، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح إنما هي القصد إلى النبي ﷺ فإن بقي في دار الحرب عصى)، ومثل ذلك كل مكان لا يتسنى فيه إقامة شعائر الإسلام؛ يدل على ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} النساء 97-98.

ثانياً: وجوب نصرة المسلمين لبعضهم مهما اختلفت ديارهم ما دام ممكناً، فقد اتفق العلماء على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين منهم في أي جهة في الأرض، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باءوا بإثم كبير؛ ويجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم، ولا يجوز أن يكون التناصر أو التآخي بين المسلمين وغيرهم؛ قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} الأنفال 73؛ فقطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم؛ ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية أساس نصرة المسلمين، كما أن انصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم، وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من وكل جهة وصوب.

3 . البخاري: كتاب المناقب، باب هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺوَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

4 . استبقاء أبي بكر ﷺ رفيقاً يدل على مدى محبة الرسول ﷺ له، وأنه أقرب الصحابة إليه، وأولاهم بالخلافة من بعده، ومن دلالات ذلك أيضاً:

أولاً: استخلافه له في الصلاة بالناس عند مرضه، وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره.

بلدهم، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم، اجتمعوا له في دار الندوة[1]؛ يتشاورون فيما يصنعون بأمره؛ فاجتمع رأيهم على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، ثم يعطي كل منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه؛ كي لا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً، وجعلوا لذلك ميعاد يوم معلوم، فأتاه جبريل عليه السلام يأمره بالهجرة[2]؛ وينهاه أن ينام في مضجعه تلك الليلة، وفي البخاري: (قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ –الصحبة- بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالثَّمَنِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ[3] الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ؛ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ[4]، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ؛ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ[5])[6].

عن أسماء بنت أبي بكر: (لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، قالت: وانطلق بها معه؛ فدخل

ثانياً: قوله ﷺ:(وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خِليلاً لاتخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَلِيلاً) -البخاري كتاب أبواب المساجد، ومسلم كتاب المساجد- ولقد كان رضي الله عنه على مستوى هذه المزية؛ فقد كان مثال الصاحب الصادق، والمضحى بروحه، وبكل ما يملك؛ فقد سبقه في دخول الغار فداءً له، وجند أمواله وأولاده ومولاه وراعي أغنامه في سبيل خدمته ﷺ، وكذلك شأن كل مسلم؛ ولذا قال ﷺ:(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أَكُونَ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ) البخاري ومسلم في كتاب الإيمان.

1 . دار الندوة: دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها.

2 . تأكد هنا أمران:

أولاً: جعل الله قداسة الدين فوق كل شيء؛ فلا قيمة لشيء إذا كانت العقيدة مهددة بالحرب والزوال؛ ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك في سبيل العقيدة والإسلام.

ثانياً: القوى المعنوية المتمثلة في العقيدة هي المحافظة على القوى المادية؛ فالهجرة بالظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له، وفي الواقع حفاظاً عليه وفتحاً له.

3 . أحث: أسرع.

4 . ثقف لقن: حاذق سريع الفهم.

5 . صورة ما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً في سبيل الله، ومن أجل تحقيق مبادئ الإسلام، وإقامة المجتمع المسلم، رسمها أبناء أبي بكر رضي الله عنهم؛ عبدالله وأسماء؛ فقد اشتركا في تهيئة الزاد والراحلة، وإعداد العدة، والذهاب والإياب إلى الغار؛ فلا يكفي أن يكون الإنسان منطوياً على نفسه مقتصراً على عباداته، بل عليه أن يستنفد طاقاته سعياً في سبيل الإسلام، وتلك هي مزية الشباب في حياة الإسلام والمسلمين في كل زمن، وأغلب من كانوا حوله ﷺ كانوا شباباً ولم يألوا جهداً في تجنيد طاقاتهم لنصرة الإسلام.

6 . البخاري: كتاب المناقب، باب هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

علينا جدي أبو قحافة- وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله، قالت: قلت كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فتركتها فوضعتها في كوة البيت، كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده؛ فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ، قالت: لا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني قد أردت أن أسكن الشيخ بذلك)[1].

ولما كانت عتمة تلك الليلة التي هاجر فيها النَّبِيُّ ﷺ اجتمع المشـــركون على بابه يتربصون بهﷺ ليقتلوه، ولكنه خرج من بينهم، وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك علياً ﷺ في مكانه؛ نائماً على فراشه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه أي مكروه[2]، وانطلق الرســـول ﷺ وصـــاحبه أبو بكر إلى غار ثور؛ ليقيما فيه، وكان ذلك على الراجح في اليوم الثاني من ربيع الأول/ 20 أيلول سنة (622م)، بعد أن مضى ثلاثة عشر سنة من البعثة؛ فدخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار؛ لينظر أفيه سبع أو حيّة؟ يقي رسـول الله ﷺ بنفســه، فأقاما فيه ثلاثة أيام، وكان يبيت عندهما عبدالله ابن أبي بكر؛ يخبرهما بأخبار مكة، ثم يدلج من عندهما بســحر، فيصــبح مع قريش بمكة كبائت بها، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطيعه من الغنم، فإذا خرج من عندهما عبدالله تبع عامر أثره بالغنم؛ كي لا يظهر لقدميه أثر، أما المشـــركون فقد انطلقوا- بعد أن علموا بخروجه ﷺ- ينتشرون في طريق المدينة يفتشون عنه في كل المظان؛ حتى وصلوا إلى غار ثور، وسمع الرسـول ﷺ وصـاحبه أقدام المشـركين تخفق من حولهم، فأخذه الروع (عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّـــدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَىَ أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىَ رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَو أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَىَ قَدَمَيْهِ أَبْصَـــرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا)[3]؛ فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار، ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتســـاءل عما يكون بداخله، ولما انقطع الطلب عنهما خرج رسـول الله ﷺ وأبو بكر، بعد أن جاءهما عبدالله بن أرقط وهو من المشـركين، كانا قد استأجراه؛ ليدلهما على الطرق الخفية إلى المدينة بعد أن اطمأنا إليه، وواعداه مع الراحلتين عند الغار، فسارا متبعين طريق الساحل بإرشـاد من ابن أرقط، وكان قد جعل مشـــركو مكة لكل من أتى به ﷺ وبأبي بكر ﷺ ديّة كل منهما؛ قَالَ سُـرَاقَةُ:(جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ، أَقْبَلَ

1 . رواه الإمام أحمد حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

2 . من المعجزات الخارقة خروجه ﷺ من بيته سالماً، وقد أحاط به المشركون يتربصون به، وكان من تتمة السخرية بتآمرهم ما امتلأت به رؤوسهم من التراب؛ الذي ألقاه ﷺعلى رؤوسهم، وهو يتلو: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}- يس 9- لقد كانت إعلاناً بأن ما قد يلاقيه الرسول ﷺ وصحبه من ألوان الاضطهاد لا يعني أن الله قد تخلى عنهم.

3 . متفق عليه: البخاري كتاب التفسير، ومسلم كتاب فضائل الصحابة.

رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ؛ قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وَفُلانًا؛ انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ، فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ، فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ، فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ[1] الأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ[2]، حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلامَ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لا؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وَعَصَيْتُ الأَزْلامَ تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالْتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ[3] سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ؛ فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ) [4]، فوقف رسول الله ﷺ ومن معه حتى وصل إليهم، فاعتذر إليه، وسأله أن يستغفر له، ثم عرض عليهما الزاد والمتاع، فقالا: لا حاجة لنا، ولكن عمّ عنا الخبر، فقال: كفيتم، ثم عاد سراقة أدراجه إلى مكة، وهو يصرف أنظار الناس عنه ﷺ ومن معه بما يراه من القول؛ وهكذا انطلق في الصباح جاهداً في قتلهما، وعاد في المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما.

---

1 . الزُّجّ: الْحَدِيدَة الَّتِي فِي أَسْفَل الرُّمْح

2 . أَيْ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ وَجَرّ زُجَّهُ عَلَى الأَرْض فَخَطّهَا بِهِ لِئَلا يَظْهَر بَرِيقه لِمَنْ بَعُدَ مِنْهُ ؛ لأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَتَّبِعهُ مِنْهُمْ أَحَد.

3 . الدخان من غير نار.

4 . البخاري: كتاب المناقب، باب هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وقصة فرس سراقة المتفق على صحتها معجزة تضاف إلى معجزاته الأخرى.

قدوم قباء

وصل الرسول ﷺ قباء، فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم ابن هدم، حيث أدركه فيها علي رضي الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع إلى أصحابها[1]، وأسس النبي ﷺ هناك مسجد قباء؛ وهو المسجد الذي وصفه الله بقوله: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}[2]، ثم واصل سيره إلى المدينة، فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[3]، فالتف حوله الأنصار؛ كل يمسك زمام راحلته؛ يرجوه النزول عنده فكان ﷺ يقول لهم: دعوها فإنها مأمورة، فلم تزل راحلته تسير في فجاج المدينة وسككها[4]، حتى وصلت إلى مربد لغلامين يتيمين من بني النجار؛ أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فقال النبي ﷺ:(ها هنا المنزل إن شاء الله)؛ وجاء أبو أيوب فاحتمل الرحل إلى بيته، وخرجت ولائد[5] من بني النجار فرحات؛ فعن أنس رضي الله عنه (أن النَّبِيّ ﷺ مر ببعض المدينة، فإذا هو بجوار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حَبَّذا مُحَمَّد من جار

فقال النَّبِيّ ﷺ: (اللهُ يعلمُ إني لأحبكن)[6]، وفي ابن هشام فقال ﷺ لهنّ : (أتحببنني؟) فقلن: نعم فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكنّ)[7].

---

1 . تأخرُ علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ لأداء الودائع إلى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذي كان المشركون واقعين فيه؛ فهم يكذبونه ويرونه مخادعاً ولم يجدوا حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكفرانهم لم يكن بسبب الشك، وإنما بسبب تكبرهم وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم.

2 . التوبة 108.

3 . ذكره المسعودي.

4 . صورة استقبال المدينة للرسول ﷺ تعبر عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها أفئدة أهل المدينة جميعاً؛ لقد كانوا يخرجون ينتظرون تحت لفح الشمس، حتى إذا أدبر النهار عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الانتظار صباح اليوم التالي، فلما طلع الرسول ﷺ عليهم جاشت العواطف، وانطلقت ألسنتهم تهتف بالأهازيج فرحاً، ولقد بادلهم رسول الله ﷺ نفس المحبة، وقال: والله إن قلبي ليحبكنّ؛ والمحبة العاطفية وازع يحمل على الإتباع؛ الإقتداء لا يأتي إلا بوازع ودافع المحبة، ومحبة رسول الله ﷺ من جنس محبة الولد والوالد؛ أي مصدر كل منهما العاطفة والقلب.

5 . جمع وليدة بمعنى الجارية.

6 . ابن ماجة : كتاب النكاح، باب الغناء والدف.

7 . ابن هشام.

صورة عن مقام النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه[1]

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّفْلِ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعُلْوِ، قَالَ: فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً، فَقَالَ: نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنَحَّوْا، فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: السُّفْلُ أَرْفَقُ، فَقَالَ: لاَ أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعُلْوِ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ، فَكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَاماً، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَاماً فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ، سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ، أَوْ مَا كَرِهْتَ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى)[2].

وقال أبو أيوب رضي الله عنه: لقد انكسرت جرّة لنا فيها ماء يوماً، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

---

1 . مقامه ﷺ عند أبي أيوب يكشف لنا مظهراً من مظاهر محبة أصحاب رسول الله ﷺ له، ويهمنا من ذلك تبركه وزوجته بآثار أصابعه ﷺ في قصعة الطعام؛ فالتبرك بآثار النبي ﷺ والاستشفاء بها عمل مشروع؛ وقد أقره ﷺ؛ وتبرك الصحابة بآثاره ﷺ ؛ ومن ذلك:

أولاً: عن إسرائيل عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: (أَرْسَلَنِي أَهْلِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ، وَقَبَضَ إِسْرَائِيلُ- راوي الحديث- ثَلاثَ أَصَابِعَ مِنْ قُصَّةٍ فِيهِ شَعَرٌ مِنْ شَعَرِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ إِذَا أَصَابَ الإِنْسَانَ عَيْنٌ أَوْ شَيْءٌ بَعَثَ إِلَيْهَا مِخْضَبَهُ فَاطَّلَعْتُ فِي الْجُلْجُلِ - يشبه الجرس الذي يعلق في رقبة الشاة - فَرَأَيْتُ شَعَرَاتٍ حُمْراً) رواه البخاري كتاب اللباس، باب ما يذكر في الشيب.

ثانياً: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ:كَانَ النَّبِيَّ ﷺ يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَيَنَامُ عَلَى فِرَاشِهَا وَلَيْسَتْ فِيهِ، قَالَ: فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَامَ عَلَى فِرَاشِهَا، فَأُتِيتْ فَقِيلَ لَهَا: هَذَا النَّبِيُّ ﷺ نَامَ فِي بَيْتِكِ، عَلَى فِرَاشِكِ، قَالَ: فَجَاءتْ وَقَدْ عَرِقَ، وَاسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَى قِطْعَةِ أَدِيمٍ، عَلَى الْفِرَاشِ، فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذَلِكَ الْعَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا، فَفَزِعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَا تصْنَعِينَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا، قَالَ: أَصَبْتِ) رواه مسلم كتاب الفضائل، باب طيب عرقه ﷺ.

ثالثاً: من ذلك ما جاء في الصحيحين من استباق الصحابة إلى فضل وضوئه ﷺ والتبرك بالكثير من آثاره، كالقدح الذي كان يشرب به، فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله عز وجل؟! وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين؟! ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك؛ فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد؛ وهو التماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به، وكل من التوسل بجاهه ﷺ عند الله والتوسل بآثاره أو ثيابه أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذي ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى بتنقيح المناط عند علماء الأصول.

2 . مسلم: كتاب الأشربة باب إباحة أكل الثوم، وأنه ينبغي لمن أراد خطاب الكبار تركه، و(يؤتى) معناه تأتيه الوحي.

أسس المجتمع الجديد

الأساس الأول: بناء المسجد

هجرة الرسولﷺ إلى المدينة تعني نشأة أول دار دولة في الإسلام، أقام ﷺ الأسس الهامة لهذه الدولة؛ وأولها بناء المسجد[1]؛ فقد بركت الناقة في موضع لغلامين يتيمين من الأنصار؛ وكان أسعد بن زرارة قد اتخذه مصلى قبل الهجرة؛ فكان يصلي بأصحابه فيه، فأمرﷺ أن يُبنى ذلك الموضع مسجد، ودعا الغلامين -وكانا في كفالة أسعد بن زرارة رضي الله عنه- فسام ﷺ فيه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ؛ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير[2]، وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين؛ فأمرﷺ بالقبور فنبشت[3]، وبالنخل وبالشجر فقطعت، وصفّت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، ثم بنوه باللبِن، وكان ﷺ يباشر البناء مع أصحابه، وينقل معهم الحجارة بنفسه، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل عمده الجذوع وسقفه بالجريد؛ وقيل له: ألا نسقفه؟ فقال: (عريش كعريش موسى؛ خشيبات وثُمَام[4] الشأن أعجل من ذلك)، أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء[5]، وفي الحديث عن أنس أنه ﷺ (كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ

---

1 . **مدى أهمية المسجد في المجتمع الإسلامي:** إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي؛ الذي يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد؛ فإن آداب الإسلام وآصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين وتساقط فوارق الجاه والمال لا تتم إلا فيه؛ يتلاقى المسلمون فيه كل يوم صفاً واحداً بين يدي الله عز وجل، على صعيد مشترك من العبودية، ومهما انصرف كل مسلم إلى بيته يعبد الله دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع في العبادة فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب على معاني التعالي والأنانية، وفي المساجد يجتمع المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته؛ ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم.

2 . **حكم التعامل مع من لم يبلغوا سن الرشد من الأطفال والأيتام:** استدل الحنفية بهذا الحديث على صحة تصرف غير البالغ؛ ووجه الدلالة على ذلك أن النبي ﷺ اشترى المربد من الغلامين اليتيمين، ولو لم يصح تصرفهما لما اشترى منهما؛ غير أن جمهور الفقهاء يرون عدم صحة تصرف غير البالغ، ويستدلون بقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}- الأنعام 152- وأجابوا على دليل الحنفية بأمرين:

الأول: أن النبي ﷺ كلّم عمهما الذي كانا في حجره وكفالته، وابتاعه منهما بواسطته.

الثاني: للنبي ﷺ ولاية خاصة، فاشتراه بوصف كونه ولياً عاماً للمسلمين، لا بوصف كونه فرداً.

3 . **جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت وطابت أرضها:** قال النووي: (فيه جواز نبش القبور الدارسة، وأنه إذا أزيل ترابها المختلط بصديدهم ودمائهم جازت الصلاة في تلك الأرض، وجواز اتخاذ موضعها مسجداً إذا طيبت أرضه، وأن الأرض التي دفن فيها الموتى ودرست يجوز بيعها، وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده إذا لم توقف، وقد قال علماء السيرة عن تلك القبور التي كانت في المربد: إنها كانت قبوراً قديمة، فلا يتأتى فيها الصديد والدم، ومع ذلك فقد نبشت وأزيل ما فيها من بقايا)، ذلك إذا لم تكن الأرض وقفاً، أما إذا كانت كذلك فلا يجوز تحويلها إلى شيء آخر.

4 . نبت قصير يشد به سقف البيت.

5 . **حكم تشييد المساجد ونقشها وزخرفتها:** التشييد أن تقام عمارة المسجد بالحجارة وشبهها، مما يزيد في قوة بنائه ومتانة سقفه وأركانه، والنقش والزخرفة ما جاوز أصل البناء من شتى أنواع الزينة؛ فأما التشييد فقد أجازه عامة العلماء، بدليل ما فعله عمر وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده ﷺ، وهو وإن كان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ إلا أنه لم يدل على المفهوم المخالف، أي المنع من التشييد والتقوية؛ إذ لا يتعلق بهما وصف يخل بالحكمة التي من أجلها شرع بناء المساجد، بل إن في ذلك زيادة في العناية بشعائر الله تعالى؛ واستدلوا بقوله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ}-التوبة 18- وأما الزخرفة فقد كرهها العلماء، لأنه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيء

وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَقَالَ: يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا، قَالُوا: لا وَاللَّهِ لا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلا إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَفِيهِ خَرِبٌ، وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ[1] الْحِجَارَةَ وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُ الآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ)[2]، وقد ظل مسجد رسول الله ﷺ على هذا الشكل دون أي زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثم زاد فيه عمر رضي الله عنه بعض التحسين، ولكنه بناه على بنائه في عهد الرسول ﷺ باللبِن والجريد، وأعاد عمده خشباً، ثم غيّره عثمان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة (الجص).

الأساس الثاني: الأخوة بين المسلمين

آخى ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات، بحيث يكون أثر الأخوة أقوى من أثر قرابة الرحم؛ فجعل جعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعل أبا بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين.. وهكذا، وقامت هذه الأخوة على أسس مادية أيضاً، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه المظاهر المادية، وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة إلى موقعة بدر الكبرى؛ حيث نزل قوله تعالى: {وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[3]، فانقطع أثر المؤاخاة في الميراث؛ (عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ}[4]، قَالَ: وَرَثَةً، {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ}[5] كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الأَنْصَارِيَّ، دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ؛ لِلأُخُوَّةِ الَّتِي

من الزخرفة، أما إذا كان المال المصروف على ذلك من الباني نفسه ففيه خلاف، وقد ذكر البغوي أنه (لا يجوز نقش المسجد من غلة الوقف، ويغرّم القيم إن فعله، فلو فعله رجل بماله كره لأنه يشغل قلب المصلين)؛ والفرق بين التشييد والزخرفة واضح؛ فالأول لا يخل بحكمة بناء المسجد، أما الزخرفة فيترتب عليها معنى يخل بالحكمة؛ إذ من شأنه صرف قلوب المصلين عن الخشوع والتدبر، والقصد من دخول المسجد الهرب من التصورات الدنيوية وتفريغ البال من زينتها، وهذا ما نبه إليه عمر رضي الله عنه حينما أمر ببناء مسجد فقال: (أَكِنَّ النَّاسَ مِنْ الْمَطَرِ وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ) - رواه البخاري كتاب الصلاة باب بُنْيَانِ الْمَسْجِدِ- وقد اختلف العلماء في كتابة آية من القرآن في قبلة المسجد؛ هل هي داخلة في النقش الممنوع أم لا ؟.

1 . جانبيه.

2 . البخاري: كتاب الصلاة، باب هَلْ تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيُتَّخَذُ مَكَانُهَا مَسَاجِدَ.

3 . الأنفال 75.

4 . النساء 33.

5 . النساء 33.

آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ[1]، فَلَمَّا نَزَلَتْ {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ} مِنْ النَّصْرِ وَالرِّفَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ)[2].

---

1 . تظهر أهمية الأخوة في الجوانب الآتية:
أولاً: تنهض الدولة على أساس وحدة الأمة، ويتم ذلك التآخي، ولا بد أن يكون مسبوقاً بعقيدة؛ ومن أجل ذلك جعل ﷺ العقيدة أساس الأخوة؛ فوضع الناس كلهم في مصاف العبودية لله؛ دون الاعتبار إلا فارق التقوى والعمل الصالح، ولا يسود الإخاء بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة.
ثانياً: المجتمع القائم على مبدأ التناصر والتعاون طبق نظام العدل والمساواة هو المجتمع العادل السليم، وإن كان الظلم فذلك هو المجتمع المنحرف، والتآخي هو الذي يضمن سلامة العدالة في المجتمع السليم، يليها بعد ذلك ضمانة السلطة والقانون، وإلا كانت هذه المبادئ لا تعدو أن تكون مصدر ضغائن من شانها أن تحمل في طيها بذور الطغيان؛ من أجل هذا اتخذ الرسول ﷺ من حقيقة التآخي أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية؛ وقام على تطبيقها أروع نظام اجتماعي في العالم، ولولا هذه الأخوة لما كان لتلك المبادئ أي أثر إيجابي؛ في شد أزر المجتمع الإسلامي، ودعم كيانه.
ثالثاً: المعنى التفسيري الذي صاحب شعار التآخي؛ فلم يكن مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة، بين المهاجرين والأنصار؛ وحسبنا دليلاً على ذلك ما قام به سعد بن الربيع إذ عرض على أخيه عبد الرحمن بن عوف أن يشركه في بيته وأهله وماله في قسمة متساوية، ولكن عبد الرحمن شكره، وطلب منه أن يرشده إلى سوق المدينة ليشتغل فيها، ولذلك أيضاً جعل الله تعالى حق الميراث منوطاً بهذا التآخي، كي تتجلى الأخوة الإسلامية في الفترة الأولى حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم، وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة، ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار، أما حكمة نسخ هذا التوارث فيما بعد فهي أن نظام الميراث الذي استقر أخيراً قائم على أخوة الإسلام؛ فلا توارث بين دينين مختلفين، وقد استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكّن الإسلام فيها، وغدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد، وأصبح من المناسب انتزاع العلاقة بين المهاجرين والأنصار؛ إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك؛ ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثراً زائداً على قرابة الإسلام وأخوته، ثم إن هذا التآخي كان مسبوقاً بمؤاخاة أخرى أقامها ﷺ بين المهاجرين في مكة؛ قال ابن عبد البر: (كانت المؤاخاة مرتين؛ مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار) - فتح الباري 191/7- فمناط الأخوة وأساسها إنما هو رابطة الإسلام، غير أنها احتاجت إلى تجديد وبعد الهجرة بسبب ظروفها، وبسبب اجتماع المهاجرين والأنصار في دار واحدة؛ فهي الأخوة القائمة على أساس وحدة العقيدة.

2 . البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ.

الأساس الثالث: كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم

هذا الأساس هو أهم ما قام به ﷺ مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة، روى ابن هشام أن النبي ﷺ بعد مدة قليلة في المدينة اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها؛ فكتب رسول الله ﷺ كتاباً[1] وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم[2]، وشرط لهم واشترط عليهم[3]؛ وهذه هي البنود مرتبة حسب ترتيبها في نص الكتاب نفسه:

1. المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس[4].
2. المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم[5] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
3. إن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[6] بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل[7].
4. إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[8] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.
5. لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن.
6. ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس[9].

---

1 . ذكره ابن إسحاق بدون إسناد، وذكره ابن خيثمة فأسنده، وذكره الإمام أحمد في مسنده فرواه عن سريج،انظر عيون الأثر لابن سيد الناس 198/1، ومسند أحمد 10/21 شرح البنا.

2 . الوثيقة يناسبها في العصر الحديث مصطلح الدستور؛ لشمولها جميع ما يمكن أن يعالجه دستور؛ يُعنى بوضع الخطوط الكلية لنظام الدولة في الداخل والخارج، وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺ بالوحي، ثم جعله الأساس فيما بين المسلمين واليهود؛ فالدولة الإسلامية منذ بزوغ فجرها نشأت على أسس دستورية تامة؛ وهذا التنظيم الدستوري ضروري؛ لأنه يقوم على فكرة وحدة الأمة، وتطبيق أحكام الشريعة في المجتمع الإسلامي؛ ومن هنا تسقط دعاوى الذين يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه، وليس له من مقومات الدولة شيء؛ فالإسلام دين ودولة، وعبادات وتشريع وقوانين؛ وهكذا ولد المجتمع الإسلامي ضمن هيكل متكامل للدولة، وتنظيم اجتماعي متناسق من جميع جهاته وأطرافه، وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك.

3 . تدل الوثيقة على عدالة معاملة النبي ﷺ لليهود، ولقد كان بالإمكان أن تؤتى ثمارها لو لم يتغلب على اليهود المكر والخديعة؛ فضاقوا ذرعاً ببنود هذه الوثيقة فغدروا، فكان المسلمون في حل منها.

4 . الإسلام هو وحده الذي يؤلف بين المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة؛ تذوب من خلالها جميع الفوارق، وهو أول أساس لا بد منه لإقامة مجتمع إسلامي متماسك سليم .

5 . العاني: الأسير.

6 . المفرح: المثقل بالديون الكثير العيال.

7 . هذا البند يدل على التكافل والتضامن، وهي من أهم سمات المجتمع، فهم مسؤولون عن بعضهم في دنياهم وآخرتهم.

8 . الدسيعة: العظيمة، وأصلها ما يخرج من حلق البعير إذا رغا.

9 . يدل على المساواة بين المسلمين، وليست شعاراً براقاً، بل لأنها ركن مهم للمجتمع الإسلامي، فيجير عليهم أدناهم، وذمته محترمة؛ لا ينبغي أن يجار عليه فيه، والمرأة المسلمة في هذا كالرجل بالإجماع؛ عن أم هانئ قالت: (ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ) - البخاري كتاب الصلاة، ومسلم كتاب صلاة المسافرين- وتلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة؛ يتوخى منها سعادة الناس كلهم .

7. لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، أو أن يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة؛ لا يؤخذ منه صرف ولا عدل[1].
8. اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.
9. يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم؛ وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[2] إلا نفسه وأهل بيته.
10. إن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
11. كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله[3].
12. من خرج من المدينة أمن، ومن قعد أمن، إلا من ظلم وأثم.
13. إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن بر واتقى.

---

1 . صرف ولا عدل: فريضة ولا نافلة

2 . يوتغ: يهلك.

3 . على أن الحكم العدل الذي ينبغي للمسلمين أن يهرعوا في سائر شؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه، وهو ما تضمنه الكتاب والسنة، وإذا بحثوا عن حلول في غير هذا المصدر فهم آثمون، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة .

مرحلة الحرب الدفاعية

الغزوات التالية غزوات دفاعية فعلاً؛ فكل منها ردّ على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون؛ وهي تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية في عصره ﷺ، وليست تعبيراً عن الحكم الذي استقر على أساسه الجهاد في الإسلام، وسنجد صورة المرحلة الأخيرة في الأحداث التي تلت صلح الحديبية؛ ولقد أشار الرسول ﷺ إلى تلك المرحلة بعد غزوة بني قريظة؛ حينما قال: (الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا)[1] وإليك الآن أحداث المرحلة الدفاعية:

بدء القتال: أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ

كانت مشروعية القتال بعد الهجرة، ووضعت مشروعيته موضع التنفيذ في شهر صفر على رأس اثني عشر شهراً من هجرته ﷺ؛ فقد خرج ﷺ إذ ذاك لأول مرة بقصد الغزو، وكانت الغزوة إذ ذاك غزوة وَدّان، يريد قريشاً وبني حمزة، ولكنه ﷺ كُفي القتال؛ فقد وادعه بنو حمزة، وعاد ﷺ وصحبه إلى المدينة بدون قتال.

غزوة بدر الكبرى

سببها أن النبي ﷺ سمع بعِيرٍ[2] تجاريةٍ لقريشٍ قادمة من الشام[3]، بإشراف أبي سفيان، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة؛ فخف بعضهم لذلك، وتثاقل آخرون؛ إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً في ذلك، وتحسس أبو سفيان الأمر وهو في طريقه إلى مكة، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ العِير، فأرسل ضَمْضَم بن عمرو الغفاري إلى مكة؛ ليخبر قريشاً بالخبر، ويستفزهم للخروج محافظة على أموالهم؛ فبلغ الخبر قريشاً، فتجهزوا سراعاً، وخرج كل منهم قاصدين الغزو، حتى إنهم لم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانوا قريباً من ألف مقاتل، وخرج ﷺ في ليال مضت من شهر

---

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَهِيَ الأَحْزَابُ.

2 . العير: الدَّوابُّ الَّتي تحمل الطَّعام وغيره من الأمتعة.

3 . الدافع الأصلي لخروج المسلمين الاستيلاء على عير قريش، وليس القتال؛ غير أن الله أراد لعباده غنيمة أكبر، ونصراً أعظم، وأكثر انسجاماً مع الغاية التي ينبغي أن يستهدفها المسلم في حياته، فأبعد عنهم العير، وأبدلهم بها نفيراً لم يكونوا يتوقعونه، وفيه دليل على أمرين:

الأول: أن عامة ممتلكات الحربيين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة؛ فلهم أن يستولوا عليها، ويأخذوا ما امتدت إليه أيديهم منها، وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء، وللمهاجرين عذر آخر؛ وهو محاولة التعويض عن ممتلكاتهم التي ستولى عليها المشركون.

الثاني: أراد الله لعباده المؤمنين قصداً أرفع من التعويض المالي، وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها؛ وهي الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ومن هنا كان النصر العظيم حليف أبي سفيانٍ في النجاة بتجارته، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريشٍ في ميدان الجهاد؛ قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} الأنفال7-8.

رمضان مع أصحابه، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً[1]، وكانت إبلهم سبعين؛ يتعاقب على الواحدة منها اثنان أو ثلاثة، وهم لا يعلمون من أمر قريش وخروجهم شيئاً، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز- يحفظ- عِيرَه؛ إذ سلك طريق الساحل، وجعل ماء بدر عن يساره، وأخذ يسرع حتى أنجى عيره وتجارته من الخطر، ثم إن النبي ﷺ أتاه خبر مسير قريش إلى المسلمين، فاستشار من معه من أصحابه[2]، فتكلم المهاجرون فقالوا كلاماً حسناً، وكان منهم المقداد بن عمرو؛ فقد قال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن مع، ولكن النبي ﷺ ظل ينظر إلى القوم؛ ويقول لهم: أشيروا عليّ أيها الناس، فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك[3]، فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد؛ ثم قال: سيروا وأبشروا[4]؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم، ثم إن النبي ﷺ أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم؛ عن طريق العيون التي بثها[5]، حتى علم المسلمون أنهم

---

1 . رواه ابن إسحاق.

2 . مشاورة النبي ﷺ لأصحابه بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير فيه دلالتان:

الأولى: التزام النبي ﷺ مبدأ التشاور؛ وذلك في كل أمر له علاقة السياسة الشرعية، وقد أجمع المسلمون على أن الشورى تكون فيما لا نص فيه من الكتاب أو السنة.

الثانية: خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم للسياسة الشرعية؛ ولما هو معروف بحكم الإمام؛ وبيان ذلك أن الجهاد فرض لا يخضع لأي نسخ أو تبديل؛ وكذا الصلح والمعاهدات، غير أن جزئيات الصور التطبيقية تخضع لظروف الزمان والمكان، وحالة المسلمين، وحالة أعدائهم، والميزان في ذلك إنما هو بصيرة الإمام العادل، إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين؛ فللحاكم أن يجنح إلى السلم إذا رأى وتثبّت من صلاحية رأيه بالتشاور أنه من الخير للمسلمين أن لا يجابهوا أعداءهم بالحرب، ريثما تأتي الظروف المناسبة والملائمة للقتال والجهاد، وله أن يحمل رعيته على القتال إذا ما رأى المصلحة في ذلك الجانب، أما إذا داهم العدو المسلمين في عقر بلادهم، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الظروف والوسيلة، ويعم الواجب في ذلك المسلمين بشرط توافر مقومات التكليف، واتفق عامة الفقهاء على أن هذه الشورى مشروعة ولكنها ليست بملزمة؛ فللحاكم أن يستنير، ولكن ليس عليه أن يأخذ بآراء الأكثرية لو خالفوه في رأيه؛ يقول القرطبي:(المستشير ينظر في اختلاف الآراء، وينظر أقربها إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منها عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه).

3 . في مسلم كتاب الجهاد باب غزوة بدر: (فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىَ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا)، وبرك الغماد موضع بالحبشة.

4 . لم يقع جواب أبو بكر وعمر والمقداد موقعاً كافياً من نفسه ﷺ، وظل ينظر في وجوه القوم، حتى إذا تكلم سعد بن معاذ اطمأن وطابت نفسه؛ إنما أراد النبي ﷺ أن يعرف رأي الأنصار بالذات في ذلك الأمر، وقد بايعهم بيعة خاصة تستوجب القتال معه والدفاع عنه داخل المدينة، فهل سيصدرون عن مشاعرهم الإسلامية ومعاهدتهم الكبرى مع الله تعالى بالقتال خارجها؟ وكان جواب سعد دليلاً على أن مبايعة الأنصار كانت مبايعة مع الله تعالى، ودفاعاً عن دينه؛ فليست القضية مسالة نصوص معينة، وإنما وقعوا تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} التوبة 111.

5 . يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون؛ يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم، وليتبيّنوا ما هم عليه من قوة في العُدة والعدد، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الإطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن، من حيث أنه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم، وقد روي أن النبي ﷺ لما نزل قريباً من بدر ركب حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله النبي ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين،

بين تسعمائة وألف، وأن فيهم عامة زعماء المشركين، وقد كان أبو سفيان أرسل إليهم أن يرجعوا إلى مكة، إذ أنه قد أحرز العير، ولكن أبا جهل أصر على المضي، وكان مما قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر؛ فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا جميعاً، فلا يزالون يهابوننا، ثم إنهم مضوا حتى نزلوا بالعُدوة[1] القصوى من الوادي، ونزل الرسول ﷺ عند أدنى ماء من مياه بدر؛ فقال الْحُبَاب بن المنذِر: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، فقال: فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فنهض ﷺ وتحول إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب رضي الله عنه[2]، واقترح سعد بن معاذ أن يبني عريشاً للرسول ﷺ يكون بمأمن فيه؛ رجاء أن يعود سالماً إلى من تخلف من المسلمين في المدينة، وأن لا ينكبوا بفقده، فوافق ﷺ على ذلك، ثم أخذ يطمئن أصحابه بتأييد الله ونصره، حتى أنه كان يقول: (هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ، هَهُنَا وَهَهُنَا، فَمَا مَاطَ[3] أَحَدُهُمْ، عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[4].

وراح ﷺ يجأر إلى الله تعالى بالدعاء[5] مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، ويقول: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم احنِهم الغداة، وظل يناشد الله متضرعا وخاشعاً[6]، وهو

وبما قد سمعه من أمر النبي ﷺ وأصحابه، حتى إذا فرغ من كلامه قال: فممن أنتما؟ فقال النبي ﷺ: نحن من ماء، فأخذ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

1 . العُدوة: جانب الوادي.

2 . يدلنا حديث الحُباب في شأن المكان الذي نزل فيه أن تصرفات النبي ﷺ ليست كلها من نوع التشريع، بل هو أحياناً يتصرف من حيث أنه بشر من الناس؛ يفكر ويدبر كما يفكر غيره، وليس من قبيل الوحي، فمن ذلك نزوله ﷺ في المكان الذي اختاره في هذه الغزوة، ومن ذلك كثير من تصرفاته التي تدخل تحت السياسة الشرعية من حيث أنه إمام ورئيس دولة لا من حيث أنه نبي.

3 . ماط: تزحزح.

4 . مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة بدر.

5 . **أهمية التضرع إلى الله تعالى وشدة الاستعانة به:** فقد كان النبي ﷺ يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، وكان يشير إلى مصارع الكفار، ومع ذلك فقد رأيناه يجأر إلى الله متضرعاً، طالباً نصره الذي وعد، حتى سقط عنه رداؤه، تجسيداً لوظيفة العبودية؛ التي خلق من أجلها الإنسان، أما اطمئنان النبي ﷺ وإيمانه بالنصر فإنما كان تصديقاً منه للوعد الذي وعده الله به، والله لا يخلف الميعاد، ثم إن المصائب التي تهدد الإنسان أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله تعالى؛ كي يفر إليه، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وذلك هو ثمن النصر؛ قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}- الأنفال 9-10- والمتأمل يقارن هذا المظهر مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر؛ الذي تجلى في موقف أبى جهل؛ ونتائج ذلك التجبر والجبروت؛ فيجد نتيجة العبودية مجداً شامخاً، ويجد نتيجة الطغيان والجبروت قبراً من الضيعة.

6 . في صـــحيح مســـلم كتاب الجهاد باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادّاً يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّىَ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ.

يبسط كفيه إلى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر ﷺ فالتزمه من ورائه وقال له: يا رسول الله! أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزنّ الله لك ما وعدك، وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويستغيثونه، ويخلصون له في الضراعة، وفي صبيحة يوم الجمعة لسنتين خلتا من الهجرة بدأ القتال بين المشركين والمسلمين، وأخذ النبي ﷺ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً وقال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها فلم يبق رجل إلا امتلأت عيناه منها، وأيّد الله المسلمين بالملائكة[1]؛ يقاتلون إلى جانبهم وانحسر القتال عن نصر كبير للمسلمين، وقتل في تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين، وأسر سبعون، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وألقيت جثث المشركين الذين صرعوا في هذه الغزوة -وفيهم عامة صناديدهم- في قليب بدر، وقَامَ ﷺ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ[2] فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ وَيَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لا أَرْوَاحَ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ[3] قَالَ: قَتَادَةُ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا)[4]، واستشار النبي ﷺ في الأسرى[5]؛ ففي الحديث: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ

---

1 . **الإمداد بالملائكة:** انطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين؛ فقد أمدّ الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم؛ روى ابن هشام أن النبي ﷺ خفق خفقة في العريش ثم انتبه فقال:(أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع)، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: (هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ) -البخاري كتاب المغازي، باب شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا- ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة ليس المقصود به ما يتوهمه البعض من المدد الروحي أو القوة المعنوية، لأن البيان الإلهي ضبط الملائكة بعدد محدود وهو الألف؛ إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل في الأشياء، ولا يكون ذلك إلا في الأشياء المادية المحسوسة، ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم، واستجابة لدعائهم، وإلا فإن النصر من عند الله وحده، وليس للملائكة أي تأثير ذاتي في ذلك؛ قال تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال 10.

2 . شَفَةِ الرَّكِيِّ: طرف البئر.

3 . **الحياة البرزخية للأموات:** وقوف الرسول ﷺ على القليب ينادي قتلى المشركين ويناديهم دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به، وأن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم، ومن هنا يتصور معنى عذاب القبر ونعيمه، غير أن ذلك كله إنما يخضع لموازين لا تنضبط بعقولنا الدنيوية؛ فطريق الإيمان به إنما هو التسليم؛ إذا وصلنا بطريق صحيح.

4 . البخاري: كتاب المغازي، باب قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ.

5 . **دلالات مسألة الأسرى:** إن هذه المسالة لها دلالات مختلفة هامة:

أولاً: الرسول ﷺ يجتهد، كما قال جمهور علماء الأصول، واستدلوا على ذلك بهذه المسألة، وإذا صح الاجتهاد صح الخطأ والصواب، غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد أن ينزل قرآن يصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية دل على أن اجتهاده وقع على الحق في علم الله تعالى.

ثانياً: غزوة بدر هي أول تجربة للمسلمين في التضحية والقتال في سبيل الله تعالى، وأول تجربة لهم في رؤية الغنائم، وهم على ما كانوا عليه من الفقر والحاجة، وقد عالجت الحكمة الإلهية التجربة الأولى بأن ثبّت قلوبهم وطمأن نفوسهم بالخوارق الدالة على النصر، وعالجت الثانية بوسائل تربوية دقيقة؛ وجاءت في وقتها المناسب، وتجلى أثر هذه التجربة في مشهدين:

الأول: تركَ المشركون أموالهم، وتسابق بعض المسلمين إليها، واختلفوا في كيفية استحقاقهم لها، ولم يكن قد نزل حكم توزيعها، فراحوا يسألون النبي ﷺ، فنزل: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} -الأنفال 1-2- والآيتان لا تنطويان على جواب عن سؤالهم، بل فيهما صرف لهم عن الموضوع كله؛ لأن الأنفال لله وللرسولﷺ، أما هم فعليهم إصلاح هذا الشقاق الذي وقع بينهم، وإطاعة الله في أوامره واجتناب نواهيه؛

وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَىَ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَىَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَىَ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَرَىَ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: لاَ، واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَىَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَىَ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ -نَسِيباً لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ- شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ- وَأَنْزَلَ اللَّهُ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[1])[2].

فلما ثاب هؤلاء المسلمون إلى هدى الآيتين، وصرفوا النظر عما اشتجروا من أجله نزل كيفية تقسيم الغنائم، وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة.

الثاني: عندما شاور الرسول ﷺ شأن الأسرى سكنت نفوسهم إلى افتدائهم بالمال، والغاية الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى؛ عسى أن يؤمنوا بالله، والتعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة، ليساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم، وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس النبي ﷺ شفقة على أصحابه؛ الذين دعا لهم قائلاً: (اللّهُمّ إِنّهُمْ حُفَاةٌ فاحْمِلْهُمْ، اللّهُمّ إِنّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ، اللّهُمّ إِنّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ)- رواه أبو داوود كتاب الجهاد- ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزاناً للحكم، في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها، مهما كانت الحال والظروف، لئلا تستولي النظرة المادية على مثل هذه الأحكام، التي ينبغي أن تظل متسامية في علياء لا يطولها شيء من أغراض الدنيا، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا أشواطاً واستطاب مذاقها أن يرتد عنها ويفطم نفسه عن مذاقها.

[1] . الأنفال 67-69.

2 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم.

بنو قينقاع وأول خيانة[1] يهودية للمسلمين

قال ابن إسحاق: جمع الرسول ﷺ بني قينقاع في بسوقهم؛ وقال: يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل؛ تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم.

قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟! لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنا نحن الناس[2].

وروى ابن هشام عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجلَب[3] لها، فباعته بسوق قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها فصاحت[4]، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبينه ﷺ، وكان

---

1 . **خيانة اليهود:** هذه الواقعة تدل على مدى ما ركّب في اليهود من الخيانة، فلا تروق لهم الحياة مع جيرانهم إلا بأن يحيكوا لهم غدراً، ويخلقون الأسباب لذلك، وهذه الحادثة تدل على حقد دفين على المسلمين، وأثار حقدهم ما وجدوه من انتصار المسلمين في بدر، وهو أمر لم يكونوا يتوقعونه، ولو أن اليهود احترموا عهودهم لما وجدوا من المسلمين من يسيء إليهم بكلمة، أو يزعجهم في مسكن أو مقام، ولكنهم أبوا إلا شراً، فكان مرد الشر على أنفسهم.

2 . **سبب الحادثة:** قد يكون السبب فعل اليهودي مع المرأة المسلمة، أو الحقد على المسلمين عقب انتصارهم في بدر، وقولهم لرسول الله ﷺ: إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس، ولا تنافي؛ فالأغلب أن السببين واقعان معاً، وكل منهما متمم للآخر؛ إذ من البعيد أن ينبذ ﷺ إليهم عهدهم لمجرد ظهور بوادر الضغينة على وجوههم، بل لابد أنهم قد تصرفوا تصرفاً أساؤوا فيه إلى المسلمين.

3 . ما يجلب إلى السوق ليباع.

4 . **حجاب المرأة المسلمة:** حجاب المرأة سابغ للوجه؛ وإلا لم يكن هنالك حاجة إلى أن تسير في الطريق ساترة وجهها، ولَمَا وجد اليهود ما يدفعهم إلى ما صنعوا، لأنهم إنما أرادوا مغايظة شعورها الديني الذي كان يبدو جلياً في مظهرها؛ وقد يطعن البعض في هذا الحكم؛ لأن الرواية التي تفرد بها ابن هشام فيها بعض اللين، إلا أنه يشهد لها أحاديث كثيرة أخرى ثابتة لا مجال للطعن فيها، ومن ذلك:عن عائشة قَالَتْ: (لَا تَلَثَّمْ -تغطي شفتها بثوب- وَلَا تَتَبَرْقَعْ- تلبس البرقع وهو ما يغطي الوجه- وَلَا تَلْبَسْ ثَوْبًا بِوَرْسٍ وَلَا زَعْفَرَانٍ) -البخاري كتاب الحج- وعن ابن عمر أنه كان يقول: (لا تنتقب، المرأة المحرمة ولا تلبس القُفَّازين) -الموطأ كتاب الحج؛ والقفاز: شيء يتخذه نساء العرب ويحشى بقطن يُغطي كفَّ المرأة وأصابعها- ونهي المرأة عن أن تتبرقع أثناء الإحرام بالحج يدل على أنها كانت تفعله في غير الحج، عن ابنِ بُرَيْدَةَ عن أَبِيهِ- رَفَعَهُ - قالَ: (يَا عَلِيّ لا تُتْبِعِ النّظْرَةَ النّظْرَةَ، فَإِنّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْستْ لَكَ الآخِرَة) -الترمذي كتاب الاستئذان- هذا من حيث ما ورد من الأدلة على وجوب ستر المرأة وجهها وبقية جسمها عن الرجال الأجانب، أما من حيث الأدلة على حرمة نظر الرجل إلى ذلك فمنها عن عَبْدِ اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ يَوْمَ النَّحْرِ خَلْفَهُ عَلَى عَجُزِ رَاحِلَتِهِ، وَكَانَ الْفَضْلُ رَجُلاً وَضِيئًا فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ يُفْتِيهِمْ، وَأَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ وَضِيئَةٌ تَسْتَفْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَأَخْلَفَ بِيَدِهِ فَأَخَذَ بِذَقَنِ الْفَضْلِ، فَعَدَلَ وَجْهَهُ عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا) رواه البخاري في صحيحه كتاب الاستئذان.

لقد اجتمع في هذه الأحاديث نهيان؛ نهى المرأة عن كشف وجهها، ونهى الرجل عن النظر إلى ذلك منها، وفي ذلك دلالة على أن وجه المرأة عورة، إلا في حالات خاصة مستثناة؛ كالتعلم والشهادة ونحو ذلك، ومن الأئمة من ذهب إلى أن الوجه والكفين ليسا بعورة؛ وحملوا الأحاديث على الندب، واتفق الجميع على أنه لا يجوز النظر بشهوة، وعلى أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها إذا عم الفسق؛ كحال الناس اليوم؛ ومن العجب تعلق بعض الناس بأن (الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان)، ولكنهم لا يتذكرون هذه القاعدة عندما يقتضيهم الأمر عكس ذلك، ولست أجد مثالاً تتجلى فيه ضرورة تبديل الأحكام بتبدل الأزمان مثل القول بوجوب ستر المرأة؛ نظراً لمقتضيات الزمن الذي نحن فيه.

ذلك في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة[1]، فحاصرهم ﷺ مدة من الزمن، حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبدالله ابن أبي ابن سلول فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ! فلم يلتفت إليه ﷺ، وكرر ثانية، فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درعه ﷺ، فقال له: أرسلني وغضب ﷺ، حتى رأوا لوجهه ظُللاً[2]، ثم قال له: ويحك أرسلني، قال: لا والله حتى لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع؛ قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر[3]، فقال له ﷺ: هم لك، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم فيها، وكان لعبادة بن الصامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل ما لعبدالله ابن أبي، فمشى إلى الرسولﷺ قائلاً: إنني أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، ففيهما نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}[4].

---

1 . رواه الطبري والواقدي.

2 . ظللا: تلوناً.

3 . **معاملة المنافق في الإسلام:** دفاع ابن سلول عن اليهود تصريح بأمر نفاقه؛ غير أن رسول الله ﷺ عامله على أنه مسلم، ولم يعامله معاملة المشرك، وأجابه إلى ما ألحّ في طلبه، وذلك يدل على أن المنافق المقطوع بنفاقه يعامل على أنه مسلم، وبذلك أجمع العلماء، وسبب ذلك أن الأحكام الإسلامية تتكون من جانبين:

الأول: جانب يطبق في الدنيا ويكلف المسلمون بتطبيقه فيما بينهم، بإشراف الخليفة، ويقوم أمره على الأدلة القضائية المادية والمحسوسة؛ وليس للأدلة الوجدانية أي أثر فيه.

الثاني: وجانب آخر يطبق في الآخرة، ويكون أمره عائد إلى الله تعالى، ويقوم على ما استقر في القلوب، واستكن في الصدور، ومردّ القضاء في ذلك إلى الله تعالى؛ ولبيان هذه القاعدة يقول رسول اللهﷺ: (إِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ) -البخاري كتاب الشهادات- وقالﷺ: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَىَ نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً، فَلاَ يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) -البخاري كتاب الأحكام، ومسلم كتاب الأقضية- والحكمة أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب؛ وتطبيقاً لهذه القاعدة الشرعية كان ﷺ يعاملهم معاملة المسلمين، دون أي تفريق في الأحكام الشرعية العامة، ولا ينافي أن يكون المسلمون في حذر من المنافقين.

4 . المائدة 51-52، ولا يجوز لأي مسلم أن يتخذ من غير المسلم ولياً له؛ أي صاحباً تشيع بينهما مسؤولية الولاية والتعاون، وذلك بالاتفاق؛ للآيات والأحاديث المتواترة تواتراً معنوياً، ولا يستثنى من هذا الحكم إلا بحالة واحدة؛ هي ما إذا ألجئ المسلمون إلى هذه الموالاة بسبب شدة الضعف؛ إذ قال تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}- آل عمران 28- ولا يعني الأمر بالحقد عليهم؛ فهنالك فرق بين أن يغضب الإنسان على أحد لله تعالى وأن يحقد عليه؛ أما الأول فمصدره منكر لا يرضى عنه الله فيستوجب أن يغضب المسلم على فاعله، وأما الثاني فمصدره ذات الشخص، بقطع النظر عن أعماله، وهو ما نهى عنه الإسلام، والغضب لله شفقة على العاصي أو الكافر المستحق لذلك؛ إذ أن المؤمن يحب للناس ما يحبه لنفسه، وليس شيء أحب إلى المؤمن من أن يخلصها من عذاب يوم القيامة؛ فهو إذ يغضب على العصاة إنما يحمله على ذلك الغيرة عليهم، فليس حقداً في حقيقته؛ وإنما هو كغضب الأب على ابنه أو الأخ على أخيه من أجل مصلحته وسعادته حقداً؛ ولا ينافي هذا مشروعية القسوة في معاملة الكافرين؛ فكثيراً ما تكون القسوة هي الوسيلة الوحيدة للإصلاح؛ قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً   فليقسَ أحياناً على من يرحم

غزوة أحد

أجمع بقية من زعماء قريش على الثأر لقتلاهم في بدر؛ وأن يستعينوا بعير أبي سفيان وما فيها من أموال؛ لتجهيز جيش قوى لقتال الرسول ﷺ، فاجتمعت كلمة قريش، وانضم إليهم غيرهم ممن يسمّون بالأحابيش، واستعانوا بعدد كبير من النسوة؛ كي يمنعن الرجال من الفرار؛ إذا أحدق بهم المسلمون، وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل، وسمع رسول الله ﷺ بالخبر، فاستشار أصحابه، وخيّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم، والبقاء في المدينة؛ فإن دخلوا عليهم فيها قاتلوهم؛ فكان رأي بعض الشيوخ من المسلمين عدم الخروج، والبقاء في المدينة[1]، وكان عبدالله بن أبي بن سلول من أصحاب هذا الرأي، غير أن كثيراً من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بدر رغبوا في الخروج، وقالوا: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا؛ لا يرونا أنّا جبنّا عنهم وضعفنا، ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله ﷺ حتى وافقهم على ما أرادوا، فدخل فلبس درعه، وأخذ سلاحه وظن الذين الحّوا على رسول الله ﷺ بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا، على ما كان منهم، ولما خرج عليهم قالوا: استكرهناك يا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك؛ فإن شئت فاقعد، فقال ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته[2] أن يضعها حتى يقاتل)[3]، ثم خرج ﷺ بألف من أصحابه، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرته ﷺ[4]، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد انخذل عبدالله ابن أبي بثلث الجيش- وعامتهم من أصحابه- وكرّ راجعاً بهم وهو يقول: عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأى له، وما ندري علام نقتل أنفسنا؟[5] وتبعهم عبدالله بن حرام ؓيناشدهم الله أن لا يخذلوا نبيهم، فلم يستجيبوا لندائه، وقال زعيمهم: (لو نعلم

كذلك ينبغي أن تعلم أن النهي عن موالاة الكافرين لا يعني التساهل في مبدأ العدالة معهم واحترام المعاهدات؛ فالعدالة ينبغي لها أن تكون مطبقة دائماً؛ وفي ذلك يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} - المائدة 8- فالمسلمون أمة واحدة؛ كما في الوثيقة؛ فإن ولاءهم وتآخيهم ينبغي أن يكو ن ومحصورين فيما بينهم، أما معاملتهم فينبغي أن تكون قائمة مع الناس كلهم على أساس دقيق من العدل ورغبة الخير للجميع، والدعاء للناس جميعاً بالصلاح والرشد .

1 . التزام التشاور في كل أمر يحتمل المشاورة؛ وأنه ﷺ لم يشأ أن يعود عن موافقته لأصحابه الذين اقترحوا الخروج للقاء العدو خارج المدينة، بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال، رغم ندمهم، وعودتهم عن رأيهم، ولعل الحكمة الجليلة أن البحث في أمر القتال بعد أخذ العدة، وظهور النبي ﷺ لابساً دروعه آخذاً سلاحه شيء خارج عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور، خصوصاً في القضايا الحربية التي تحتاج مع المشورة إلى قدر كبير من الحزم والعزم؛ وقد يتولد عن التقاعس حينئذٍ الضعف والاضطراب في الإرادة.

2 . لامته: درعه.

3 . رواه الإمام أحمد في مسند جابر بن عبد الله ؓ.

4 . طبقات ابن سعد 87/3.

5 . للمنافقين هنا مشهد بارز، إذ محّص الله المؤمنين عن المنافقين؛ الذين تذرعوا بأنه ﷺ أخذ برأي الشباب الأغرار؛ ولم يأخذ برأي الشيوخ؛ غير أن السبب في الحقيقة هو أن ابن أُبي لا يريد قتالاً؛ يُعرّض نفسه للمخاوف، وتلك أبرز سمات المنافقين؛ يأخذون المغانم ويبتعدون عن المغارم.

قتـالاً لاتبعنـاكم)، وروى البخـاري عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: (لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ؛ فِرْقَةً تَقُولُ: نُقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةً تَقُولُ: لا نُقَاتِلُهُمْ، فَنَزَلَتْ {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَا كَسَـبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ}[1])[2]، واقترح بعض الصحابة الاستعانة باليهود؛ بناءً على ما بينهم من ميثاق التناصـر، فقال رسـول الله ﷺ:(لا نسـتنصـر بأهل الشـرك على أهل الشـرك)[3]، وعسـكر النبي ﷺ وأصـحابه - وهم لا يزيدون على سـبعمائة مقاتل- في الشِـعب في أحد، فجعل ظهور المسـلمين إلى أحد، واسـتقبلوا المدينة، وجعل على الجبل خلف المسـلمين خمسـين رامياً، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير، وأوعز إليهم قـائلاً:(قوموا على مصـافكم هذه، فـاحموا ظهورنـا؛ فـإن رأيتمونـا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا)[4].

وألحّ كل من رافع بن خديج وسـمرة بن جندب أن يشـتركا مع النبي ﷺ في القتال، وهما ابنا خمس عشرة سنة، فردهما النبي لصـغر أسـنانهما، فقيل له: يا رسـول الله إن رافعاً رام فأجازه، فجاء سـمرة بن جندب يقول: فأنا والله أصـرع رافعاً، فأجازه هو أيضـاً[5]، وأمسـك النبي ﷺ بسـيف، وقال: من يأخذ هذا السـيف بحقه؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، فأخرج أبو دجانة عصـابة حمراء، فعصـب بها رأسـه -وكان ذلك شـأنه عندما يريد أن يقاتل حتى الموت- ثم راح يتبختر بين الصفوف[6]؛ عَنْ أَنَسٍ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا، فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ، قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ،

---

1 . النساء 88.

2 . البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

3 . ابن اسحق 65/2، ولم يستعن النبي ﷺ بغير المسلمين، وقد روي أنه ﷺ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ يوم بدر، يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ)[3]، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في القتال، وفصّل الإمام الشافعي فقال: (إن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين، وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به وإلا فلا)[3]، والمسألة من باب السياسة الشرعية.

4 . طبقات ابن سعد 80/3، تتصف قيادة الرسولﷺ البراعة وتتمثل بتنظيم الصفوف وترتيب أجنحتهم، ووضع الحامية، وأمر الرماة بأن لا يغادروا أماكنهم؛ ولا ريب أن الله جهّزه بعبقرية نادرة، نابعة من نبوته؛ وهناك ظاهرة تلوح من خلال توصياته للمقاتلين عامة، وللرماة خاصة؛ فكأنه ﷺ استشف بفراسة النبوة هذا الذي قد حدث، فراح يؤكد وكأنه في ذلك يجرى مناورة حية مع عدو لهم هو أنفسهم وأهواؤهم، وما تنطوي عليه من طمع في المال والغنائم، والمناورة -مهما كانت نتيجتها- تفيد فائدة عظيمة، وربما كانت النتائج السلبية أدعى للاستفادة من النتائج الإيجابية.

5 . سرّ هذا الإقدام من الطفلين إنما هو الإيمان العظيم؛ الذي ترتبت عليه محبة للرسول ﷺ والإقدام والاستبسال وفيه رد على محترفي الغزو الفكري الذين يقولون: (إن العرب أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة، فكانوا ينشأون في أجوائها وظروفها، ولذلك كانوا ينظرون إليها- شيباً وشباناً وأطفالاً- نظرة عادية لا تسبب لهم قدراً بالغاً من المخاوف)، ولا ريب أنهم يغمضون أعينهم عن تخاذل أمثال ابن سلول، الذين استعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف؛ قائلين: لا تنفروا في الحر، بل وعن هزيمة المشركين في غزوة بدر، وهم هم العرب الذين نشأوا في ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها.

6 . قصة أبي دجانة تدل على أن كل مظاهر الكبر المحرمة في الأحوال العادية، تزول حرمتها في حالات الحرب، فمن مظاهر الكبر المحرمة أن يسير المسلم في الأرض مرحاً متبختراً، ولكن ذلك في ميدان القتال أمر حسن وليس بمكروه، ومثله تزيين آلات الحرب وأسلحتها بالفضة.

فَقَالَ: سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، قَالَ: فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ)[1]، وروي أنه ﷺ قال: (إنها لمشـــية يبغضـــها الله إلا في مثل هذا الموطن)[2]، ثم أعطى الرسول ﷺ اللواء لمصعب بن عمير ﷺ، وكان الذي يقود ميمنة المشركين خالد بن الوليد، وميســـرتهم عكرمة ابن أبي جهل، فاقتتل الناس وحميت الحرب، وراح المســـلمون يحسّـــون[3] المشـــركين في اندفاع مذهل، وكان في مقدمة المبارزين والمقاتلين أبو دجانة، وحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وقتل مصعب بن عمير دون الرسول ﷺ، فأخذ اللواء علي ابن أبي طالب ﷺ، وما هو إلا أن أنزل الله نصره على المسلمين، فانكشف المشركون منهزمين؛ لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون، فتكلم الرماة الذين كانوا يرابطون على الجبل في النزول، واختلفوا فيما بينهم؛ فنزل كثير منهم ظناً منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها[4]، وراحوا يأخذون مع أصحابهم الغنائم، وثبت رئيسهم عبدالله ابن جبير مع عدد يسير قائلاً: لا أجاوز أمر الرسول ﷺ، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكرّ راجعاً بالخيل، وتبعه عكرمة، فحملوا على من بقي من الرماة، فقتلوهم وأميرهم، وأخذوا يهجمون على المســـلمين من الخلف، وحينئذ انكشـــف المســـلمون وداخلهم الرعب، وأخذ المســـلمون يقتتلون على غير شـــعار أو هدى، وأوجع المشـــركون في المسـلمين قتالاً ذريعاً، حتى خَلص إلى الرســول ﷺ، فرُمي بالحجارة حتى (كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[5] وَشُجّ وَجْهُهُ شَجّةً فِي جَبْهَتِهِ حَتّى سَالَ الدّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله؟)[6]، (فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ تَغْسِـلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْـكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لاَ يَزِيدُ الدَّمَ إِلاَّ كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّىَ صَارَ رَمَاداً، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ)[7]، وأثناء ذلك شاع في الناس أن الرسول ﷺ قد قتل، وكانت هذه الشائعة من أشد ما أدخل الرعب في قلوب بعض المسلمين[8]،

---

[1] . مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي دجانة.

[2] .طبقات ابن سعد 83/3.

[3] . الحس: القتل.

[4] . أوزارها: أثقالها.

[5] . الرباعية: السن المجاورة للناب.

[6] . الترمذي: كتاب التفسير، باب وَمِنْ سُورةِ آلِ عِمْرَان.

[7] . متفق عليه: البخاري كتاب المغازي، ومسلم كتاب الجهاد والسير.

8 . لقد وقع أصحاب الرسول ﷺ على الموت حرصاً على حياته، ومصدر هذه التضحية الإيمان بالله ومحبته، قال ﷺ: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدَكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) -البخاري كتاب الإيمان- وإذا لم يشغل القلب بمحبة الله ورسوله فسيمتلئ بمحبة الشهوات، وهذا الاعتقاد وحده يحمل صاحبه على التضحية، والنظام وحده لا يقدر على هذه النتيجة، من أجل هذه الحقيقة لم تستطع الحكومة الأمريكية أن تلتزم بمنع مداولة الخمر في المجتمعات والنوادي وذلك عام 1933م، إذ لم تمض سوى فترة وجيزة حتى نكص المقننون على أعقابهم، وارتدّوا مترنحين من ألم الحرمان، فألغوا القانون، وراحوا يشربون من جديد؛ بينما الصحابة حين سمعوا أمر الله عمدوا إلى دنان الخمر فأراقوها، وإلى الأقداح فكسروها، وارتفعت أصواتهم تقول: انتهينا يا رب انتهينا! والفرق بين الواقعتين أن شيئاً وقر في القلب فكان هواه تبعاً لأمر الله وأحكامه، وكم في غزوة أحد من المشاهد الرائعة التي تكشف عن أثر هذه المحبة؛ روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه: من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله

وهي التي جعلت ضـعاف الإيمان يقولون: فما مقامنا هنا إذا كان قد قتل الرسـول؟[1] وذهبوا يولون الأدبار، وهي التي جعلت أنس بن النضـر يقول: بل ما فائدة حياتكم بعد رسـول الله ﷺ؟ ثم أشـار إلى المنافقين وإلى ضـعاف الإيمان قائلاً: الله إني أبرأ إليك مما يقول هؤلاء، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وانطلق فشـد بسـيفه على المشركين حتى قتل، وتجلى في هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسـول الله ﷺ من الصحابة؛ فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دونه ﷺ حتى قتل معظمهم، عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَـالَ: (لَمَّا كَـانَ يَوْمَ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّـاسُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ[2] عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ[3] لَهُ وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِيًا شَـدِيدَ النَّزْعِ؛ كَسَـرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَـيْنِ أَوْ ثَلاثاً، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنْ النَّبْلِ؛ فَيَقُولُ: انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: وَيُشْـرِفُ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِك)[4]، وترّس أبو دجانة نفسه دون الرسـول ﷺ، والنبل يتلاحق في ظهره، وهو منحن على الرسـول ﷺ؛ لا يتحول، وترّس زياد بن السكن نفسه دون الرسول ﷺ حتى قتل هو وخمسة من أصـحابه، وكان آخرهم عمارة بن يزيد بن السـكن، فقاتل دونه ﷺ حتى أثبتته الجراح؛ فقال الرسول ﷺ: أدنوه مني، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ، ثم إن الحرب هدأت بين الطرفين، وانحسـر المشـركون منصـرفين، وقد زُهوا بالنصـر الذي أحرزوه[5]، وفزع النـاس لقتلاهم، وكـان فيهم حمزة بن عبدالمطلب

ما فعل سعد، فنظر فإذا هو جريح في القتلى وبه رمق، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات! قال: أنا في الأموات؛ فأبلغ رسول الله عني السلام، وقل له: إن سعد ابن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جازى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى نبيكم ﷺ ولكم عين تطرف، قال الأنصاري: فلم أبرح حتى مات، ويوم تمتلئ أفئدة المسلمين بنحو هذه المحبة، بحيث تبعدهم قليلاً عن شهواتهم وأنانيتهم فإنهم يصبحون خلقاً آخر جديداً، وسينتزعون انتصارهم من بين شدقي الموت، وسيتغلبون على أعدائهم، مهما كانت العقبات، وإذا سألت عن السبيل إلى مثل هذه المحبة فاعلم أنها كثرة الذكر وكثرة الصلاة على الرسول ﷺ، وفي كثرة التأمل والتفكر في آلاء الله ونعمه عليك، وفي سيرة رسول الله ﷺ وأخلاقه وشمائله، وهذا كله بعد الاستقامة على العبادات في خشية وحضور، والتبتل إلى الله عز وجل بين الحين والآخر.

1 . لقد أوذي الرسول ﷺ هنا كثيراً، وشاع خبر مقتله ﷺ في صفوف المسلمين فزعزعهم؛ لأن ارتباط المسلمين برسولهم من القوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه، فكان أمر وفاته شيئاً لم يخطر لهم على بال، وكأنهم كانوا يسقطون حساب ذلك من أذهانهم، ولكن الحكمة الباهرة اقتضت أن تشيع هذه الشائعة لتكون تجربة درسيّة بين تلك الدروس العسكرية؛ كي يستفيق المسلمون من ورائها إلى الحقيقة التي ينبغي أن يوطنوا أنفسهم لها منذ الساعة؛ وأن لا يرتدّوا على أعقابهم إذا وجدوا الرسول ﷺ قد اختفى من بينهم؛ قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}- آل عمران 144- ولقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس يوم لحق ﷺ فعلاً بالرفيق الأعلى؛ فأيقظت الآية المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة، فودعوه بقلوبهم الحزينة، ورجعوا أمانة الدعوة والجهاد في سبيل الله.

2 . مجوّب عليه: مترس بنفسه عليه.

3 . جحفة: ترس من جلد.

4 . البخاري: كتاب المغازي، باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ.

5 . مدة الحرب في هذه الغزوة تنقسم إلى شطرين:

الأول: وفيه التزم المسلمون أوامرهم التي كانوا قد تلقونها منه ﷺ؛ فسارع النصر إلى المسلمين؛ وانحسر المشركون؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} آل عمران 152.

واليمان وأنس بن النضـــر، ومصـــعب بن عمير، وعدد كبير غيرهم، وقد تأثر النبي ﷺ لمقتل عمه تأثراً كبيراً، وقد مثّل به، فبقر بطنه وجدع أنفه وأذناه، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ (يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِـــيرَ لَـهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ: أَنَا شَـــهِيدٌ عَلَى هَؤُلاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ وَلَمْ يُغَسَّـلُوا وَلَمْ يُصَـلِّ عَلَيْهِمْ)[1]، وأخذ اليهود والمنافقون يظهرون الشماتة بالمسلمين، وراح عبد الله بن أبي بن سلول يقول هو وأصحابه للمسلمين: لو أطعتمونا ما قتل منكم من قتل، وأخذوا يتسـاءلون عن النصـــر الذي كانوا يتوهمونه مع رســـول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى آيات تعليقاً على إرجاف اليهود والمنافقين وبياناً لحكمة ما حصـــل في غزوة أحد، وهي من قوله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَـالِ وَاللَّهُ سَـــمِيعٌ عَلِيمٌ}[2] إلى قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِـــكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَـــادِقِينَ}[3]، وانصـــرف الرســـول ﷺ من أحد مســـاء الســـبت، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم، فلما صلى الرسول ﷺ الصبح يوم الأحد أمر بلالاً أن ينادي أن رســـول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس، ودعا الرسول ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحل، فدفعه إلى عليّ رضي الله عنه وخرج القوم وهم ما بين مجروح وموهون، ومشـــجوج حتى عســـكروا بحمراء الأســـد[4]، فأوقد المســـلمون هناك نيراناً عظيمة[5]، حتى ترى من المكان البعيد وتوهم

الثاني: انطلق المسلمون خلف المشركين؛ ليجهزوا عليهم، وليأخذوا الغنائم، فرغب بعض الرماة أن يشتركوا معهم في الغنيمة، وظنوا أن الفترة الزمنية لأوامر الرســـولﷺ قد انتهت، وهو اجتهاد خالفهم فيه بعض زملائهم، وفي مقدمتهم أميرهم عبدالله بن جبير، ولكن هذا الاجتهاد قلب الرعب الذي داهم أفئدة المشركين إلى استبسال جديد! وجاء الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين؛ قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} آل عمران 152-153، وانظر كم كان وبال هذه الخطيئة جسيماً، وكم كانت نتيجتها عامة؟ فلم ينج حتى الرسول ﷺ من نتائجها، وتلك سنة الله في الكون، لم يمنعها من الاستمرار أنه ﷺ موجود في ذلك الجيش، وأنه حبيب الله؛ فتأمل نسبة خطيئة هؤلاء الأفراد إلى خطيئة المسلمين المختلفة المتنوعة اليوم، والمتعلقة بشتى نواحي حياتنا، وتأمل مدى لطف الله بالمسلمين؛ إذ لا يهلكهم بما تكسب أيديهم، وبذلك تظهر الحكمة في أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها أمام الدول الأخرى، رغم أن هؤلاء كفرة، وأولئك مسلمون.

1 . البخاري: كتاب الجنائز، باب الصَّلَاةِ عَلَى الشَّهِيدِ، وقد أمر النبي ﷺ بدفن قتلى المسلمين بدمائهم، ولم يصل عليهم، وجمع بين الرجلين في قبر واحد، وقد استدل من ذلك العلماء على أن الشهيد في معارك الجهاد لا يغسل ولا يُصلى عليه، بل يدفن بدمائه؛ قال الشافعي: (جاءت الأحاديث من وجوه متواترة أنه لم يصل عليهم، وأما ما روي أنه ﷺ صلى عليهم عشرة عشرة، وفي كل عشرة حمزة بن عبدالمطلب، حتى صلى عليه سبعين مرة فضعيف وخطأ) مغني المحتاج 1/ 349، كما استدلوا بذلك أيضاً على أنه يجوز عند الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر، أما بدون ضرورة فلا يجوز.

2 . آل عمران 149.

3 . آل عمران 168.

4 . حمراء الأسد: مكان من المدينة على بعد عشرة أميال.

5 . الخروج إلى حمراء الأسد، للحاق بالمشركين يدل على أن النصر مع الصبر، وإطاعة أوامر القائد الصالح، واستهداف القصد الديني المجرد، فلم يكد يؤذن في الناس للخروج مرة أخرى حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس، من بعد ما أنهكتهم الجروح والآلام، ولم يسترح أحد منهم بعد في بيته أو يفرغ للنظر في حاله وجسمه، وانطلقوا خلف الرسول ﷺ

كثرة أصحابها، ومرّ بهم معبد بن معبد الخزاعي - وكان يومئذ من مشركي خزاعة- ثم تجاوزهم، فمرّ على المشـركين ولهم زجل ومرح، وزهو بالنصـر الذي لاقوه في أحد، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة للقضـاء على المسـلمين، وصـفوان بن أمية ينهاهم، فلما رأى أبو سـفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: ويحكم! إن محمداً قد خرج في أصـحـابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، فأدخل الله بذلك رعباً عظيماً في قلوب المشـركين، وهبّوا مسـرعين عائدين إلى مكة، وأقام النبي ﷺ في حمراء الأسد: الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

يوم الرجيع

في السـنة الثالثة قدم وفد من عُضَـل والقارّة [1] على الرسـول ﷺ، يَذكرُ الوفد أن أخبار الإسـلام قد وصـلتهم، وأنهم بحاجة إلى من يعلمهم شـؤون هذا الدين[2]، فبعث ﷺ نفراً من أصـحابه، وفيهم مرثد ابن أبي مرثد، وخالد بن بكير، وعاصـم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبدالله بن طارق، وأمّر عليهم عاصـم بن ثابت؛ قَالَ أبو هريرة: (فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَـانَ، فَتَبِعُوهُمْ بِقَرِيـبٍ مِنْ مِـائَـةِ رَامٍ، فَـاقْتَصُّـوا آثَـارَهُمْ، حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلاً نَزَلُوهُ، فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنْ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِـمٌ وَأَصْـحَابُهُ لَجَأوا إِلَى فَدْفَدٍ[3]، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ، فَقَالُوا: لَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلاً، فَقَالَ عَاصِـمٌ: أَمَّا أَنَا فَلا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ[4]، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِـمًا فِي سَـبْعَةِ

يبتغون المشركين؛ الذين لم تخمد بعد في رؤوسهم جذوة النشوة بالنصر، ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في غنيمة أو غرض دنيوي، وإنما هو التطلع إلى النصر أو الاستشهاد في سبيل الله، وهم يسوقون بين يدي ذلك جراحاتهم الدامية، وقروحهم المؤلمة، والنتيجة أن نشوة الظفر ولذة الانتصار لم تربط على قلوب المشركين؛ ليتمموا نصرهم، فوقع الرعب فجأة في قلوبهم، وتصوروا كما أخبرهم صاحبهم أن محمداً وأصحابه قد جاءوا هذه المرة ومعهم الموت المؤكد، لينثروه فيما بينهم، فارتدوا على أعقابهم بعد أن كانوا متجهين صوب المدينة، وانطلقوا سراعاً إلى مكة لا يلوون على شيء؛ ومردّ ذلك إلى الإرادة الإلهية التي جعلت من هذه الموقعة كلها درساً بليغاً للمسلمين؛ وفي هذا الختام الأخير المتمم لموعظة أحد نزل قول الله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} آل عمران 172-174.

1 . المشـهور أنهما عُضـل والقارّة، وضـبطهما ابن حجر في فتح الباري على النحو الآتي: عَضَـل والقارَة، وكذا الفيروآبادي في القاموس المحيط.

2 . لا يجوز للمسلم المقام في دار الكفر أو الحرب إن لم يمكنه إظهار دينه، ويسن له ذلك إن أمكنه إظهار دينه، ويستثنى من ذلك إذا كان ابتغاء القيام بواجب الدعوة هناك؛ فذلك من أنواع الجهاد الذي تتعلق مسؤوليته بالمسلمين كلهم، على أساس فرض الكفاية؛ إن قام به البعض قياماً تاماً سقطت المسؤولية عن الباقين، وإلا اشتركوا كلهم في الإثم .انظر مغني المحتاج 4/ 239.

3 . الفدفد: الرابية المشرفة.

4 . للأسير في يد العدو أن يمتنع عن قبول الأمان، ولا يمكّن من نفسه ولو قتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافر؛ كما فعل عاصم رضي الله عنه، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن؛ مترقباً الفرصة كما فعل خبيب وزيد رضي الله عنهما، ولكن لو قدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقّه .انظر نهاية المحتاج للرملي 78/8.

نَفَرٍ بِالنَّبْلِ، وَبَقِيَ خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَأَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِي مَعَهُمَا: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَلَمْ يَفْعَلْ فَقَتَلُوهُ، وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ؛ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا قَتْلَهُ اسْتَعَارَ مُوسَى مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ؛ لِيَسْتَحِدَّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ؛ قَالَتْ: فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي، فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَزِعْتُ فَزْعَةً، عَرَفَ ذَاكَ مِنِّي وَفِي يَدِهِ الْمُوسَى، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكَانَتْ تَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ؛ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا كَانَ إِلا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ[1]، فَخَرَجُوا بِهِ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنْ الْمَوْتِ لَزِدْتُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، ثُمَّ قَالَ:

مَا[2] أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ[3].

وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى عَاصِمٍ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ يَعْرِفُونَهُ، وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنْ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ)[4]، وزاد الطبري عن جعفر بن عمرو عن أبيه أن الرسول ﷺ بعثه وحده عيناً إلى قريش؛ قال: فجئت إلى خشبة خُبيب، وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها فحللت خُبيباً، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت فلم أر لخبيب رمة[5]، فكأنما الأرض ابتلعته.

قال ابن إسحاق: وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك؛ نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة

---

1 . كرامة خبيب وهو أسير تدل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، مع فارق أساسي وهو أن معجزة النبي تكون مقرونة بالتحدي ودعوى النبوة، أما كرامة الأولياء فتأتي دون أن تقترن بالتحدي؛ وهذا قول جمهور أهل السنة والجماعة.

2 . في رواية: ولست أبالي.....

3 . قصة خبيب ﷺ مقابل ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين، وقد راح ضحية تلك الأحقاد؛ فقد حُبس انتظاراً لقتله، والطفل على فخذه، والسكين بيده ولو كان يتعلق بالحياة يفكر في الانتقام لكانت فرصة رائعة لمقابلة غدر بغدر، ولكنه كان يلاطفه كأنه أب شفوق! فانظر إلى التربية الإسلامية لخبيب وقارنها بالحاقدين؛ عرب أنبتتهم أرض واحدة، وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة، ولكن خبيباً اعتنق الإسلام فأخرجه إنساناً آخر، وأولئك عكفوا على ضلالهم، فحبسهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل.

4 . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الرَّجِيعِ وَرِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبِئْرِ مَعُونَةَ.

5 . الرمة والرميم: العظم البالي.

تؤذيه وأني جالس في أهلي[1]! فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحد كحب أصحاب محمد محمداً[2].

بئر مَعُونة[3]

في السنة الرابعة قدم عامر بن مالك المشهور بلقب (مُلاَعِب الأسِنَّةِ[4]) على رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام، ولكنه لم يُسلم، ولم يظهر تجنباً عن الإسلام، بل قال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال عامر: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث ﷺ سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، وكان ذلك في صفر على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد[5]، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فلما نزلوها بعثوا أحدهم؛ وهو حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، وعدا عليه فقتله، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (لَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ وَكَانَ خَالَهُ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ قَالَ بِالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ)[6]، ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر يستعديهم على بقية الدعاة، فأبوا أن يجيبوه وقالوا: لن نخفر أبا براء - مُلاَعِب الأسِنَّةِ - فاستصرخ عليهم قبائل من سليم، من عصيّة وَرِعْلٍ وَذَكْوَانَ فأجابوه، وانطلقوا فأحاطوا بالقوم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم، فقتل المسلمون عن آخرهم، وكان في سَرْح الدعاة اثنان لم يشهدا هذه الموقعة الغادرة؛ أحدهما عمرو ابن أمية الضمري، ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد، فأقبلا يدافعان عن إخوانهما، فقُتل زميله معهم، وأفلت هو فرجع إلى المدينة، وفي الطريق لقي رجلين من المشركين؛ ظنهما من بني عامر فقتلهما، ثم تبين له لما وصل رسول الله ﷺ وأخبره الخبر أنهما من بني كلاب، وأن النبي ﷺ كان قد أجارهما، فقال ﷺ: (لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما[7])، وتأثر النبي ﷺ لمقتل هؤلاء الدعاة من أصحابه[8].

---

1 . إذا تأملنا في جواب زيد بن الدثنّة لأبي سفيان - قُبيل قتله - علمنا مدى المحبة التي كانت تنطوي عليها أفئدة الصحابة للرسول ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التي حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل في سبيل الله ودفاعاً عن رسوله ﷺ، ومهما بلغ المسلم في إيمانه فإنه بدون هذه المحبة يعتبر ناقص الإيمان، قال ﷺ:(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ) متفق عليه؛ البخاري كتاب الإيمان، ومسلم كتاب الإيمان.

2 . ابن هشام 172/2.

3 . بئر مَعُونة: موضع بين مكة وعُسْفان،

4 . الأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح، فسمي بذلك لمهارته في استعمال الرمح.

5 . ابن إسحاق وابن كثير.

6 . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الرَّجِيعِ وَرِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبِئْرِ مَعُونَةَ.

7 . لأدِيَنَّهما: أدفع دية كل واحد منهما.

8 . الحكمة من تمكين يد الغدر من هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا اســتجابة لأمر الله، وعدم تمكينهم من أعدائهم تحقيق العبودية لله؛ فقد تعبّد عباده بتحقيق أمرين؛ إقامة المجتمع، والسـعي إلى ذلك في طريق شـائكة، ليمحّص الصـادقين عن المنافقين، ويتخذ منهم شهداء، ويتجلى معنى للمبايعة: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} - التوبة 111- فأي قيمة تبقى حينئذ لهذا التوقيع حتى يحرز به صاحبه الجنة، والمشكلة في أساسها إنما تطوف في رأس من قدّر الحياة العاجلة أكثر من قدرها الحقيقي، وضعف تعلقه بالآخرة وشأنها، وتلك هي آية عدم الإيمان بالله تعالى أو ضـعفه في النفس، ومثل هؤلاء الناس لا ينتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال، أما المؤمنون

وبقي شهراً يقنت في صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم وَرِعْلٍ وَذَكْوَانَ وبني لحيان وعصيّة[1].

إجلاء بني النضير[2]

في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة خرج الرسول ﷺ فصلى في مسجد قباء، ومعه نفر من أصحابه، ثم أتى بني النضير فكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين[3] اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان لهما جوار وعهد، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف[4]، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، وخلا بعضهم إلى بعض، وهمّوا بالغدر، وقال عمرو بن جحاش النضري: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة، وكان ﷺ واقفاً إلى جنب جدار من بيوتهم، وفي رواية (أن سلام بن مشكم - وهو من يهود بني النضير - قال لهم: لا تفعلوا، والله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه)[5]، فأبوا، فأخبر الوحي رسول الله ﷺ الخبر بما همّوا[6]، فنهض سريعاً كأنه يريد حاجة، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: قمت ولم نشعر؟ قال: (همّت يهود بالغدر، فأخبرني الله بذلك فقمت)، ثم أرسل إليهم الرسول ﷺ: أن أخرجوا من بلدي فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه، فأخذوا يتهيأون للخروج، ولكن ابن سلول أرسل إليهم: أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم؛ يقاتلون عنكم، فعادوا عما عزموا عليه من الخروج، وتحصّنوا في حصونهم، فأمر ﷺ بإعداد العدة لحربهم والسير إليهم، ثم سار إليهم، وقد تحصنوا بحصونهم، معهم النبل والحجارة، وخذلهم ابن أبي فلم ينفذ وعده معهم، فحاصرهم ﷺ، وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها، فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى

حقاً فالمشكلة غير متصورة لديهم من أساسها؛ فلذة الحياة الدنيا أقل شأناً من أن تحبس المسلم عن أداء أصغر طاعة يتقرب بها إلى خالقه، وما التضحية بالروح في يقينهم إلا الانطلاقة من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة، وأنعم بها من غاية هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها، وهذا الشعور يتجلى بأوضح صورة في الأبيات التي قالها خبيب عند مقتله.

1 . تدل هذه الحادثة والتي قبلها على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة، فليس أمرها موكولاً إلى الأنبياء أو إلى العلماء دون غيرهم، ويظهر مدى أهمية القيام بواجب الدعوة من إرسال سبعين شاباً ولما يمض أمد بعيد على مقتل ستة بعثهم في ذلك السبيل، وكان ﷺ قد خاف عليهم، ولكنه يرى القيام بالتبليغ أهم من كل شيء، ولو كانت مغامرة، وليكن ما أراد الله تعالى في سبيله.

2 . صورة ثانية من طبيعة الغدر والخيانة المتأصلة في نفوس اليهود، وتلك حقيقة تاريخية تصدقها الوقائع، وذلك هو سر اللعنة الإلهية؛ قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} المائدة 78.

3 . هما اثنان من بني كلاب، مر ذكرهما في قصة بئر معونة.

4 . رواه ابن إسحاق.

5 . زيادة من ابن سعد.

6 . إخبار الرسول ﷺ بما بيّته اليهود يُعد من الخوارق؛ ويحملنا على مزيد من الإيمان بنبوته، بينما البعض يخطئون فيعبرون عنه بالإلهام؛ وهذا معنى مشترك للناس كلهم، لا يختص به فئة من الناس دون غيرهم، والحقيقة أن الخبر إلهي عن طريق الوحي، وهو من سمات النبوة، وهو الوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله ﷺ: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} -المائدة 67- وغير هذا الكلام يعدُّ من مظاهر إنكار معجزاته ﷺ بعد ثبوتها بالقطع المتواتر وهو ضعف في الإيمان.

عن الفساد، وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟[1] وقال تعالى في ذلك: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}[2]، فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يخرجوا من المدينة كما أراد، ولكنه ﷺ قال: لا أقبله اليوم، إلا على أن تخرجوا بدمائكم فقط، وليس لكم من أموالكم إلا ما حملته الإبل، عدا الحَلْقة -أي السلاح- فنزل اليهود على ذلك، واحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، قال ابن هشام: كان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه - أي عتبته- فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، وتفرقوا بين خيبر والشام، ولم يُسلم منهم إلا رجلان؛ يامين بن عمير؛ ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما، وقسّم ﷺ الأموال على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا اثنين من الأنصار؛ أعطاهما لما ذكر له من فقرهما؛ وهما سهل بن حنيف، وأبو دجانة؛ سماك بن خرشة، وكانت أموال بني النضير خالصة لرسول الله ﷺ، وذكر البلاذري[3] أنه كان يزرع تحت النخل في أرضهم؛ فيدخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، وما فضل جعله في الكُراع[4] والسلاح[5]، ونزل في بني النضير سورة الحشر كاملة، ونزل تعليقاً على سياسته ﷺ في تقسيم أموال بني النضير قوله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ

---

1 . قطع بعض نخيل بني النضير وإحراقه ثبت بالاتفاق في سورة الحشر، تعليماً للأئمة من بعده، فهو منوط بما يراه الإمام من مصلحة؛ للنكاية بأعدائهم؛ فالمسألة من قبيل السياسة الشرعية؛ وبهذا علل الشافعي أمر أبي بكر ﵁ بالإحراق والقطع حينما أرسل خالداً إلى طليحة وبني تميم، مع أنه نهى عن ذلك في حروب الشام، ويقول الشافعي في الأم 324/7: (لعل أمر أبي بكر بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجراً مثمراً إنما هو لأنه سمع الرسول ﷺ يخبر أن بلاد الشام تفتح على المسلمين، فلما كان مباحاً له أن يقطع ويترك اختار الترك نظراً للمسلمين)، وهذا الذي قلناه مذهب نافع مولى بن عمر والأئمة الأربعة ، وروى عن ليث بن سعد وأبي ثور والأوزاعي بعدم جوازه.

2 . الحشر 5.

3 . فتوح البلدان.

4 . الكُراع بالضم: اسم لجميع الخيل كذا في النهاية.

5 . اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال هو الفيء؛ ويعود التصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يقسم كما تقسم الغنائم؛ مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، فقد خص به المهاجرين دون الأنصار، واختلف العلماء في الأراضي التي غنمها المسلمون بواسطة الحرب على النحو الآتي:

أولاً: ذهب مالك إلى أن الأرض لا تقسم مطلقاً، وإنما يكون خراجها وقفاً لصالح المسلمين إلا أن يرى الإمام أن المصلحة تقضي القسمة فإن له ذلك، ويذهب الحنفية قريباً من هذا المذهب، والدليل عمل عمر ﵁ حينما امتنع عن تقسيم سواد العراق، وجعلها وقفاً للمسلمين.

ثانياً: قال الشافعي: الأرض المأخوذة عُنوة تجب قسمتها كما تقسم الغنائم، وهو مذهب أحمد، ودليل الشافعي أن تصرف النبي ﷺ بأموال بني النضير لأنها فيء لا غنيمة؛ قال تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الحشر 6.

ومما ينبغي أن ننتبه إليه في تعليل تقسيم فيء بني النضير بقوله تعالى: {كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} الحشر 7؛ أي: كي لا يكون تداول المال محصوراً بين طبقة الأغنياء منكم فقط، وهذا يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال والاقتصاد قائمة على تحقيق هذا المبدأ، ويبتغى من وراء ذلك إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ولو طبقت أحكام الشريعة لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، يتفاوتون في الرزق، ولكنهم جميعاً مكتفون متعاونون، ثم لما كانت غاية الشريعة في الدنيا إقامة هذا المجتمع شرع لذلك وسائل وأسباباً معينة؛ ألزمنا إتباعها؛ أي أن الله تعالى تعبدنا بكل من الغاية والوسيلة معاً؛ فلا يقال يجوز تحقيق الغاية بأي وسيلة؛ ولكن بوسيلة مشروعة، هذا وجدير بك أن تعود إلى سورة الحشر لتقف على دروسها.

الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[1].

غزوة ذات الرقاع

كانت في السنة الرابعة الهجرية[2]، بعد شهر ونصف على إجلاء بني النضير، ورجّح البخاري أنها كانت بعد غزوة خيبر، وسببها ما ظهر من الغدر لدى قبائل نجد وسليم بالمسلمين، فخرج ﷺ قاصداً قبائل محارب وبني ثعلب، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، وعسكر ﷺ في مكان يسمى (نخل) من أرض غطفان، ولكن الله قذف الرعب في قلوب القبائل، وكانت جموعاً كبيرة، فتفرقوا ولم يقع قتال؛ ومن مشاهدها:

أولاً: عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ، بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، قَالَ: فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، فَنَقِبَتْ قَدَمَايَ وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ[3]، لِمَا كُنَّا نُعَصِّبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْخِرَقِ، قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الْحَدِيثِ، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، قَالَ: كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئاً مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ)[4].

ثانياً: عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ عَمَّنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ (صَلَّى صَلاةَ الْخَوْفِ؛ أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَهُ وَطَائِفَةٌ، وِجَاهَ الْعَدُوِّ فَصَلَّى بِالَّتِي مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَصَفُّوا، وِجَاهَ الْعَدُوِّ وَجَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى، فَصَلَّى بِهِمْ الرَّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ صَلَاتِهِ ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ)[5].

ثالثاً: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ[6]، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،

---

[1] . سورة الحشر 6-7.

2 . اتفق علماء المغازي على أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل خيبر، ثم رجّح معظمهم أنها كانت بعد غزوة بني النضير في العام الرابع للهجرة، وذهب ابن سعد وابن حبان إلى أنها كانت في العام الخامس.

3 . سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله أصحاب الرسول ﷺ في تبليغ رسالة ربهم والجهاد في سبيله؛ فقد كانوا فقراء، ويتعاقبون ركوب البعير الواحد، وتساقطت أظفارهم فلم يجدوا إلا الخرق يلفونها عليها، ولكن ذلك لم يستطع أن يعيقهم عن أداء رسالتهم، واستهانوا بكل ذلك في جنب عظم المسؤولية الإلهية الملقاة على أعناقهم؛ لأن الله اشترى منهم أنفسهم، ولذلك كره بعض العلماء إفشاء هذا الخبر؛ وهذا يدل على أنه يستحب للمسلم أن يخفى أعماله الصالحة، وما قد يكابد من المشاق في سبيل الله، وفي طاعته، وأن لا يتعمد إظهار شيء من ذلك إلا لمصلحة، مثل بيان حكم ذلك الشيء للإقتداء به. أنظر: شرح صحيح مسلم للنووي 197/12.

[4] . متفق عليه: البخاري كتاب المغازي ، ومسلم كتاب الجهاد والسّير.

5 . متفق عليه؛ رواه البخاري -كتاب المغازي – ومسلم- كتاب الجهاد والسّير- والطريقة التي صلى بها الرسول ﷺ جماعة مع أصحابه في هذه الغزوة هي الأساس الذي قامت عليه مشروعية صلاة الخوف؛ ولها كيفيتان؛ إحداهما إذا كان العدو في جهة القبلة، والثانية إذا كان في غير جهتها، والكيفية الثانية هي التي صلى بها ﷺ في ذات الرقاع؛ لأنهم لما انشغلوا بصلاتهم غدروا بهم؛ والذي اقتضى هذه الكيفية من الصلاة مع إمكان أدائهم الصلاة بجماعتين سببان:

أولهما: اجتماعهم على الإقتداء به ﷺ وتلك فضيلة لا يصار إلى غيرها عند إمكان تحقيقها.

ثانيهما: استحباب وحدة الجماعة قدر الإمكان؛ فتجزئة القوم مكروه بدون ضرورة .

6 . العضاه: الشجر الذي له شوك.

وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، فَجِئْنَاهُ فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)[1].

رابعاً: عن جابر ﷺ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً وجاء زوجها -وكان غائباً- فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي منزلاً؛ فقال: مَن رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين، وآخر من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشعب، قال: وكان الرسول ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه؟ أوله أم آخره؟ قال: بل أكفني أوله، فاضطجع المهاجري، فنام وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الأنصاري عرف أنه ربيئة[2] القوم، فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري، وثبت قائماً يصلي، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه وثبت قائماً يصلي، ثم عاد له بالثالثة فنزعه، ثم ركع وسجد، وأهبَّ[3] صاحبه قائلاً: اجلس فقد أثبتُّ، قال: فوثب فلما رآهما الرجل عرف أنه نُذر به[4] فهرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله، أفلا أيقظتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليّ الرميَ ركعتُ، فأذنتك، وأيمُ الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله بحفظه لقطع نفَسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[5].

خامساً: عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: (خرجت مع رسول الله إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قلت يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا، قال: أنخه، فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك، ففعلت، فأخذها فنخسه بها نخسات، ثم قال: اركب، فركبت فخرج - والذي بعثه بالحق- يواهق[6] ناقته مواهقة، وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لي: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: يا

---

1 . البخاري كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، وهذه القصة تكشف عن مدى رعاية الباري جل جلاله وحفظه لنبيه ﷺ، وتزيدك يقيناً بالمعجزات التي تدل على شخصيته النبوية؛ تلك المعجزة ملأت قلب المشرك بالرعب، فجلس متأدباً؛ تصديقاً لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} - المائدة 67- وليست العصمة المقصودة أن لا يتعرض لأذى، وإنما العصمة الاغتيال.

2 . الطليعة الذي يحرسهم.

3 . أيقظه.

4 . نذر به: أكتشف أمره.

5 . رواه أحمد وابن إسحق، وهي قصة تبين طبيعة الجهاد وكيف كان يمارسه الصحابة؛ فلم يكن عملاً حركياً يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة، إنما هو عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كله بخالقه؛ خاشعاً متبتلاً، وهذا الأنصاري لا يبالي بالسهام؛ لأن نفسه قد غمرتها لذة المناجاة مع خالقه ولولا أمانة الثغر الذي أنيط بهما حفظه لما أيقظ صديقه؛ فقارن ثم ارفع يديك إلى السماء متوسلاً ضارعاً إلى الله.

6 . يواهق: يسابق.

رسول الله بل أهبه لك، قال: لا ولكن بعنيه، قلت: فسُمْنِيه يا رسول الله، قال: آخذه بدرهم، قلت: لا إذن تغبنّي يا رسول الله، قال: فبدرهمين؟ قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية، فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟ قال: نعم، قلت: فهو لك، قال: قد أخذته، ثم قال: قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد، وترك لي بنات سبعاً، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهنّ، قال: أصبت إن شاء الله، أما إنا لو قد جئنا صراراً[1] أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها، فقلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق[2]! قال: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً، قال جابر: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحر، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا المدينة، قال جابر: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، ثم جلست في المسجد قريباً منه، فخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر، قال: فأين جابر؟ فدعيت له، فقال: يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له: اذهب بجابر فأعطه أوقية، فذهب بي فأعطاني أوقية، وزادني شيئاً يسيراً، فو الله ما زال ينمو عندي ويرى مكانه من بيتنا)[3].

غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع)

قال ابن إسحاق: كانت في العام السادس، والصحيح أنها العام الخامس؛ وهو مذهب المحققين، لأن سعد بن معاذ كان حياً في هذه الغزوة وله ذكر في قصة الإفك، وقد توفي في غزوة بني قريظة وقد حدثت في الخامسة، وسبب هذه الغزوة ما بلغ الرسول ﷺ من أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن ضرار، فلما سمع ﷺ بهم خرج إليهم، حتى لقيهم عند ماء يقال له: (المريسيع)، فتزاحم الناس، واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، وقسم ﷺ أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين؛ للراجل سهم وللفارس سهمان[4]، وخرج مع المسلمين في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين، كان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، وذلك لما رأوا من اطراد نصر المسلمين، وطمعاً في الغنيمة، وروي عن أبي سعيد أنه قال:

---

1 . صرار: اسم مكان في ضاحية المدينة.

2 . جمع نمرقة؛ وهي الوسادة الصغيرة للاتكاء؛ يقصد أنها إذا علمت بقدومك قامت فهيأت البيت لوصولك.

3 . رواه ابن إسحاق، وفي البخاري ومسلم المعنى بألفاظ أخرى، أنظر: البخاري كتاب البيوع باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومسلم كتاب المساقاة والمزارعة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه، وقصة جابر ؓ توضح الصورة الكاملة لخلقه ﷺ مع أصحابه؛ من لطف المعاشرة ورقة في الحديث، وفكاهة في المحاورة، ومحبة شديدة لأصحابه، فقد كان متأثراً بالمحنة التي طافت على بيت جابر وقيامه على رعاية الأطفال الذين خلفهم له والده؛ فراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه، وقد كانت عادته ﷺ أن يتفقد أصحابه، ويطمئن عليهم، وهي صورة رائعة نستشفها من سيرته العطرة، فيهزنا الشوق إلى رؤيته التي حرمناها ومجالسه.

4 . تقسيم الغنائم بعد استثناء السلب- ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه -والخمس من الغنيمة، فأما السلب فيأخذه القاتل؛ لقوله ﷺ:(مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ) -رواه البخاري كِتَاب فَرْضِ الْخُمُسِ- وأما الخمس فهو لمن ذكرهم الله تعالى في كتابه: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}- الأنفال 41- وأما الأخماس الأربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل الرسول ﷺ في الأموال المنقولة.

(خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلا وَهِيَ كَائِنَةٌ)[1]، وروي[2] أن غلاماً لعمر ﷺ اسمه جهجاه بن سعيد تنازع مع سنان بن وبر، وهما مع جمع عند ماء المريسيع، أثناء مقام الرسول ﷺ هناك، وكادا يقتتلان، عن جابر ﷺ قال: (كُنَّا فِي غَزَاةٍ - قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ- فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)[3]، وكان ممن سمع كلامه زيد بن أرقم، فأخبر الرسول ﷺ، ثم أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، ومشى ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل الرسول ﷺ ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، ونزلت سورة المنافقين؛ وفيها يقول الله تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}[4]، وجاء ولده عبدالله بن عبدالله بن أبي إلى الرسول ﷺ بعد أن رجعوا إلى المدينة؛ فقال: إنه بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله ابن أبي يمشي في الناس فأقتله؛ فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا)، وجعل بعد ذلك إذا حدّث عبد الله ابن أبي بعد ذلك حديثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، فقال ﷺ لعمر ﷺ: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم

---

1 . رواه البخاري -كتاب العتق باب مَنْ مَلَكَ مِنْ الْعَرَبِ رَقِيقًا فَوَهَبَ وَبَاعَ وَجَامَعَ وَفَدَى وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ- والعزل جائز بشروط ذكرها الفقهاء، وتحديد النسل- وهو إتباع وسيلة لمنع الحمل بدلاً من العزل- جائز إذا اتبعت الوسائل التي أجازها جمهور الأئمة، بشرط أن لا يظن فيه أي ضرر للزوجة، وبشرط أن يكون ذلك برغبة متفقة من الزوجين، ولا يلتبس عليك أمر الذين يحترفون صناعة الفتوى بقولهم: (لقد أباحت السنة تحديد النسل، وهذا دليل على أن للدولة أن تحمل الناس- بما تراه من السبل- على ذلك)؛ فليس صحيحاً؛ إذ الطلاق جائز وليس للدولة أن تأمر الجميع بطلاق نسائهم.

2 . ابن سعد في طبقاته وابن هشام في سيرته.

3 . البخاري: تفسير القرآن، باب قَوْلُهُ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ.

4 . المنافقون 8.

بقتلـه لقتلتـه، فقـال عمرﷺ: قد والله علمت أن لأمر رســـول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[1].

خبر الإفك

وفي منصــرف المســلمين من هذه الغزوة كان حديث عائشــة وقول أهل الإفك فيها؛ عَائِشَـةَ قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ؛ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَــهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَــهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِــرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَـيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَـيْتُ شَـأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْـتُ صَـدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي .. قَدْ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْـتُ عِقْدِي فَحَبَسَـنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِــبُونَ أَنِّي فِيهِ[2] فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَــارُوا.. فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْــتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَــيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَــةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَــفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّـلَمِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْـبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَـانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْـتَيْقَظْتُ بِاسْـتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا ... فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَـانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَــلُولَ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْــتَكَيْتُ بِهَا شَــهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُــونَ مِنْ قَوْلِ أَصْـحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنْ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ ... قِبَلَ الْمَنَاصِعِ ... قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْـطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِـي فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْـطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا، فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ

---

1 . ابن جرير في تفسير سورة المنافقون، وتدلنا معالجة النبي ﷺ للمشكلة التي استغلها ابن سلول على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور، وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم، ولقد كان ما سمعه ﷺ مسوغاً كافياً لأن يأمر بقتله بحسب الظاهر، ولكنه ﷺ استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك، وسمع عن اللغط الذي جرى، والجيش فيه عدد كبير من المنافقين؛ الذين يبحثون عن شيء مثل هذا ليقوموا ويقعدوا به، فلم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة، وإنما ترك الحكمة وحدها هي التي تدبر، فأمر بالمسير في وقت لم يكونوا يعتادونه؛ حتى يشغلهم السير عن الاجتماع والمحادثة والكلام؛ لا يدع لهم مجالاً يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدونه من باطل، فلما انحطوا على الأرض ذهب الجميع في سبات عميق، وانتظر الناس أن يجدوا من الرسول ﷺ إذا وصل المدينة شدة على المنافقين؛ تتجلى في قتل ابن سلول، وجاء ابنه عبدالله ﷺ يعرض عليه أن يتولى هو قتل أبيه، ولكنه فوجئ بما لم يكن متوقعاً؛ وتعليل ذلك أن لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ فانحسر ابن سلول عند قومه؛ فكانوا هم الذين يعنّفونه ويفضحون أمره، والمنافق يعتبر في الأحكام القضائية الدنيوية مسلماً مع وجوب الحذر منه، وهنا نذكر أن كل هذه الصفات إنما تأتي من وراء صفة النبوة؛ متفرعة عن كونه نبياً ورسولاً .

2 . في البخاري: (وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ) البخاري: كِتَاب الشَّهَادَاتِ ،باب تَعْدِيلِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا

أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ؛ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ؛ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْوُدِّ لَهُمْ؛ فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إلا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟ فَقَالَتْ بَرِيرَةُ لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ؛ تَنَامُ عَنْ الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ يَعْذُرُنِي[1] مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي؛ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا وَاللَّهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ .... وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا؛ حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي؛ إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[2]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ،

---

1 . من يقوم بعذري، إن كافأته على قبيح فعاله ولا يلومني، وقيل معناه: من ينصرني.
2 . يوسف 18.

وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنْ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ؛ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي[1] إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: لا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}[2] الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ-وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ -: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[3]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ)[4]؛ ثم خرج ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا

1 . قومي إليه: أشكريه.

2 . النور 11.

3 . النور 22.

4 . البخاري: كِتَاب الشَّهَادَاتِ، باب تَعْدِيلِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا، وقصة الإفك حلقة فريدة من فنون الإيذاء؛ وهي أشد في وقعها على نفسه ﷺ من كل تلك المحن السابقة؛ فالشر الذي يصدر من المنافقين يكون أقسى وأبلغ في الضرر؛ لأن المحن السابقة أمور كان يتوقعها، وقد وطن نفسه لقبولها وتحملها، أما هذا الخبر فليس مما قد اعتاده؛ شائعة لو صحت لكانت طعنة في أخص ما يعتز به إنسان، وأخص ما يتصف به الشرف؛ من هنا كانت هذه الأذية أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها؛ لأنها جاءت لتلقى بشعوره النفسي في اضطراب مثير، ولو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخلص من الشكوك المثيرة، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر؛ فكان ذلك مصدراً آخر للقلق والشكوك، ومع ذلك فقد جاءت منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية الرسول ﷺ، وإظهارها صافية؛ فقد جاءت هذه الحادثة لتهز شخصيته هزا قوياً يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتجلي معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار؛ حتى لا يبقى أي مجال التباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى، وليس له إطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، هذا ولتأخر نزول الوحي ببراءة أم المؤمنين حقيقتان:

الأولى: أن النبي ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً؛ فلا ينبغي لمؤمن أن ينسب إليه ما لا يجوز إلا لله.

الثانية: الوحي الإلهي ليس شعوراً نفسياً ينبثق من كيان النبي ﷺ، كما أنه شيئاً ليس خاضعاً لإرادته أو تطلعاته وأمنياته، ولو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينه هذه المشكلة من يوم ميلادها، ولكنه لم يفعل، لأنه لا يملك ذلك؛ قال الدكتور دراز في النبأ العظيم 17: (ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها، وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس:" إني لا أعلم عنها إلا خيراً"، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: "يا عائشة أما إنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله" هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظنون، ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات: حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها، فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه- أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل؛ ليحمى بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي؛ لتنقطع ألسنة المتخرصّين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} -الحاقة 44-47- ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان؛ حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهباً أنساها ما سواه ومن سواه، فلذلك لم تحمد إلا

عليهم ما أنزل الله تعالى، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان ابن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم[1].

غزوة الخندق(الأحزاب)

كانت سنة خمس هجرية[2]، وقيل: سنة أربع[3]، وسببها: أن نفراً من زعماء يهود بني النضير خرجوا حتى قدموا مكة؛ فدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: سنكون معكم حتى نستأصله، وقالوا لهم: إن ما أنتم عليه خير من دين محمد ﷺ؛ ففيهم نزل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}[4]، فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان؛ فدعوهم إلى مثل ذلك، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم، ثم التقوا ببني فزارة وبني مرة، وتمّ لهم مع هؤلاء جميعاً تواعد في الزمان والمكان لحرب الرسول ﷺ.

تهيؤ المسلمين للحرب: لما بلغ الرسول الله ﷺ الخبر، وسمع بخروجهم من مكة ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين[5]؛ فخرجوا من المدينة، وعسكر بهم الرسول ﷺ في سفح جبل سلع، فجعلوه خلفهم، ثم هبوا جميعاً يحفرون الخندق، وكان المسلمون ثلاثة آلاف، وعدد ما اجتمع من قريش والأحزاب عشرة آلاف.

مشاهد من عمل المسلمين في حفر الخندق:

الله، وأبت أن تشكر النبي، وقد يبدو وكأن فيه شيئاً من عدم اللباقة تجاهه ﷺ، غير أن الظروف والحالة هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام؛ فانساقت بوحي الحالة إظهاراً لمعنى العبودية الشاملة لله وحده، فلا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم.

1 . رواه أبو داوود في الحدود وابن ماجة في الحدود، وحد القذف ثمانون جلدة، وليس في هذا من إشكال، إنما الإشكال في أن ينجو من الحد الذي تولّى كبر هذه الشائعة؛ وهو ابن سلول؛ والسبب أنه ـ كما قال ابن القيم في زاد المعاد 115/2-: (كان يعالج الحديث من الإفك بين الناس بخبث؛ فكان يستوشي الكلام فيه ويجمعه، ويحكيه في قوالب من لا ينسب إليه)، وحد القذف إنما يقع على من يتفوّه به بصريح القول، هذا ولنختم الحديث عن قصة الإفك بذكر الآيات العشر التي نزلت ببراءة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} النور 11-20.

2 . جزم به ابن إسحاق وعروة ابن الزبير وقتادة والبيهقي وجمهور علماء السيرة.

3 . تفرد به موسى بن عقبة ورواه عنه البخاري، وتابعه في ذلك مالك.

4 . النساء 51-52.

5 . الخندق من جملة الوسائل الحربية في أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يحفر فيها الخنادق؛ ولا يعرفه العرب، والذي اقترحه هو سلمان الفارسي ﷺ، وأعجبت الفكرة النبي ﷺ وطبقها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، بل هو أولى بها، والشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين تقليد غيرهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله، ولا يعطل المسلم عقله الحر في كل ما ينسجم مع مبادئ الشريعة.

1. عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا قَالَ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ، فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ)[1].

2. عن جابر: (إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ[2]، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ، فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيْءٌ، قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ[3] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: كَمْ هُوَ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ، فَقَالَ: قُومُوا؛ فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَت: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ)[4]، وفي رواية: (فَصَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُوراً[5]، فَحَيَّهَلاً بِكُمْ)[6].

---

1 . رواه البخاري -كتاب المغازي باب غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَهِيَ الْأَحْزَابُ- والمساواة والعدالة بين جميع المسلمين ليستا مجرد شعارات في إطار لامع براق؛ وإنما هما الأساس الواقعي الذي تنبثق منه القيم والمبادئ الإسلامية ظاهراً وباطناً؛ ولذلك لم يندب الرسول ﷺ المسلمين إلى حفر الخندق ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحاً هادئاً، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخب ليمسك معول أحدهم فيضرب به ضربة واحدة إيذاناً ببدء العمل، ثم يدير ظهره إليهم، وينفض ما قد علق بثيابه من ذرات الغبار، ولكنه ﷺ انخرط في العمل كأي واحد منهم، حتى لبس ثوباً من الأتربة على جسمه؛ يرتجز معهم وهم يرتجزون، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعباً وجوعاً، وهذه هي حقيقة المساواة، وكل فروع الشريعة قائم على هذا الأساس، ومصدره في الإسلام العبودية لله تعالى، وشتان بينه وبين ما يسمى بالديمقراطية اليوم؛ فالعبودية صفة عامة شاملة للناس كلهم، لا تخص جماعة منهم بحصانة، مهما كانت الدوافع والأسباب ومصدر الديمقراطية تحكيم رأي الأكثرية؛ مهما كان الرأي!!

2 . تتجلى شخصية النبي ﷺ من مكابدته ﷺ للجوع الشديد أثناء عمله، حتى إنه ليشد الحجر على بطنه، ولم يحمله على مثل هذه المعاناة التطلع للزعامة، ولا الرغبة في المال والملك، ولا أن يجد من حوله شيعة وأتباعاً؛ فكل هذه المطامع تناقض هذا الذي يكابده ويعانيه من هذه الآلام، إنما الذي حمله هو مسؤولية الرسالة والأمانة التي كلف بتبليغها والسير بها إلى الناس في طريق هذه طبيعتها.

3 . الْأَثَافِيّ : جمع الأثفية، وهي الحجارة التي تنصب وتوضع عليها القدر.

4 . البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

5 . السور: الطَّعام الَّذي يدعى إليه، وقيل: الطَّعام مطلقاً، وقيل كلمة فارسية.

6 . رواه مسلم: كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ودعوة جابر ﷺ له ﷺ إلى طعامه القليل موقف يدل على محبتهم للنبي ﷺ، ومحبته الشديدة لأصحابه والشفقة عليهم؛ وقد دفعه إلى ذلك ما اكتشفه من شدة جوعه ﷺ وربطه الحجر على بطنه الشريف، فصنع مما عنده من الطعام ما يكفي لبضعة أشخاص، ولكن كيف يتصور أن يترك النبي ﷺ أصحابه في غمرة العمل جوعاً، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون ويأكلون؟! وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها! إنه ﷺ لم يكن ليتأثر بنظرة جابر إليه؛ فهو أولاً لا يمكن

موقف المنافقين من العمل في الخندق: روى ابن هشام أنه أبطأ عن المسلمين في عملهم في الخندق رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علمه ﷺ، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يستأذنه في اللحوق بحاجته؛ فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله؛ قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[1].

نقض بني قريظة للعهد

خرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي، فأغراه بنقض العهد مع الرسول ﷺ وقال له: جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَبِ نَقْمَي إلى جانب أحد؛ قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه؛ فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر.. ويحك يا حيي؛ فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً، ولم يزل به حتى أقنعه بالخيانة، وانتهى الخبر إلى الرسول ﷺ، فأرسل سعد بن معاذ ليتحقق من الخبر، وأوصاه أن يلحن له بإشارة يفهمها إذا كان الخبر حقاً، وأن لا يفت في أعضاد الناس، وإن كان كذباً فليجهر به في الناس، فلما استطلع سعد الخبر، ورآه حقاً عاد إلى الرسول ﷺ فقال له: عُضَل والقارّة؛ أي كغدر عُضَل والقارّة؛ فقال الرسولﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

ما آل إليه حال المسلمين إذ ذاك: بلغ المسلمين خبر نقض بني قريظة للعهد، والمنافقون بينهم يفتّون في أعضادهم، وجاءهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وراح المنافقون يُرجفون في المدينة، حتى إن أحدهم ليقول: (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط)، ولما وجد الرسول ﷺ الأمر كذلك وأن البلاء قد اشتد بالمسلمين بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فاستشارهما في أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، فقالا له: يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك به الله، أم شيء تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم من شوكتهم، وحينئذ قال له سعد: والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ فتهلل

أن يتميز عن أصحابه بشيء من النعمة أو الراحة، وهو ثانياً لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها التي ألفها البشر، فالله وحده مسبب الأسباب وخالقها، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيراً، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم كلهم، وهم متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلّت، كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت، فمن أجل ذلك أرسل جابراً إلى داره ليهيئ لهم الطعام، وانفتل هو إلى عامة القوم يناديهم أن يقبلوا جميعاً إلى صنيعة كبرى لهم في دار جابر، فانقلبت شاة جابر الضعيفة إلى طعام وفير كثير، أكل منه مئات الصحابة، وهذه الخارقة العجيبة تقدير إلهي لمدى محبته ﷺ لأصحابه وإعراضه عن الأسباب المادية وشأنها في جنب قدرة الله وسلطانه، وهذه من أهم ما يبرز معالم شخصيته النبوية.

1 . النور 62.

وجه الرسول ﷺ وقال له: فأنت وذاك؛ قال ابن إسحاق يروى عن الزهري: ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح- أي بين المسلمين وغطفان- إلا المراوضة في ذلك[1].

أما المشركون فقد فوجئوا بالخندق حينما وصلوا إليه، وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، فعسكروا حول الخندق؛ يحاصرون المسلمين، ولم يحدث قتال، غير أن بعض المشركين أخذوا يتيممون مكاناً ضيقاً من الخندق، فاقتحموا منه، فأخذ عليهم المسلمين الثغرة التي اقتحموا منها، فارتد بعضهم، وقتل البعض، فقُتل عمرو بن ودّ؛ قتله علي رضي الله عنه.

هزيمة المشركين بلا قتال: هزم الله المشركين دون قتال، وبوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما:

أولاهما: نعيم بن مسعود أتى الرسول ﷺ مسلماً، وعرض عليه تنفيذ أي أمر يريده فقال لهﷺ: إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذّل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم فأتى بني قريظة فأقنعهم - وهم يحسبونه لا يزال مشركاً- أن لا يتورطوا مع قريش في قتال، حتى يأخذوا منهم رهائن، كي لا يولوهم الأدبار، فيبقون وحدهم في المدينة، دون أي نصير لهم على محمد وأصحابه، فقالوا له: إنه للرأي! ثم خرج حتى أتى قريشاً، فأنبأهم أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا، وأنهم قد اتفقوا خفية مع الرسول ﷺ؛ على أن يختطفوا عدداً من أشراف قريش وغطفان؛ فيسلموهم له ليقتلهم، فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلاً منكم، ثم خرج حتى أتى غطفان؛ فقال لهم مثل الذي قال لقريش، وهكذا تألب بعضهم على بعض، واختفت الثقة مما بينهم، وأصبح كل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة.

الثانية: ريح هوجاء مخيفة في ليلة مظلمة باردة؛ جاءت فقلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وقطعت أوتادهم؛ وذلك بعد بضعة عشر يوماً من المحاصرة التي ضربها المشركون على المسلمين؛ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ

---

1 . الحكمة أن يطمئن ﷺ إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من المعنوية، والاعتماد على نصر الله رغم اجتماع أشتات المشركين، ونقضهم العهود والمواثيق، وهذا من أبرز أساليبه التربوية لأصحابه؛ فمن عادته ﷺ أنه لا يسوق أصحابه إلى الحرب التي لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها؛ فمن أجل ذلك عرض على أصحابه هذا الرأي؛ وأنبأهم أنه ليس تبليغاً من الله تعالى، والدلالة التشريعية من هذه الاستشارة محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه، ولا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم؛ إذ مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من كتاب الله تعالى، فأما ما كان من ذلك في حدود الاستشارة والرأي المجرد فلا يعتبر دليلاً بحال؛ لسببين:

الأول: يمكن أن يكون المقصود منها مجرد استطلاع لما في النفوس؛ فهي ممارسة لعمل تربوي.

الثاني: لو كان بعد المشاورة عمل تنفيذي واعترض القرآن لا تبقى فيه أي دلالة تشريعية.

وقد اتفق علماء السيرة على أنه ﷺ لم يبرم صلحاً مع غطفان؛ وإنما هي مشاورة، وفيه رد على من قال: يجب على المسلمين أن يدفعوا الجزية إلى غير المسلمين إذا اقتضت الحاجة! فإن قلت: فهب أن المسلمين اضطروا إلى الخروج عن بعض أموالهم حفظاً على حياتهم، وحذراً من أن تستأصل شأفة المسلمين؛ أفليس لهم أن يفعلوا ذلك؟ والجواب أن هنالك حالات تستلب فيها أموال المسلمين وخيراتهم، ومعلوم أن المسلمين لا يخضعون لشيء من ذلك عن طريق الاختيار وإتباع الفتوى، وإنما يُحملون عليه كرهاً، والشريعة لا تخاطب مكرهاً؛ فمن العبث انتزاع هذه الحالة التي هي من وراء حدود التكليف.

وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: قُمْ، يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ" فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً، إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي، أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ، فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ، حَتَّىَ أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ" وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ، قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِماً حَتَّىَ أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: قُمْ، يَا نَوْمَانُ)[1]، وروى ابن إسحاق بزيادة: (فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً؛ فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت؟ فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع[2] والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون.. فارتحلوا، فإني مرتحل، وفي صباح اليوم الثاني كان المشركون كلهم قد ولوا الأدبار، وعاد ﷺ وصحبه إلى المدينة، وكان لا يفتر ﷺ طيلة هذه الأيام والليالي عن الاستغاثة والتضرع والدعاء إلى الله تعالى أن يؤتى المسلمين النصر[3]، وكان من جملة دعائه ﷺ في ذلك: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ)[4]، وفى هذه الغزوة فاتت النبي ﷺ الصلاة في وقتها، فقضاها بعد خروج الوقت؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا

---

1 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب.

2 . الكراع: اسم لجميع الخيل.

3 . التضرع إلى الله والإكثار من الاستغاثة وسيلة التجأ ﷺ في بدر وفي الخندق؛ وهو العمل المتكرر الذي ظل ﷺ يفزع إليه كلما لقي عدواً؛ وهي الوسيلة التي تعلو في تأثيرها على كل الأسباب المادية، ولا تصلح حال المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة، وبصدق هذا الالتجاء إلى الله انهزم المشركون قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} -الأحزاب 9-10-إلى قوله تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} -الأحزاب 25- وانهزام المشركين على كثرتهم لا يعني إغراء المسلمين بالمغامرة دون استعداد وتأهب، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم أن في مقدمة أسباب النصر المختلفة صدق الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له، فلن تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها، وإذا تحققت فحدّث عن معجزات النصر ولا حرج؛ وإلا فمن أين جاءت الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم، دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم؟! فقلبت قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم وهي هنا ريح باردة رخاء، تنعش ولا تؤذي أحداً!

4 . متفق عليه: البخاري كتاب التوحيد ، ومسلم كتاب الجهاد والسير.

الْمَغْرِبَ)[1]، وفي حديث آخر: (شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةَ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً، ثُمَّ صَلاَّهَا بَيْنَ الْعِشَاءيْنِ، بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ)[2].

غزوة بني قريظة

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاحَ، وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ، فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلاحَ فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَيْنَ؟ قَالَ: هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، قَالَتْ: فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)[3]، ونادى ﷺ في المسلمين: (لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العصر إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمْ العَصْرَ فِي الطَّرِيْقِ، وَقَالَ بَعْضُهُم: لا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيْهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، وَلَمْ يُرِدْ ذلِكَ مِنَّا)[4]، وحاصرهم ﷺ وهم متحصنون في حصونهم خمساً وعشرين ليلة، وقيل: خمسة عشر يوماً، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

---

1 . متفق عليه: البخاري كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

2 . رواه مسلم في كتاب المساجد باب الدَّليل لمن قال الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر، ولقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس، وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين، رجالاً وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النسخ -على فرض صحته- ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، ولم يصح؛ والذي يقتضيه الدليل هو أن صلاة الخوف شرعت قبل هذه الغزوة في ذات الرقاع، ومن أدلة هذه مشروعية تأخير الصلاة قوله ﷺ: (لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ)- رواه البخاري كتاب المغازي، ومسلم كتاب الجهاد والسِّير- فصلاها الفريق الأول بعد وصولهم إلى بني قريظة قضاء، وإذا ثبت وجوب قضاء المكتوبة بعد فواتها فسيان أن يكون السبب نوماً أو إهمالاً وتركاً متعمداً؛ إذ لم يرد - بعد ثبوت الدليل العام على وجوب قضاء الفائتة عموماً - أي دليل يخصص مشروعية القضاء ببعض أسباب التفويت دون بعضها الآخر، والذين تركوها في طريقهم إلى بني قريظة لم يكونوا نائمين ولا ناسين، فمن الخطأ إذن أن تخصص مشروعية قضاء الفائتة المكتوبة بما عدا التفويت المتعمد، وربما توهم البعض أنه قد ثبت دليل يخصص عموم أدلة مشروعية القضاء وهو المفهوم المخالف لحديث:(مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا) -رواه أبو داود في كتاب الطهارة باب في من نام عن صلاة أو نسيها- فالمقصود بالحديث ليس هو أمر الناسي، ولكنه التركيز على القيد (إذا ذكرها)؛ فعليه أن يبادر إلى قضائها إذا تذكر، ولا ينتظر.

3 . البخاري: كتاب الجهاد والسير، ويدل على جواز قتال من نقض العهد إن رأى المسلمون فيه مصلحة، وقد جعل مسلم -في كتاب الجهاد - هذا الحكم عنواناً لغزوة بني قريظة؛ فالصلح والمعاهدة والاستئمان ينبغي على المسلمين احترامه والتزامه، ما لم ينقضه الآخرون.

4 . البخاري كتاب المغازي، ورواية مسلم (الظهر)، واختلاف الصحابة في صلاة العصر في بني قريظة، وعدم تعنيف أحد دلالة على أصل من الأصول الشريعة، وهو تقرير مبدأ الخلاف في المسائل الفرعية، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً؛ وفيه تقرير مبدأ الاجتهاد، وفيه ما يدل على استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمرٌ لا يمكن أن يتصور أو يتم؛ فالله سبحانه وتعالى تعبّد عباده بنوعين من التكاليف؛ أحدهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك، وثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة؛ فليس المطلوب ممن أدركته الصلاة في بادية والتبست عليه جهة القبلة فيها أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى، في أن يبذل كل ما لديه من وسع لمعرفة جهة القبلة حسب ما يبدو له من أدلة؛ حتى إذا سكنت نفسه إلى جهة ما، استقبلها فصلى إليها.

إن هنالك حكماً باهرة لمجيء كثير من الأدلة ظنية الدلالة غير قطعية؛ من أبرزها أن تكون الاجتهادات المختلفة في المسألة وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعاً، حتى يكون للمسلمين متسع في الأخذ بما شاءوا، حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة، وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده في كل عصر وزمن، وعليه فمحاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندة للحكمة الربانية، عدا أنه ضرب من العبث الباطل؛ إذ لا تضمن انتزاع الخلاف في مسألة دليلها ظني محتمل، وقد اختلفوا في عصر النبي ﷺ وعصر أصحابه.

روى ابن هشام أن كعب بن أسد قال لليهود -لما رأى أن الرسول ﷺ غير منصرف عنهم-: يا معشـــر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: فما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرســـل[1]، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، قال: فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف؛ لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، قالوا فما ذنب المساكين؟ قال: فإن أبيتم هذه أيضاً فإن الليلة ليلة السبت، وأنه عسى أن يكون محمد وأصـحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصـيب منهم غرة، فأبوا ذلك أيضـاً، ثم إنهم نزلوا على حكم الرســـول ﷺ فيهم - وقد كانت بنو قريظة حلفاء للأوس- فأحب ﷺ أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوسيين؛ فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، وكان قد أصيب بسهم في الخندق، فكان يداوى في خيمة هناك، عن أبي سعيد الخدري قَالَ: (نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَىَ حُكْمِ سَـعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَرْسَـلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إِلَىَ سَعْدٍ، فَأَتَاهُ عَلَىَ حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا قَرِيباً مِنَ الْمَسْجِدِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَنْصَارِ: قُومُوا إِلَىَ سَـــيِّدِكُمْ[2] -أَوْ خَيْرِكُمْ- ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَىَ حُكْمِك، قَالَ: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ[3]، وَتَسْبِي ذُرِّيَّتَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ)[4]، وعَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ سَعْدًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُـــولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَـــعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا، وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَبَّتِهِ فَلَمْ يَرُعْهُمْ وَفِي الْمَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ إِلَّا

---

1 . يدل على أنهم كانوا على يقين من نبوته ﷺ، وأنها ثابتة في التوراة، ولكنهم كانوا عبيداً لتكبرهم، وكان سبباً لكفرهم، وهو دليل بيّن على أن الإسلام إنما هو دين الفطرة البشرية؛ الذي ينسجم في تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصالحه، فلن تجد عاقلاً سمع بالإسلام وألمّ بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفراً عقلياً؛ إنما هو أحد شيئين؛ إما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته، وإنما قيل له عنه كلام زائف باطل، وإما أنه وقف على حقيقته فهو يأباه إباءً نفسياً لحقد أو هوى يخشى فواته.

2 . استدل العلماء بهذا على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسبات الداعية إلى ذلك عرفاً؛ يقول الإمام النووي:(فيه إكرام أهل الفضـل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاسـتحباب القيام؛ قال القاضـي: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس، ويمثلون قياماً طول جلوسـه؛ قلت: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح)، ومن الأحاديث الدالة حديث عائِشَـةَ أُمّ الْمُؤْمِنينَ قالَتْ: "مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَشْبَهَ سَمْتاً وَدلاّ وَهَدْياً برسـولِ اللهِ في قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنتِ رسـولِ اللهِ ﷺ قالَتْ: وكَانَتْ إذَا دَخَلَتْ عَلَى النّبيّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبّلَهَا وَأَجْلَسَـهَا في مَجْلِسِـهِ، وَكَانَ النّبيّ ﷺ إذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِـهَا فَقَبّلَتْهُ) -الترمذي في كتاب المناقب- واعلم أن هذا الكلام لا يتنافى مع ما صـح عن رسـول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ سَـرّهُ أَنْ يَتَمَثّلَ لَهُ الرّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ) الترمذي في كتاب الاسـتئذان؛ لأن مشـروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك، أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل إن من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم.

3 . مقاتلتهم: رجالهم.

4 . رواه مسلم-كتاب الجهاد باب جواز قتال من نقض العهد- وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، قال النووي: (فيه جواز التحكيم في أمور المسلمين، وفي مهامهم العظام والرجوع في ذلك إلى حَكم مسلم عادل صالح للحكم، وعلى الحَكم أن يحكم بما فيه مصلحة المسلمين، ولا يجوز الرجوع بعد الحكم، ويجوز قبله).

الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا فَمَاتَ مِنْهَا ﷺ)[1]، وفي رواية أحمد[2] أن جرحه حينما انفجر كان قد بريء إلا مثل الخرص[3]؛ أي: إلا شيء يسير قد بقي منه، ثم استنزل اليهود من حصنهم، فسيقوا إلى الخنادق في المدينة، فقتل رجالهم، وسبى ذراريهم، وكان من جملة من سيق إلى القتل فقتل حيى بن أخطب؛ الذي كان قد سعى حتى أقنع بنى قريظة بالغدر ونقض العهد؛ روى ابن إسحاق أنه جيء به إلى رسول الله ﷺ ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى الرسول ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم جلس فضربت عنقه[4].

---

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرْجِعِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْأَحْزَابِ ، ولسعد بن معاذ مزايا خاصة؛ فقد أعطاه النبي ﷺ له صلاحية الحكم بما يشاء على بني قريظة، وأمر لأنصار بالقيام إليه، وأجاب الله دعاءه يوم جرح في كاحله في الخندق؛ فتحجر جرحه وتماثل للشفاء، ودعاؤه لقاء الله، فانفجر جرحه تلك الليلة ومات؛ قال ابن حجر: (والذي يظهر لي أن ظن سعد كان مصيباً، وأن دعاءه في هذه القصة كان مجاباً، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين؛ فإنه ﷺ تجهز للعمرة فصدوه عن دخول مكة، وكادت الحرب أن تقع بينهم فلم تقع كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} الفتح 24، ثم وقعت الهدنة؛ واعتمر رسول الله ﷺ من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد، فتوجه إليهم غازياً ففتحت مكة) فتح الباري 7/ 392.

2 . رواه الإمام أحمد في مسند عائشة.

3 . الخرص: حلي يوضع في الأذن.

4 . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: (نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا) البخاري في كتاب المغازي ، وروي أنه ﷺ قال يوم الأحزاب: (لا يغزونكم بعد هذا أبداً ولكن أنتم تغزونهم) أخرجه البزار، وأخيراً فإن قصة سعد تؤكد أن الحرب الدفاعية في الإسلام ما كانت إلا مرحلة من مراحل الدعوة؛ وقد جاءت من بعدها مرحلة دعوة الناس كلهم إلى الإسلام؛ بحيث لا يقبل من الملاحدة والمشركين إلا الإسلام، ولا يقبل من أهل الكتاب إلا الدخول فيه والخضوع تحت حكمه العام، مع قتال كل من وقف دون هذه السبيل، ما دام ذلك ممكناً، وبعد استنفاد وسائل الدعوة السلمية المعروفة.

الفتـح

مقدماته و نتائجه مرحلة جديدة من الدعوة

صلح الحديبية

كان في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة، وسببه أن النبي ﷺ أعلن أنه متوجه إلى مكة معتمراً؛ فتبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار، بلغ عددهم ألفاً وأربعمائة تقريباً، وأحرم النبيﷺ بالعمرة في الطريق، وساق معه الهدي؛ ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً البيت معظماً له، وأرسل ﷺ وهو عند ذي الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة؛ اسمه بشر بن سفيان؛ ليأتيه بخبر أهل مكة[1]، وسار النبي ﷺ حتى وصل غدير الأشطاط، فأتاه العين الذي كان قد أرسله، فقال له: إن قريشاً قد جمعت لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش[2] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك، فقال: أشيروا أيها الناس؟[3] فقال له أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله، ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال له رجل من بني أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب، وسار النبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المرار[4] (بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ[5] فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّﷺ: مَا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ[6] قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ[7] نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ[8] وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ

---

1 . في هذا تأكيد دليل على أن أمر الاستعانة بغير المسلم يتبع ظرف وحالة الشخص الذي يستعان به؛ فإن كان ممن يطمأن إليه جازت وإلا فلا، وقد استعان ﷺ في كل الحالات بغير المسلمين بما دون القتال؛ كإرساله عيناً على الأعداء أو استعارة أسلحة.

2 . الأحابيش: هم الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.

3 . الشورى مشروعة، وليست ملزمة، والحكمة منها استخراج وجوه الرأي، فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه إليه على ضوء دلالة الشريعة أخذ به، وإلا أخذ بما شاء على أن لا يخالف نصاً في كتاب الله ولا سنّة ولا إجماعاً للمسلمين.

4 . ثنية المرار: وهى طريق في الجبل تشرف على الحديبية.

5 . حل حل: اسم كانوا يزجرون به الجمال.

6 . ثمد: حفيرة قليلة الماء.

7 . العيبة: ما توضع فيه الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له والأمانة على سره.

8 . العوذ: الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات من النوق إذا كان معها أطفالها.

نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا[1]، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ قَالُوا: ائْتِهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا[2] مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ[3]، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ[4] عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ[5]؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا الإِسْلامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ[6]، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ

---

1 . جَمُّوا : استراحوا.

2 . أَوْشَابًا: أخلاطاً منهم.

3 . اليد: النعمة، والمقصود أن كان تحمل دية، فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن.

4 . مرّ في غزوة بنى قريظة أنه لا يشرع القيام على رأس أحد وهو قاعد؛ لأنه من مظاهر التعظيم الذي تفعله الأعاجم وأنكره الإسلام؛ فكيف كان الأمر على خلاف ذلك هنا؟ والجواب أنه يستثنى من عموم المنع مثل هذه الحالة بخصوصها؛ أي في حالة قدوم رسل العدو إلى الإمام أو الخليفة، فلا بأس حينئذ من قيام حرس أو جند على رأسه؛ إظهاراً للعزة الإسلامية، وتعظيماً للإمام ووقاية له مما قد يفاجأ به من سوء، أما في أعم الأحوال فلا يجوز.

5 . كَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فدفع عروة دية المقتولين.

6 . صورة حية تصور محبة أصحاب الرسول ﷺ له، وإن فيها لدلالات هامة؛ منها:

أولاً: أنه لا إيمان برسول الله ﷺ بدون محبة له، وليست المحبة له معنى عقلانياً مجرداً؛ وإنما هي الأثر الذي يستحوذ على القلب فيطبع صاحبه بمثل طابع الصحابة في حب الرسول ﷺ.

ثانياً: أن التبرك بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع، ولقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن التبرك بشعر النبي وعرقه ووضوئه، والتبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته، وليس ثمّة فرق بين أن يكون ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته، ومع ذلك فإن قوماً يستنكرون التوسل بذاته بعد وفاته؛ بحجة أن تأثيره ﷺ قد انقطع؛ فلا تأثير له البتة! وهذه حجة واهية! فهل ثبت له ﷺ تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته، حتى نبحث عن مصير هذا التأثير بعد وفاته؟! فمناط التبرك والتوسل بآثاره ﷺ ليس هو إسناد أي تأثير إليه، وإنما المناط كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وكونه رحمة،

لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا،.. وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا.. ولَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ.. فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ[1]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ قَالَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ[2]، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟)[3]، والتف الصحابة حوله ﷺ؛ (فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءنَا مِنْهُمْ، سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجاً وَمَخْرَجاً)[4]، وكانت مدة الصلح بناء على هذه الشروط عشر سنين[5]؛ لا إسلال فيها ولا إغلال[6]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة؛ فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، ولما فرغ من الصلح والكتابة، أشهد على الكتاب رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين، (فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَأَتَىَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْنَا عَلَىَ حَقّ، وَهُمْ عَلَىَ بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَىَ، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَىَ: قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَداً، قَالَ: فَانْطَلَقَ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظاً، فَأَتَىَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَىَ حَقّ، وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَىَ، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَىَ، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَداً، قَالَ: فَنَزَلَ الْقُرْآنُ

فهو التوسل بقربه ﷺ إلى ربه، وبهذا المعنى توسل الأعمى به ﷺ في أن يرد عليه بصره، فرده الله عليه، وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أي إنكار، والاستشفاع بأهل الصلاح وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء، والفرق بعد هذا بين حياته وموته ﷺ خلط عجيب وغريب في البحث لا مسوّغ له.

1 . كان الكاتب علياً فيما رواه مسلم.

2 . في مسلم: (فَأَمَرَ عَلِيّاً أَنْ يَمْحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لاَ، وَاللهِ! لاَ أَمْحَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرِنِي مَكَانَهَا، فَأَرَاهُ مَكَانَهَا، فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ: ابْنُ عَبْدِ اللهِ) كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

3 . البخاري: كتاب الشروط، باب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ.

4 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

5 . رواه ابن اسحاق وابن سعد.

6 . أي لا سرقة ولا خيانة.

عَلَىَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَىَ عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ)[1]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا[2]، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ}[3])[4]؛ فأبى ﷺ أن يردهنّ بدينهنّ إلى الكفار.

بيعة الرضوان

كان قد أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ؓ إلى قريش قبل كتابة الصلح ليكلمهم في الأمر، فاحتبسته قريش عندها مدة، وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل، فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا ﷺ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة هنالك؛ ففي البخاري (كَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ)[5]، فكانﷺ يأخذ بيد أصحابه الواحد تلو الآخر؛ يبايعونه على أن لا يفروا، قال تعالى:
{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}[6]، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه؛ وقال: هذه عن عثمان، ولما تمت البيعة انتهى إلى رسول الله ﷺ أن عثمان لم يقتل[7].

---

1 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية.

2 . دلّ عمل الرسول ﷺ من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها، ويحلق ثم ينوى التحلل مما كان قد أهلّ به سواء كان حجاً أو عمرة، كما دل ذلك على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب على أن جميع الذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء إلا من توفى واستشهد منهم في غزوة خيبر.

3 . الممتحنة 10.

4 . البخاري: كتاب الشروط، باب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ.

5 . البخاري: كتاب المناقب، باب مَنَاقِبِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ.

6 . الفتح 18.

7 . صلح الحديبية تدبير إلهي ؛ وهو من الأسس الهامة في تقويم العقيدة الإسلامية، ومن حِكمه:

أولاً: كان مقدمة لفتح مكة، وتلك هي سنة الله؛ يوطئ بين يدي الأمور التي تعلقت إرادته بإنجازها مقدمات تؤذن بها، وقد لا يكون المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه؛ لأن المستقبل غائب عنهم، ولكن بعد فترة أخذ المسلمون يستشفّون أهمية هذه الهدنة، فقد أمن الناس بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وظهر من كان متخفياً بالإسلام، عن الزهري قال: (ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه)؛ ولذلك أطلق القرآن إسم الفتح على هذا الصلح؛ قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} الفتح 27.

ثانياً: أراد الله تعالى أن يبرز الفرق بين وحي النبوة وتدبير البشر، وبين توفيق النبي وتصرّف العبقري المفكر، وأراد الله أن ينصر نبيه ﷺ أمام بصيرة كل متأمل؛ ولعل هذا من بعض تفسير قوله تعالى: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}- الفتح 3- أي: نصراً فريداً في بابه من شأنه أن ينبه العقول الغافلة، فمن هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط، وتساهل

غزوة خيبر

سار النبيﷺ إلى خيبر السنة السابعة من الهجرة[1]، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع؛ تقع على بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام، كان مع النبي ﷺ في هذه

معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوغ التساهل فيها، لقد استبد الضيق والقلق بعمر رضي الله عنه؛ حتى قال: (ما زلت أصوم وأصلي، وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ) -رواه أحمد- وكذلك في الحلق والنحر؛ والسر في ذلك أن الصحابة كانوا يتأملون في تصرفات النبيﷺ وهم يقفون على أرض من البشرية العادية، على حين كان النبي واقفاً فوق مستوى البشرية، وكان تنفيذ الأمر الإلهي هو وحده الماثل أمام عينيه؛ يتضح هذا من جوابه ﷺلعمر حينما أقبل إليه متعجباً، ومن وصيته ﷺ لعثمان، حينما أرسله إلى مكة؛ فقد أمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات؛ فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان؛ فلا غرو أن يُدهَش المسلمون، وسرعان ما انتهت الدهشة وزال الغم، وظهر من وراء ذلك كله النصر العظيم؛ فهل في أدلة العقيدة دليل على نبوته ﷺ أبلغ من هذا الدليل؟! ولقد تضايق المسلمون بادئ الأمر، وازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل -ابن سهيل بن عمرو- فاراً من المشركين؛ يرسُف في الحديد، فقام إليه أبوه آخذاً بتلابيبه وهو يقول: يا محمد، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره ويجره ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين؛ أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال ﷺ: (يا أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا أعطينا القوم عهوداً، وإنا لا نغدر بهم)، لقد جاء إلى النبي ﷺ بعد ذهابه إلى المدينة رجل آخر؛ اسمه أبو بصير، فأرسلوا في طلبه رجلين من المشركين؛ ليستردوه فسلمه الرسول ﷺ إليهما، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فغافل أبو بصير أحد حارسيه وأخذ منه سيفه فقتله، ففر الآخر، ثم عاد أبو بصير إلى الرسول ﷺ؛ فقال له: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم، ثم إنه خرج حتى أتى سيف البحر، وتفلت أبو جندل؛ فلحق به هناك، وأصبح ذلك المكان مثابة للمسلمين من أهل مكة، فلا يخرج من قريش رجل أسلم إلا لحق بأبي بصير وإخوانه، فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى الرسول ﷺ تناشده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاؤوا إلى المدينة، قال سهل بن سعد يوم صفين: (أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ، وَاللَّهِ! لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ) متفق عليه؛ رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم كتاب الجهاد.

ثالثاً: أن الله أراد أن يجعل فتح مكة فتح مرحمة وسلم، لا فتح ملحمة وقتال، فتحاً يسارع الناس فيه إلى دين الله أفواجاً، ويقبل فيه أولئك الذين آذوه وأخرجوه، يلقون إليه السلم، ويخضعون له الجانب مؤمنين موحدين؛ فجعل دون ذلك هذا التمهيد، تؤوب فيه قريش إلى صحوها وتحاسب فيه نفسها وضميرها، وتشترك هي الأخرى مع الصحابة في أخذ العبرة من الصلح.

رابعاً: مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم: استدل العلماء بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب إلى مدة معلومة، سواء كان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض؛ أما بدون عوض فلأن هدنة الحديبية كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه، وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهذا غير جائز عند جمهور العلماء لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت في كتاب الله ولا عن الرسول ﷺ، إلا أن دعت إليه ضرورة وهو أن يخاف المسلمون الهلاك والأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال، وذهب الشافعي وأحمد إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا تجوز أن تزيد على عشر سنوات؛ لأنها المدة التي صالح النبي ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية، وأما الشروط في عقد الهدنة فتنقسم إلى صحيحة وباطلة؛ فالصحيح كل شرط لا يخالف نصاً في الكتاب أو السنة؛ كأن يشترط عليهم مالاً أو معونة للمسلمين عند الحاجة، أو أن يشترط لهم أن يرد من جاءه من الرجال مسلماً أو بأمان، ولقد أطلق الأئمة صحة هذا الشرط الأخير ما عدا الشافعي؛ فقد شرط لذلك أن تكون له عشيرة تحميه بين الكافرين، وحمل على ذلك موافقة النبي ﷺ على هذا الشرط لقريش، والباطل كل شرط فيه معارضة لحكم شرعي ثابت؛ ومنه أن يشترط ردّ النساء المسلمات أو مهورهنّ إليهم، أو إعطائهم شيئاً من سلاح المسلمين أو أموالهم، وأساس الاستدلال على هذا عدم رد النبي ﷺ النساء اللاتي جئن هاربات بدينهنّ، ونهى القرآن صراحة عن ذلك، ولا يقال إن الرسولﷺ نقض عهداً قطعه على نفسه؛ لأن ذلك ليس نصاً في خصوص النساء، بل يحتمل أنه لا ينحط إلا على الرجال وحدهم، ومهما يكن فإن تصرفات النبي ﷺ لا تكتسب قوة الحكم الشرعي إلا إذا أقرها الكتاب بالسكوت عليها أو التأكيد لها، ولقد أقر الكتاب كل بنود المصالحة إلا ما يتعلق برد النساء إلى بلد الكفر فلم يقرّه.

1 . تجوز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها بدون إنذار؛ وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء؛ بدليل فعل النبي ﷺ في خيبر، وأما بلوغ الدعوة فشرط بالاتفاق.

الغزوة ألف وأربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل؛ قال ابن هشام: (فلما أشرف النبي ﷺ على خيبر قال لأصحابه: قفوا، ثم قال: اللَّهُمَّ رَبَّ السمَوَاتِ السَّبْعِ وَما أَظْلَلْنَ، وَالأَرْضينِ السَّبْعِ وَما أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّياطينِ وَمَا أضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرّياحِ وَمَا ذَرَيْنَ، أسألُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ وَخَيْرَ أهْلِها وَخَيْرَ ما فيها، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّها وَشَرّ أهْلها وَشَرّ ما فِيها[1]، أقدموا باسم الله)[2].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ؛ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلاً، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ، وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ، وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَخَرَجُوا إِلَيْنَا بِمَكَاتِلِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، قَالَ: فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)[3]، قال ابن سعد: فوعظ الرسولﷺ الناس، وفرّق بينهم الرايات، وابتدأت المعارك بين الرسول ﷺ وأهل خيبر -وقد تحصنوا بحصونهم- وأخذ المسلمون يفتحونها حصناً حصناً؛ إلا الحصنين الأخيرين؛ الوطيح والسلالم؛ إذ حاصرهما ﷺ بضع عشرة ليلة.

عن بيردة بن الخطيب قال: (لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء، فرجع ولم يفتح، فلما كان الغداة أخذه عمر، فرجع ولم يفتح)[4]، فقال النبي ﷺ: (لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ[5] لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[6]، ثم خرج فقاتل، فكان الفتح على يديه، وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من أموال، أما ذانك الحصنان فقد ظل المسلمون يحاصرونهما، حتى إذا أيقن من فيه بالهلاك سألوه ﷺ أن يُخرجهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال، فوافقهم

---

1 . كان الرسولﷺ يقول هذا الدعاء إذا دخل بلداً. رواه النسائي.

2 . الفرق بين هذه الغزوة بين السابقة أن السابقة قائمة على أسباب دفاعية، أما هذه فتدل على أن الدعوة دخلت مرحلة جديدة؛ إذ أغار ﷺ فيها فجأة على يهود خيبر، دون أن يبدأوا المسلمين بأي محاربة، وسببها الوحيد هو دعوتهم إلى الإسلام، ومحاربتهم على كفرهم، وأحقادهم المعتلجة في صدورهم رغم الدعوة السلمية القائمة على الأدلة والبراهين، وانتظر حتى أصبح ولم يسمع أذاناً إلى الصلاة فأغار عليهم.

3 . البخاري: كتاب الأذان، باب مَا يُحْقَنُ بِالْأَذَانِ مِنْ الدِّمَاءِ.

4 . رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم.

5 . يدوكون: يتساءلون ويختلفون

6 . متفق عليه: البخاري كِتَاب الْمَنَاقِبِ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة.

ﷺ على ذلك، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى خَيْبَرَ الْيَهُودَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا[1] وَلَهُمْ شَطْرُ مَا خَرَجَ مِنْهَا)[2].

وقال ﷺ: (أُقِرُّكُمْ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا)[3]، وقال ابن اسحاق: (فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية[4]، وكانت قد سألت: أي عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته)[5]، والذي جزم به الزهري وسليمان التيمي في مغازيه أنها أسلمت، واختلفوا بعد ذلك؛ هل قتلها النبي ﷺ قصاصاً عن بشر أم لا؟ فأخرج ابن سعد بأسانيد متعددة أنه ﷺ دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها، والصحيح ما رواه مسلم[6]؛ فعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا إِلَىَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ، قَالَ: مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَاكِ، قَالَ: أَوْ قَالَ: عَلَيَّ، قَالَ: قَالُوا: أَلاَ نَقْتُلُها؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ).

---

1 . المساقاة: أن يعامل مالك الأرض غيره ليتعهد شجره بالسقاية والثمار بينهما، وقد ذهب الجمهور إلى صحته كأهل خيبر، ومنعه أبو حنيفة؛ لأن خيبر فتحت عنوة فأهلها عبيد؛ وخالفه أصحابه، ثم اختلف العلماء هل يشمل العقد أنواع الشجر أم هو خاص بالنخيل والعنب؛ والجمهور على أنه عام.

والمزارعة أن يعامل مالك الأرض شخصاً آخر على أن يعمل فيها بالزراعة والاستنبات بجزء مما ستخرجه، وقد منعها الجمهور وقالوا: إلا أن يكون عقد المزارعة تبعاً للمساقاة؛ أي بأن يكون بين الشجر بياض اتفق الطرفان على زراعته ضمن اتفاقهما على عقد المساقاة، والراجح صحة كل من عقد المساقاة والمزارعة؛ وأما النهي فقد كان في أول الأمر لحاجة الناس، وكون المهاجرين ليست لهم أرض، فأمر ﷺ الأنصار بالتكرم بالمواساة؛ فعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: (كَانُوا يَزْرَعُونَهَا بِالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ وَالنِّصْفِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ) -رواه البخاري في كتاب المزارعة- ثم بعد توسع حال المسلمين زال الاحتياج، فأبيحت لهم المزارعة، وأن يتصرف المالك في ملكه كما يشاء، ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة والمؤاجرة في عهده ﷺ وعهد الخلفاء من بعده.

2 . البخاري: كتاب المزارعة ، بَاب الْمُزَارَعَةِ مَعَ الْيَهُودِ.

3 . رواه مسلم -كتاب المساقاة والمزارعة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثَّمر والزَّرع- وقد مكث يهود خيبر يزرعون الأرض إلى أن كانت خلافة عمر ﷺ فقتلوا أحد الأنصار وعدوا على عبدالله بن عمر، فقال ﷺ للناس: إن رسول الله ﷺ قد عامل يهود خيبر على أن يخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعو يديه- أزيلتا من مفاصلهما - كما قد بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري من قبل، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود، وهكذا تم إخراج اليهود من الجزيرة العربية، ولولا بغيهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما طوردوا ولما أخرجوا، ولكن الأرض يرثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

4 . مصلية: مشوية.

5 . القصة متفق عليها عند البخاري كِتَاب الْمَغَازِي ، باب الشَّاةِ الَّتِي سُمَّتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِخَيْبَرَ

6 . رواه مسلم -في كتاب السَّلام- وفيه مزيد من تأكيد الحفظ والعصمة من الناس، واختلفوا هل أسلمت المرأة اليهودية أم لا ؟ وجزم الزهري بأنها أسلمت، ولذلك لم يقتلها النبي ﷺ، ولا يُقال: إن القصاص كان يقتضي قتلها؛ لأن القاعدة المتفق عليها أن الإسلام يجب ما قبله، فالقتل الذي يستوجب القصاص هو ما كان واقعاً بعد إسلام القاتل، أما ما قبله فالأمر في ذلك راجع إلى الحرابة، ومعلوم أن الحرابة تنتهي بالدخول في الإسلام.

وقسّم رسول الله ﷺ غنائم خيبر بين المسلمين، فعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا، قَالَ فَسَّرَهُ نَافِعٌ فَقَالَ: إِذَا كَانَ مَعَ الرَّجُلِ فَرَسٌ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَسٌ فَلَهُ سَهْم)[1]، (وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ فَصَارَتْ إِلَى دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا)[2].

قدوم جعفر ابن أبي طالب من الحبشة

قدم على رسول الله ﷺ من الحبشة -وهو في خيبر -جعفر ابن أبي طالب، ومن معه وهم ستة عشر رجلاً وامرأة، وجَمعٌ آخر كانوا في اليمن؛ فأسهم لهم رسول الله ﷺ من الغنائم؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: (بَلَغَنَا مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ؛ أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ أَبُو رُهْمٍ: إِمَّا قَالَ: فِي بِضْعٍ، وَإِمَّا قَالَ: فِي ثَلَاثَةٍ وَخَمْسِينَ أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي، فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، وَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ، فَقَالَ جَعْفَرٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ، فَأَقِيمُوا مَعَنَا، فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا، فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ: فَأَعْطَانَا مِنْهَا وَمَا قَسَمَ لأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا[3]، إلا لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ إلا أَصْحَابَ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ؛ قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ)[4]، قال ابن هشام: فلما قدم جعفر على رسول الله ﷺ قبّل رسول الله بين عينيه والتزمه[5]، وقال: (ما أدري بأيهما أسرّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر!)، ولما قفل

---

1 . البخاري: كِتَاب الْمَغَازِي ، باب غَزْوَةِ خَيْبَرَ.

2 . متفق عليه- البخاري كِتَاب الْمَغَازِي، ومسلم: كتاب النِّكاح- وتقسيم الغنائم يتم على النحو الآتي: أربعة أخماسها تقسّم بين الغانمين يعطى للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم؛ سهم له وسهمان للفرس، والخمس الباقي يوزع أخماساً كما في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} - الأنفال - وسهم رسول الله ﷺ من هذا الخمس يوزع من بعده على مصالح المسلمين، كما ذهب إلى ذلك الشافعية والحنفية، وقيل: يختص به الخليفة، والقولان متقاربان، أما مصير الغنائم اليوم مع تطور الحروب فالأموال غير المنقولة من الغنائم لا توزع بين المحاربين عند مالك والحنفية إلا إذا دعت المصلحة أو الضرورة، أما الأموال المنقولة منها فيجب أن توزع على الغانمين بنفس الطريقة التي كان يسلكها ﷺ مع ملاحظة ما تطورت إليه وسائل القتال وطرائقه في تفاوت درجات المقاتلين، ولا مانع من أن توزع عليهم حصصهم على شكل علاوات متلاحقة، والمهم أنه لا يجوز للدولة أن تستملك شيئاً منها لنفسها.

3 . جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال، وذلك بعد استئذان أصحاب الحق فيها، فقد أشرك النبي ﷺ جعفر رضي الله عنه ومن معه في الغنائم، بإذن من الصحابة، ورواية البخاري خالية عن التقييد باستئذان المسلمين، ولكن زاد البيهقي أنه ﷺ كلّم المسلمين فأشركوهم، وزيادة العدل مقبولة، والذي زاد من قيمة قيد البيهقي أنه ﷺ لم يسهم لأبان بن سعيد؛ وقد كان أرسله على سرية فعاد منها إلى خيبر بعد انتهاء القتال، وطلب أن يقسم له ولمن معه، فلم يقسم له، وإنما يجمع بين الخبرين بحمل الأول منهما على إذن الجماعة، والثاني على عدمه.

4 . البخاري: كِتَاب فَرْضِ الْخُمُسِ، باب وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْخُمُسَ لِنَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ .

5 . فيه دليل على مشروعية تقبيل القادم والتزامه، ولا خلاف فيا إذا كان قادماً من سفر أو طال العهد به، وعن عَائِشَةَ قَالَتْ: (قَدِمَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ المَدِينَةَ وَرَسُولُ الله ﷺ في بَيْتِي فَأَتَاهُ فَقَرَعَ البَابَ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ عُرْيَاناً - تريد أنه ﷺ كان ساتراً ما بين سرته وركبته ولكن سقط رداءه عن عاتقه فكان ما فوق سرته عرياناً - يَجُرّ ثَوْبَهُ وَالله مَا رَأَيْتُهُ عُرْيَاناً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ فَاعْتَنَقَهُ وَقَبّلَهُ) -رواه الترمذي في كتاب الاستئذان- ويشكل عليه في الظاهر ما روي عن أَنَسٍ قَالَ: (قالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله الرّجُلُ مِنّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لاَ، قالَ: فَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبّلُهُ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ، قَالَ: نَعَمْ) -رواه الترمذي في الاستئذان- وجواب الإشكال أن سؤال الرجل في هذا الحديث عن اللقاءات

رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة استعمل على خيبر رجلاً من الأنصار؛ قيل: هو سواد بن غزيّة، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً عَلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلاثَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لا تَفْعَلْ بِعْ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا)[1].

سرايا إلى القبائل وكُتبٌ إلى الملوك

أخذ رسول الله ﷺ يبعث السرايا من أصحابه إلى مختلف قبائل الأعراب؛ لتقوم بوظيفة الدعوة؛ فإن لم يستجيبوا قاتلوهم، وكانت هذه السرايا خلال العام السابع للهجرة، وتبلغ عدتها عشر سرايا بإمرة الصحابة، وفي هذه الفترة بدأ ﷺ يبعث كتباً إلى مختلف ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام، ونبذ ما هم عليه من الأديان الباطلة[2].

العادية المتكررة، والتقبيل والالتزام أمر غير مرغوب فيه في مثل هذه الحال، أما ما فعله ﷺ مع جعفر وزيد فإنما كان ذلك أثر قدوم من سفر، فالحالتان مختلفتان.

1 . رواه البخاري في كِتَاب الْبُيُوعِ والجمع المختلط، والجنيب الطيب الصلب، والفضل في المطعومات أن يتبادل اثنان مطعومين من جنس واحد مع تفاضل بينهما، وقد نهى النبي ﷺ عنه؛ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ بَيْعِ الذَّهَبِ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرِّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرِ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرِ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحِ بِالْمِلْحِ، إِلاَّ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، عَيْناً بِعَيْنٍ، فَمَنْ زَادَ أَوِ ازْدَادَ فَقَدْ أَرْبَى) -رواه مسلم في كتاب المساقاة والمزارعة- وقد (جَاءَ بِلاَلٌ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ فَقَالَ بِلاَلٌ: تَمْرٌ كَانَ عِنْدَنَا رَدِيءٌ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ، لِمَطْعَمِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ: أَوَّهْ! عَيْنُ الرِّبَا، لاَ تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ التَّمْرَ فَبِعْهُ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ) -رواه مسلم في كتاب المساقاة والمزارعة- وليس هذا مجال البحث في الحكمة من تحريم هذا التبادل؛ ولكن النبي ﷺ أرشده إلى وسيلة أخرى سائغة؛ ولا يعتبر ذلك حيلة محرمة.

2 . **معالم المرحلة الجديدة:** كانت الدعوة من الهجرة إلى صلح الحديبية مرحلة دفاعية، إلى جانب القيام بمهام الدعوة السلمية، فلما أبرم الصلح واطمأنت أفئدة المسلمين تفرغ ﷺ للدخول في مرحلة جديدة لا بد منها لتبليغ الشريعة؛ وهي مرحلة قتال أولئك الذين بلغتهم الدعوة وفهموها، ولكنهم استكبروا عن الإيمان بها والإذعان لها حقداً وعدواناً، وهي المرحلة التي أصبحت حكماً شرعياً باتفاق المسلمين في كل عصر، ويحاول الأعداء طمسها؛ وليس سراً أن الأمر الذي يدعوهم إلى هذا الكيد والتضليل إنما هو الخوف الشديد من الجهاد في سبيل الله، ولقد نضجت عقلية الرجل الغربي لمعانقة الإسلام بمجرد أن يسمع دعوة خالصة إليه، فكيف بالدعوة الخالصة تتلوها تضحية وجهاد؟! وأما عن الحكمة من أن يساق المشرك إلى الإسلام سوقاً، وكيف يمكن أن تفهم عقلية القرن العشرين مثل هذه الشرعية؟ فإنا نتساءل؛ ما الحكمة من أن يحمل الفرد الواحد من الدولة حملاً على الخضوع لنظامها، رغم حريته ومساواته مع غيره من عامة أفراد الدولة حكاماً ورعايا؟ إن الإنسان إنما خلق فوق هذه الأرض ليقيم عليها حكم الله، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} - البقرة 30- وفلسفة هذه الدولة قائمة على حقيقة العبودية والحاكمية لله وحده، مالك الإنسان قيوم السموات والأرض، فكيف يعقل أن يكون لدولة يقوم عليها عبيد مملوكون لله حق إلزام رعاياهم بالخضوع لما يرونه من النظم والمبادئ والأحكام، ثم لا يكون لخالق هؤلاء كلهم الحق في أن يلزمهم بالخضوع لسلطانه والتحول عن كل عقيدة ودين إلى دينه! إن الإنسان هو خليفة الله تعالى في تطبيق أوامره وأحكامه وبذل النفس والمال في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، وليس من المهم أن تفهم هذا عقول الأعداء، وهم ليسوا مشفقين على الحرية الإنسانية بمقدار ما يتربصون بها، وأي قيمة للحرية عند أولئك الذين يكذبون فيصوّرون الإسلام والمسلمين بالصور المنفّرة، وأنهم همج لا يزالون يعيشون في البوادي مع الإبل والأغنام، ولكن الدعوة السلمية بالحكمة والمناقشة والموعظة الحسنة دائمة في كل مجال ومكان، وحينما ينفذ المسلمون أمر هذه الدعوة على حقيقتها ستزداد يقيناً بأن الإسلام دين الفطرة، وأن الناس سيجدون في هذا الدين ضالتهم المنشودة، ولن يستمر على التخلف عنه إلا الحاقدون، وينبغي التنبه إلى أن أمر هذا الإلزام إنما هو خاص بالملحدين والمشركين ومن لف لفهم، أما أهل الكتاب فلا يُلزمون إلا بالخضوع لنظام المجتمع الإسلامي، اعتماداً على أن إيمانهم بالله تعالى مع احتكاكهم بالمسلمين سينبههم إلى الصواب.

روى ابن سعد: أنه ﷺ لما رجع من الحديبية آخر سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً؛ فقيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ ﷺ يومئذ خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله)، وختم به الكتب[1]، فخرج ستة نفر من يوم واحد[2]، وذلك في المحرم سنة سبع، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم[3]، فكان أول رسول بعثه ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي؛ فأخذ كتاب الرسول ﷺ فوضعه على عينيه، ونزل من سريره، فجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وبعث ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم؛ فدفع دحية بكتابه ﷺ إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقرأه وكان فيه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، و {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [4])[5]، قال ابن سعد: فقال هرقل- بعد أن قرأ الكتاب لجمع من عظمائه وحاشيته- : يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم، وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟ قالت الروم: وما ذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي، قالوا: فحاصوا حيصة حُمر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم، وخاف على نفسه وملكه، فسكتهم ثم قال: إنما قلت لكم ما قلت لأختبركم؛ لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له[6].

---

1 . دلّ عمل الرسول ﷺ على مشروعية اتخاذ الخاتم، وكان من فضة، كما دل على مشروعية نقش اسم صاحبه عليه، واستحباب وضع خاتم فضة في الخنصر.

2 . يدل عمله ﷺ هذا -مع ملاحظة التوقيت الذي جاء فيه- على أن على المسلمين أن يقوموا أولاً بمسؤولية الدعوة فيما بينهم، وأن يصلحوا من أنفسهم، حتى إذا قطعوا من ذلك شوطاً كبيراً وفرغوا من تطبيق نظام الإسلام على حياتهم وسلوكهم، أن لهم حينئذ أن يقوموا بهذا الواجب الثاني، ولذلك لم يرسل ﷺ أحداً إلى الملوك قبل هذا التاريخ؛ لأنه ينطوي على الإخلال بواجبإصلاح المسلمين أنفسهم، وهو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم إلى الإسلام، فالناس يبحثون عن المثل الصالح في السلوك؛ ليقتفوا أثره، ولو أن المسلمين اليوم معتزين بإسلامهم مطبقين مبادئه لرأيت ذلك الشعاع متوغلاً بضيائه في العالم، هذا وقد كان زمن إرسال هذه الرسائل قبل الفتح، وذلك هو الحين الذي أجمع عليه عامة علماء السيرة، ولا يخل بذلك ما دلّ عليه صنيع الإمام البخاري في صحيحه؛ فقد أورد خبر كتبه ﷺ بعد غزوة تبوك، وذلك يدل على أنه إنما كان في العام التاسع، قال ابن حجر: (إن الجمع بين القولين أنه ﷺ كاتب قيصر مرتين وهذه الثانية قد وقع التصريح بها في مسند أحمد، وكاتب النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لما مات، ثم كاتب النجاشي الذي ولى بعده، وكان كافراً).

3 . رسائله ﷺ تدل على أنه تهيئة كل الأرض للدعوة، ومن أهم ذلك المعرفة بلغة الأمم، وتعريفهم بمبادئه وأحكامه، فقد بعث ﷺ ستة رجال في يوم واحد؛ وكل واحد يتقن لغة القوم الذين بعثه إليهم.

4 . آل عمران 64.

5 . متفق عليه: البخاري كتاب بدء الوحي، ومسلم كتاب الجهاد والسير.

6 . موقف هرقل يدل على مدى تعنت أهل الكتاب، فقد تحوّل الدين في تصورهم إلى تقاليد؛ فلا ينظرون إليه من حيث أنه حق أو باطل، بمقدار ما يتمسكون به من حيث أنه جزء من تقاليدهم، وكان موقفه بادئ الأمر في مظهر المتدبر، ولكن كان يسوس بذلك رعيته وحاشيته، حفظاًً على سلطانه.

وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وأرسل معه إليه كتاباً، قال: فدفعت إليه الكتاب، فأخذه فمزقه، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال: مزّق الله ملكه، وكتب كسرى إلى باذان -عامله على اليمن- أن ابعث من عندك برجلين جلدين إلى هذا الرجل فليأتيني به، فبعث إليه برجلين، وكتب إليه كتاباً، فقدما المدينة، ودفعا كتاب باذان إليه ﷺ، فتبسم وقال: ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد؛ فأخبركما، فجاءآه من الغد؛ فقال لهما: (أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها[1]، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله)، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[2].

وبعث ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى عظيم بصرى من قبل الروم شرحبيل ابن عمرو الغساني، فأوثقه رباطاً وقتله، قالوا: ولم يُقتل للرسول ﷺ رسولٌ غيره.

وبعث ﷺ برسل وكتب إلى كثير من الأمراء العرب المتفرقين من مختلف الجهات[3]، فأسلم منهم الكثير، وتلاحقت الوفود إلى الرسول ﷺ؛ تعلن إسلامها، وتدخل في دين الله.

وممن أسلم في هذه الفترة من كبار العرب وقادتهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص؛ فقد روى ابن إسحاق عن عمرو بن العاص قال: خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، وهو مقبل من مكة؛ فقلت: أين تريد يا أبا سليمان؟ قال: أذهب والله لأسلم، فحتى متى؟ قلت له: وما جئت إلا لأسلم، فقدمنا جميعاً، فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فبايعته.

---

[1] . قال ابن سعد: وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع.

[2] . ذكر البخاري هذه القصة باختصار،انظر البخاري: كتاب المغازي، باب كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ.

3 . رسـالته ﷺ إنسـانية شـاملة ليس لها طابع عنصـرية أو قومية؛ لذلك اتجه ﷺ بدعوته يبلغها إلى كل حكام الأرض وملوكها؛ فعَنْ أَنَسٍ: (أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَىَ كِسْـرَىَ، وَإِلَىَ قَيْصَـرَ، وَإِلَى النَّجَاشِـي، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَىَ، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِي الَّذِي صَلَّىَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ) رواه مسلم: باب كتب النَّبي ﷺ إلى ملوك الكفَّار يدعوهم إلى اللهِ.

عمرة القضاء

خرج الرسول ﷺ في ذي القعدة من السنة السابعة قاصداً مكة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون ومنعوه من دخولها، فاعتمر عمرة القضاء[1]، وكان المعتمرون معه ألفين[2]، وهم أهل الحديبية ومن انضم إليهم، ولم يتخلف عنها من أهل الحديبية إلا من مات أو استشهد بخيبر؛ قال ابن اسحاق: وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة[3]؛ فصفّ له المشركون عند دار الندوة، لينظروا إليه والى أصحابه، فلما دخلﷺ المسجد اضطبع بردائه[4]، واخرج عضده اليمنى، ثم قال: (رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة)، ثم استلم الركن، وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه، حتى هرول ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، قال: فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم[5]، وذلك أن الرسولﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، فمضت السُنّة بها، وتزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث، فقيل: إنه تزوجها -عَقَدَ نكاحه فقط- وهو مُحرِم، وقيل: بل عقد عليها بعد التحلل[6]، وكان الذي زوجه إياها العباس، زوج أختها أم الفضل، ولما مضى من دخوله ﷺ مكة ثلاثة أيام -وهي المدة التي قاضى قريشاً على الإقامة بها- أتوا علياً ﷺ فقالوا: قل لصاحبك: أخرج عنا فقد مضى الأجل[7]، فخرج النبي ﷺ، وبنى ﷺ بميمونة في طريقه إلى المدينة في مكان اسمه سرف؛ قرب التنعيم، ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة[8].

---

1 . هذه العمرة تصديق إلهي للنبي ﷺ وأصحابه؛ بدخول مكة والطواف بالبيت، قال الرسول ﷺ لعمر ﷺ: (فإنك آتيه ومطوّف به)؛ قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} الفتح 27.

2 . طبقات ابن سعد.

3 . انطوت العمرة على معنى تمهيدي للفتح الكبير الذي جاء من بعده، فقد كان لمرأى ذلك العدد الوفير من المهاجرين والأنصار وهم محدقون بالرسول ﷺ وأصحابه في طوافهم وسعيهم؛ في حماس ونشاط؛ فكان لذلك أثر بعيد في نفوس أعدائهم؛ فقد داخلتها الرهبة منهم؛ إذ فوجئوا بعكس ما كانوا يتصورون فيهم من الضعف؛ بسبب حمى يثرب وسوء مناخها؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ، وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ غَداً قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمُ الْحُمَّىَ، وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً، فَجَلَسُوا مِمَّا يَلِي الْحِجْرَ، وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلاَثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ، هَؤُلاَءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا) رواه مسلم في باب استحباب الرَّمل.

4 . استحباب الاضطباع والهرولة في طواف الأشواط الثلاثة الأولى؛ إتباعاً له ﷺ، وإنما يستحب ذلك في كل طواف يعقبه سعي؛ كما فعل ﷺ، والاضطباع هو: جعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفيه على منكبه الأيسر، والهرولة أيضاً عند الميلين الأخضرين في السعي، ولا تفعله المرأة.

5 . أي ليست سُنّة عامة.

6 . ذهب بعض الفقهاء إلى جواز عقد النكاح حالة الإحرام؛ اعتماداً على أنه ﷺ عقد على ميمونة وهو محرم؛ والجمهور لا يجوزون ذلك للمحرم؛ لا لنفسه ولا وكالة عن غيره مطلقاً، وذهبت الحنفية إلى أنه يحرم للمحرم أن يتولى عقد النكاح لغيره ممن لم يكن محرماً.

7 . البخاري: كتاب المغازي، باب عمرة القضاء.

8 . اعتمر ﷺ أربع عمرات، وحج حجة واحدة؛ فعن أنس ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ إِلاَّ الَّتِي مَعَ حَجَّتِهِ عُمْرَةً مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، أَوْ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنْ جِعْرَانَةَ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مَعَ حَجَّتِهِ) رواه مسلم كتاب الحج باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن.

غزوة مؤتة

كانت في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، ومؤتة قرية في الأردن، بجوار مدينة الكرك، وسببها مقتل الحارث بن عمير الأزدي ﷺ؛ وهو رسول النبي ﷺ إلى ملك بصرى، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فندب الناس للخروج إلى الشام، وسرعان ما اجتمع المسلمون في ثلاثة آلاف مقاتل؛ قد تهيأوا للخروج إلى مؤتة، ولم يخرج النبي ﷺ معهم، وبذلك تعلم أنها في الحقيقة ليست بغزوة ولكنها سرية؛ ولكن عامة علماء السيرة أطلقوا عليها اسم غزوة؛ لكثرة عدد المسلمين فيها، ولما كان لها من أهمية بالغة، وأمّر الرسول ﷺ زيد بن حارثة؛ وقال: (إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ)[1]، وقيل في رواية: (فإن قتل فليرتض[2] المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم)[3]، وأوصاهم ﷺ أن يدعوا من هناك إلى الإسلام؛ فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، قال ابن اسحاق: ودع الرسول ﷺ أصحابه المسلمين وأمراءهم عند خروجهم من المدينة، وفي تلك الأثناء بكى عبدالله بن رواحة؛ فقالوا: ما يبكيك؟ قال: أما والله ما بي حب للدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله تعالى يذكر فيها النار: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}[4]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟! وناداهم المسلمون وهم يسيرون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين؛ فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسألُ الرحمن مغفرةً	وضربة ذات فَرْغ تقذفُ الزبدا
أو طعنةً بيديْ حرانَ مجهزةً	بحربة تنفذُ الأحشاءَ والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي	أرشده الله من غاز وقد رشدا

ولما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم؛ فجمعوا لهم؛ جمع لهم هرقل أكثر من مائة ألف مقاتل من الروم، وجمع شرحبيل بن عمرو مائة ألف آخرين من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء، وسمع المسلمون بذلك فأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فشجعهم عبدالله بن رواحة، وقال لهم: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور أو شهادة.

---

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّأْمِ.

2 . مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أميرهم، إذا غاب أميرهم، أو وكل إليهم الخليفة اختيار من يرون، ومشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي ﷺ؛ وقال الطحاوي: (هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر).

3 . يجوز للخليفة أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط، وأن يولي المسلمين عدة أمراء بالترتيب كما فعل الرسول ﷺ؛ قال العلماء: (الصحيح أنه إذا أمر الخليفة بذلك فإن ولاية الكل تنعقد بوقت واحد في الحال، ولكنها لا تنفذ إلا مرتبة) فتح الباري 7/ 361 .

4 . مريم 71.

والتقى المسلمون بأعدائهم قبيل الكرك، وقد اجتمع منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والعتاد، فأخذ اللواء زيد بن حارثة ﵁، فقاتل وقاتل المسلمون معه حتى قتل طعناً بالرماح، ثم أخذ اللواء جعفر ﵁، فأبلى بلاء عظيماً حتى إذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها، ثم انطلق يشتد في قتال القوم، وهو يرتجز:

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها   عليّ إذ لاقيتها ضرابها

وظل يقاتل حتى قتل، ضـربه رجل من الروم فقده نصـفين، وعن ابن عمر: (أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَعْفَرٍ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ قَتِيلٌ فَعَدَدْتُ بِهِ خَمْسِـينَ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَـرْبَةٍ لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ يَعْنِي فِي ظَهْرِهِ)[1]، ثم أخذ اللواء ابن رواحة﵁ وانطلق يرتجز قائلاً:

أقسمت يا نفس لتنزلنه   لتنزلن أو لا لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدّوا الرنة   ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما كنت مطمئنة   هل أنت إلا نطفة في شنّة

ولم يزل يقاتل حتى قتل ﵁، ثم اتفق الناس على إمرة خالد بن الوليد، فأخذ اللواء وقاتل المشـركين حتى انهزموا[2]، فانحاز بجيشـه حينئذٍ عائداً إلى المدينة؛ عَنْ أَنَسٍ ﵁: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ؛ فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِـيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِـيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِـيبَ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَـيْفٌ مِنْ سُـيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ[3])[4]، فمن الخطأ القول: إن المسـلمين انهزموا وتفرقوا، وعادوا بعد ذلك إلى المدينة، ولعل المقصـود من الذين قالوا هذا، أن المسـلمين لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم، واكتفوا بانكشافهم عن مواقعهم، خوفاً على المسلمين، وانقلبوا عائدين إلى المدينة، ولا شك أنه تدبير حكيم من خالد بن الوليد ﵁؛ قال ابن حجر: (وقع في المغازي لموسـى بن عقبة - وهي أصح المغازي - قوله: ثم أخذه -يعني اللواء-عبد الله بن رواحة فقتل، ثم اصـطلح المسـلمون على خالد بن الوليد، فهزم الله العدو، وأظهر المسـلمين، قال ابن كثير: ويمكن الجمع بأن خالد حاز المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غيّر هيأة العسكر؛

---

[1] . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّأْمِ.

2 . يثير الدهشة أن عدد الأعداء خمسون ضعف من عدد المسلمين، والعدة والسلاح ومظاهر الأبهة مقابل القلة والفقر، وتجد المسـلمين مقبلين غير مدبرين، لا يقيمون للحشـود الهائلة وزناً، ويقتل أميرهم الأول ثم الثاني ثم الثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، حتى يدخل الرعب في أفئدة كثير من المشركين فينكشفون، وتزول الدهشة إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه، والعجيب أنه ليس للعدد والعدة حساب مع ذلك في أفكارهم، إلى جانب ما وعدهم الله به من نصر وتأييد، أو جنة ونعيم خالدين.

3 . سجّل النبي ﷺ فضلاً خاصاً لخالد بن الوليد ﵁؛ ووصفه بأنه سيف من سيوف الله، وتلك أول وقعة يحضرها في صف المسلمين، ولم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة؛ وقد أبلى بلاءً حسناً؛ فعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: (سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ يَقُولُ لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ فَمَا بَقِيَ فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَةٌ) رواه البخاري في باب غَزْوَةِ مُؤْتَةَ.

4 . البخاري: باب غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّأْمِ، وإخبار النبي ﷺعنهم من معجزاته، فقد زوى الله له الأرض، كما يدل على مدى شفقته على أصحابه، وبكائه ﷺ عليهم، ولا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره؛ فإن العين لتدمع والقلب ليحزن، وتلك رقة طبيعية ورحمة.

فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة؛ ليتوهم العدو أن مدداً قد جاء المسلمين، فحمل عليهم خالد فولّوا فلم يتبعوهم ورأى الرجوع بالمســلمين هي الغنيمة الكبرى)[1]، ولما دنوا إلى المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ ولقيهم الصبيان يسرعون، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر! فأتى بعبدالله فحمله بين يديه، وجعل الناس يصيحون بالجيش: يا فرار؛ فررتم في ســبيل الله، فيقول ﷺ: (ليســوا الفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله)[2].

---

[1] . فتح الباري 7/ 361.

2 . سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة: يا فرار؛ لأنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم، وتركوا الأرض التي قاتلوا فيها كما هي، ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات السابقة، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائداً إلى المدينة، ولكنه تدبير حكيم حفظاً للمسلمين وهيبتهم؛ ولذلك رد النبي ﷺ قائلاً: (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله).

فتح مكـة[1]

كان في رمضـــان ســـنة ثمان من الهجرة، والســـبب أن أناســـاً من بني بكر كلموا أشـــراف قريش في أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والســـلاح، وكانت خزاعة قد دخلت في عهد المسـلمين، فأجابوهم إلى ذلك، وخرج حشـدٌ من قريش متنكرين فيهم صـفوان بن أمية، وحويطب بن عبدالعزى ومكرز بن حفص، فالتقوا مع بني بكر في مكان يقال له: الوتير، وبيّتوا خزاعة ليلاً وهم مطمئنون آمنون، فقتلوا منهم عشـرين رجلاً، وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، فقدموا على الرسول ﷺ يخبرونه بما أصـابهم، فقام وهو يجر رداءه قائلاً: (لا نصـرت إن لم أنصـر بني كعب، مما أنصـر منه نفسـي)[2]، وقال: (إن هذا السـحاب ليسـتهل بنصـر بني كعب)، وندمت قريش على ما بَدَر منها، فأرسـلت أبا سـفيان إلى الرسـول ﷺ ليجدد الهدنة ويماددها، وقدم أبو سـفيان على رسـول الله ﷺ فكلّمه، فلم يرد عليه شـيئاً، فذهب إلى أبي بكر فكلّمـه أن يكلّم الرســـول ﷺ، فقـال: مـا أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلّمه، فقال: أأشـــفع لكم إلى رســـول الله ﷺ! فوالله لو لم أجد إلا الذر[3] لجاهدتكم به، وانطلق أبو سـفيان عائداً إلى مكة خائباً؛ وتجهز ﷺ وقد أخفى أمره، وقال:(اللهم خذ على أبصـار قريش؛ فلا يروني إلا بغتة).

ولمـا أجمع النبي ﷺ المســـير كتب حـاطب ابن أبي بلتعة إلى قريش يحذرهم من غارة عليهم من المسـلمين؛ قال علي رضي الله عنه: (بَعَثَنِي رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ؛ فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَـــةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً[4] مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوه مِنْهَا، قَالَ: فَـانْطَلَقْنَـا تَعَادَى[5] بِنَا خَيْلُنَا، حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَـــةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، قُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَـابَ، قَـالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ[6]، قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ

---

1 . أحداث الفتح العظيم يوضح حقيقة الدعوة، وأسرارها، وحكمتها الإلهية، وقيمة الهجرة، والتضحية بالأرض والوطن والمال والأهل في سبيل الإسلام، والجهاد والاستشهاد، والمحن، وأن شيئاً من ذلك لم يذهب بدداً، ولا دم ذهب هدراً، وكل ذلك كان ثمن حساب، دفع أقساطاً من ثمن النصر، وهي سنة الله في عباده، كما تتبين القيمة الكبرى لصلح الحديبية، ويظهر السر الإلهي وراء تسمية ذلك الصلح فتحاً، بقوله تعالى: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}- الفتح 18- فقد خرجوا تاركين كل شيء، ورجعوا إلى الأهل والوطن والمال، وقد أقبل بلال الحبشي ينادي بأعلى صوته: الله أكبر الله أكبر، وقد كان سابقاً يهمس همساً تحت أسواط العذاب: أحد أحد.

2 . إذا حارب أهل الهدنة من هم في ذمة المسلمين صاروا محاربين، ولم يبق عهد باتفاق، ومباشرة البعض لنقض العهد مباشرة للجميع، ما لم يبد الآخرون استنكاراً حقيقياً له؛ ولذلك اعتبر أهل مكة ناقضين لعهدهم ويجوز لإمام المسلمين أن يفاجئ العدو بالإغارة عليهم إذا نقضوا عهدهم، وأما إذا لم تقع الخيانة فلا يجوز أن يفاجئهم بحرب؛ قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}- الأنفال 58- أي: أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم.

3 . الذر: صغار النمل.

4 . ظعينة: امرأة.

5 . تعادى: تجري.

6 . هل يُحمل المتهم على الاعتراف بالجريمة كما فعل عليّ رضي الله عنه مع المرأة؟ وكما فعل ﷺ مع اليهود الذين غيبوا مسكاً – جلداً- فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، وكان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضـير، فقال رسـول الله ﷺ حينئذ لعم حيي: (ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسـول الله ﷺ إلى الزبير فمسّـه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك دخل خربة، فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة ها هنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة) -رواه البيهقي- ينسب بعضهم جواز هذا إلى الإمام مالك، وهو

مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ ابْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ؛ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لا تَعْجَلْ عَلَيَّ؛ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ- يَقُولُ كُنْتُ حَلِيفًا- وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا؛ يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}[1])[2]، واستخلف الرسول ﷺ على المدينة كلثوم بن حسين، وخرج يوم الأربعاء في العاشر من شهر رمضان بعد العصر، وأرسل النبي ﷺ إلى من حوله من العرب؛ أسلم وغفار ومزينة، وجهينة وغيرهم، فالتقى كلهم في الظهران[3]، وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف، ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً بسبب فشل أبي سفيان فيما جاء به إلى المدينة، ثم (خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ ابْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ؛ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا هَذِهِ لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ؛ فَقَالَ: بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ،

زعم باطل؛ فقد جاء في المدونة من رواية سحنون عن مالك: (قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ أَقَرَّ بِشَيْءٍ مِنْ الْحُدُودِ بَعْدَ التَّهْدِيدِ أَوْ الْقَيْدِ أَوْ الْوَعِيدِ أَوْ السِّجْنِ أَوْ الضَّرْبِ، أَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ أَمْ لا؟ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: مَنْ أَقَرَّ بَعْدَ التَّهْدِيدِ أُقِيلَ، فَالْوَعِيدُ وَالْقَيْدُ وَالسِّجْنُ وَالضَّرْبُ تَهْدِيدٌ كُلُّهُ وَأَرَى أَنْ يُقَالَ)، ثم قال: (قُلْتُ: فَإِنْ ضُرِبَ وَهُدِّدَ فَأَقَرَّ فَأَخْرَجَ الْقَتِيلَ، أَوْ أَخْرَجَ الْمَتَاعَ الَّذِي سُرِقَ، أَيُقِيمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ فِيمَا أَقَرَّ بِهِ أَمْ لا وَقَدْ أَخْرَجَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لا أُقِيمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ إلا أَنْ يُقِرَّ بِذَلِكَ آمِنًا لا يَخَافُ شَيْئًا)-المدونة 16/ 93- والحق الذي عليه الأئمة الأربعة أنه لا يجوز، فالمتهم بريء حتى تثبت جريمته؛ وخبر الضعينة ليس من هذا الباب لسببين:

الأول: أنها ليست تهمة، بل حقيقة، والوحي أقوى من الإقرار، ومثله يقال في مسك حيي.

الثاني: إلقاء الثياب ليس تعذيباً، وما ورد في تعذيب ابن الزبير لعم حيي فذلك من باب الحرابة.

هذا ولا يجوز للمسلمين في الظروف كافة أن يتخذوا أعداء الله أولياء يلقون إليهم بالمودة؛ ليكون المسلم نموذجاً للتضحية بالمال والنفس ولشهوات في سبيل الله، ولا يجوز للمسلم أيضاً أن يقيم علاقته على أساس الولاء للأهل والعشيرة فقط، دون حساب للدين والالتزام.

1 . الممتحنة 1.

2 . البخاري: كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الْفَتْحِ، وَمَا بَعَثَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وهذه القصة مظهر جديد للنبوة، وتأييد جديد؛ حتى يتم الأمر الإلهي للفتح العظيم.

3 . الظهران: مكان بين مكة والمدينة.

فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ)[1].

قال ابن اسحاق: يروى عن العباس تفصيل إيمان أبي سفيان؛ فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه الرسول ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، وقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك[2]، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما أراد الرسول ﷺ المسير مقبلاً إلى مكة؛ قال للعباس: احبس أبا سفيان بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها؛ قال: فخرجت حتى حبسته عند مضيق الوادي، حيث أمرني الرسول ﷺ أن أحبسه، ومرت القبائل عليها راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم فيقول: مالي ولسليم؟ وهكذا، حتى مرّ به الرسول ﷺ في كتيبة فيها المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس؛ من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار! قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة[3]، قال: فنعم إذن، ثم قال له العباس: النجاة إلى قومك! فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فأقبلت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه وهي تقول: اقتلوا الحَميت الدسم الأحمس[4]، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم! فقال: ويلكم لا تغرنكم هذه من نفوسكم؛ فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[5]، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن

---

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ.

2 . لا قيمة للإسلام إن لم يأت إلا بالتهديد؛ فهل آمن أبو سفيان خوفاً؟ ويزول الإشكال إذا عرفنا أنه ليس المطلوب من الكافر أول الأمر إلا الإسلام، ثم يربو الإيمان بعد ذلك، وبهذا يظهر الفرق بين الإسلام والإيمان؛ قال تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}- الحجرات 14- ولذلك لا يجوز لمسلم أثناء القتال أن يحمل إسلام أحد من الكفار على الخوف أو الطمع في الغنيمة، فالمطلوب إصلاح الظاهر، وليس الاستيلاء على القلوب.

3 . تظهر الحكمة الإلهية هنا؛ فليست الدعوة الإسلامية للزعامة والجاه، ولكنها النبوة.

4 . الحميت: السمين، الأحمس: الشجاع؛ فهي تتهكم به.

5 . كان سابقاً محرضاً على قتال المسلمين، ولم تخرج مكة لحربهم قبلاً إلا بإشرافه، والحكمة أن تفتح مكة بغير قتال، فينتزع من رأسه فكرة القتال؛ إضافة إلى تأليف قلبه؛ وإعلان داره أماناً لمن دخله؛ ريثما يستقر الإيمان في قلبه، ولقد غابت هذه الفكرة عن بعض الصحابة؛ فظنوا أنه ميل نحو بلدته وجماعته؛ إذ لما قَالَ ﷺ: (مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لاَ يَخْفَى عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ، فَلَمَّا انْقَضَى

دخل المسجد فهو آمن؛ فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وبلغ الرسول ﷺ أن سعد بن عبادة قال: (يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ)[1]، فلم يرض الرسول ﷺ بقوله هذا؛ وقال: (بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم الله الكعبة)، وأمر قادة جيوشه أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا ستة رجال وأربع نسوة، أمر بقتلهم حيثما وجدوا، وهم: عكرمة ابن أبي جهل، وهبّار بن الأسود، وعبدالله ابن أبي سرح، ومقيس بن صبابة الليثي، والحويرث بن نُقيذ، وعبدالله بن هلال، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن هشام، وفَرتنى وقرينة[2]، ودخل النَّبِيُّ ﷺ مكة من أعلاها – كداء- وأمر[3] خالد بن الوليد أن يدخل بمن معه من أسفلها- كدي- فدخل المسلمون مكة من حيث أمرهم الرسول ﷺ، ولم يجد أحد منهم مقاومة، إلا خالد بن الوليد فقد لقيه جمع من المشركين فيهم عكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن أمية، فقاتلهم خالد فقتل منهم أربعة وعشرين من قريش، وأربعة نفر من هذيل، ورأى الرسول ﷺ بارقة السيوف من بعيد، فأنكر ذلك، فقيل له: إنه خالد قوتل فقاتل؛ فقال: (قضاء الله خير)[4].

عن أنس أن رسول الله ﷺ لما انطوى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً[5] بشقة بردة حَبِرَة، وإن الرسول ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح؛ حتى إن عُثْنونه[6] ليكاد يمس واسطة الرحل، وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: (سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرَجِّعُ[7]، وَقَالَ: لَوْلا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ)[8]، عَنْ عَبْدِ اللهِ

الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، قَالُوا: لَبَّيْكَ، يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ، قَالَ: كَلاَّ، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ! مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلاَّ الضَّنَّ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب فتح مكَّة.

1 . البخاري: المغازي، باب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ.

2 . جاريتان كانتا تغنيان بهجاء النَّبِيُّ ﷺ.

3 . يظهر هنا التدبير الحكيم لرسول الله ﷺ؛ إذ أمر أصحابه أن يتفرقوا في مداخل مكة؛ بغية تفويت فرصة المقاومة؛ إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم، وتبديد قواهم في أطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة، وإنما فعل ﷺ ذلك حقناً للدماء ما أمكن، وحفظاً لمعنى الأمن في البلدة الحرام.

4 . هل فتحت مكة عنوة أم صلحاً؟ اختلف العلماء في ذلك؛ فذهب الشافعي وأحمد إلى أنه ﷺ دخلها صلحاً؛ وكان الممثل لقريش في هذا الصلح أبا سفيان، وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه دخلها عنوة؛ لأنه ﷺ دخلها بالسلاح، واتفق الجميع على أنه لم يغنم منها شيئاً، وفسّر ذلك بأن أملاك مكة وقف؛ ولهذا ذهب بعض العلماء ومنهم الحنفية إلى حرمة بيع أرض مكة.

5 . معتجراً: متعمماً.

6 . عُثْنونه: طرف لحيته.

7 . مشروعية الترجيع؛ وهو كيفية يترنم بها القارئ بقراءة القرآن، وهو الحق الذي عليه جمهور العلماء، وأما روي من النهي عن التطريب والتغني في القرآن فمحمول على الذي يطغى على سلامة الأداء، ويذهب بالحروف عن مخارجها؛ إذ هذه التلاوة غير جائزة باتفاق، ويدل الترجيع هنا على أنه ﷺ كان مستغرقاً في حالة شهود مع الله تعالى؛ فما كانت لنشوة النصر إلى نفسه من سبيل، إنما هو الشكر على نصره وتأييده، والخضوع بين يديه، وهو يقطف ثمرة دعوته وصبره، وكيف أعاده الله إلى البلد التي أخرجته عزيزاً منصوراً مكرماً! وهكذا يجب أن تكون حال المسلمين دائماً؛ عبودية في السراء والضراء، ولا ينبغي أن يتظاهروا بالذل لله كلما حاقت بهم مصيبة، حتى إذا انكشف الكرب مرّوا ساهين؛ كأن لم يتذللوا إليه في كشف ضر مسّهم.

8 . البخاري: كتاب المغازي، باب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ.

قَالَ:(دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُباً، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ[1]، وَيَقُولُ: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[2]، {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[3])[4]، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الْآلِهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ[5] فِي أَيْدِيهِمَا مِنْ الأَزْلامِ، فَقَالَ ﷺ: قَاتَلَهُمْ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ، وَخَرَجَ ﷺ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ)[6]، وكان قد أمر عثمان بن طلحة - وهو من حَجَبَة البيت- أن يأتيه بالمفتاح، فجاءه به ففتح البيت، ثم دخل النبي ﷺ البيت، ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة، فدفع إليه

---

1 . تكسير الأصنام مظهر لنصر الله لرسوله؛ إذ كان يطعن تلك الآلهة المزيفة، وكل صنم منها كان ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً! وقد قلب الله جبروت قريش خضـــوعاً له وذلاً، وجعل مكة كلها تدين للدين الذي جاء به وتذعن للحق الذي نادى به.

2 . الإسراء 81.

3 . سبأ 49.

4 . متفق عليه: البخاري كتاب التفسير، ومسلم كتاب الجهاد والسير.

5 . **حكم التصـــوير واتخاذ الصـــور:** عنْ جَابِرٍ: (أَنّ النّبيّ ﷺ أَمَرَ عُمَرَ بنَ الْخَطّابِ زَمَنَ الْفَتْحِ وَهُوَ بالْبَطْحَاءِ أَنْ يَأْتِيَ الْكَعْبَةَ فَيَمْحُوَ كُلّ صُـورَةٍ فيهَا، فَلَمْ يَدْخُلْهَا النّبيّ ﷺ حَتّى مُحِيَتْ كُلّ صُـورَةٍ فِيهَا) -رواه أبو داود في اللباس- وقد روي عن أسامة (أنه ﷺ دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها) -رواه الطبراني- وهذه الأحاديث في مجموعها تدل على أنه ﷺ أمر بالرسـوم فمحيت، كما أمر بالصـور المجسـمة القائمة في جوفها فأخرجت، وهذا يدل بوضوح على حكم الإسلام في حق التصوير والصور؛ قال النووي -في شرح مسلم 81/14-: (قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد الحرمة، وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره، فصنعته حرام على كل حال؛ لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو حائط أو غيرها، أما تصوير الشجر وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم التصــوير، وأما حكم اتخاذ المصوّر فيه صـورة حيوان فإن كان معلقاً على حائط أو ثوباً ملبوسـاً أو عمامة ونحو ذلك مما لا يعد ممتهناً فحرام، وإن كان في بســاط يداس ومخدة ووســادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام....ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له، هذا تلخيص مذهبنا في هذه المســألة، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم، وقال بعضـهم: إنما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصورة التي ليس لها ظل، وهذا مذهب باطل؛ فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصور فيه؛ لا يشك أحد أنه مذموم، وليس لصورته ظل، مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة....وأجمعوا على منع ما كان له ظل، ووجوب تغييره، قال القاضي إلا ما ورد في لُعب البنات؛ ففي ذلك رخصـة)؛ ويستشكل الناس في حكم الصـور الفوتوغرافية اليوم؛ وقد فهم بعضـهم أن التصوير الفوتوغرافي ليس في حكم الرسم باليد؛ إذ لا يقوم على أي مهارة في الصــنعة أو اليد؛ بحيث تتجلى فيها محاولة المضــاهاة بخلق الله تعالى؛ فهو يقوم على تحريك بسـيط لناحية معينة في جهاز التصوير، يتسبب عنه انحباس الظل في داخله بواسطة أحماض معينة؛ وهي حركة بسيطة يستطيع أن يقوم بها أي طفل صـــغير، وقيل: لا ينبغي تكلف أي فرق بين أنواع التصـــوير المختلفة حيطة في الأمر، ونظراً لإطلاق لفظ الحديث، ومهما يكن فإن لنوع الصـــور أثراً في الحكم على التصـــوير واتخاذه، فإن كان الشـــيء المصـــوّر من قبيل المحرمات كصور النساء فهو محرم، وإن كان مما تدعو المصلحة والحاجة إلى تصويره فربما كانت في ذلك رخصة، وبعضـــهم يعجب كيف يكون التصـــوير محرماً في الإســـلام، مع أنهما يعدان من المقومات الفنية الكبرى لدى الأمم المتحضـــرة؟ وهم يتوهمون أن الإســـلام متفق مع هذه الحضـــارة الغربية وإنما يخالفها في هذه المظاهر الجزئية، والصواب أن للإسلام منطلقاً حضارياً آخر مستقلاً بذاته، وللفن في الحكم الإسلامي مضمون آخر غير هذا المضمون الذي تلقيناه من فلسفة أخرى لا شأن لها بعقيدتنا.

6 . رواه البخاري في كتاب المغازي باب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْكَعْبَةَ، هُوَ وَأُسَـامَةُ وَبِلاَلٌ وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ الْحَجَبِيُّ، فَأَغْلَقَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ مَكَثَ فِيهَا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَسَـأَلْتُ بِلاَلاً حِينَ خَرَجَ: مَا صَـنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: جَعَلَ عَمُودَيْنِ عَنْ يَسَـارِهِ، وَعَمُوداً عَنْ يَمِينِهِ، وَثَلاَثَةَ أَعْمِدَةٍ وَرَاءهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ يَوْمَئِذٍ عَلَىَ سِـتَّةِ أَعْمِدَةٍ، ثُمَّ صَـلَّىَ)- رواه مسـلم في كتاب الحج- قال العلماء: لا تعارض بين الحديثين؛ وذلك لأن ابن عباس - وهو راوي حديث عدم الصلاة - لم يكن مع رسول الله ﷺ داخل الكعبة، وإنما أسند نفي الصلاة - كما يقول ابن

المفتاح[1]، وقال: خذوها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم- أي حجابة البيت- ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم، يشير بذلك إلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}[2]، وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة، وأقبل الناس كلهم يدخلون في دين الله أفواجاً، قال ابن اسحاق: وأمسك النبي ﷺ بعضادتي باب الكعبة، وقد اجتمع الناس من حوله ما يعلمون ماذا يفعل بهم، فخطب فيهم قائلاً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، وتلا قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[3]، ثم قال: يا معشر قريش: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ: (أَنَّهُ ﷺ قَالَ فيما خاطب به الناس يَوْمَ الْفَتْحِ: إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ؛ لا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)[4].

ثم اجتمع الناس بمكة لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة؛ لِما كان من صنيعها بحمزة رضي الله عنه؛ فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال: بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال، وسنؤتيكه، قال: ولا تسرقن، فقالت: والله إن كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول-: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك، ثم قال: ولا تزنين، فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة! قال:

حجر- تارة إلى أسامة وتارة إلى أخيه الفضل، على أن الفضل أيضاً لم يكن معهم في الكعبة، أما بلال وهو الذي نقل ثبوت الصلاة فقد كان مع النبي ﷺ؛ وبناءً على هذا ينبغي أن يقدم حديث ابن عمر لسببين:

الأول: أنه مثبت، فمعه زيادة علم، والمثبت مقدم على النافي.

الثاني: أن رواية بلال عن تثبتٍ ومشاهدة؛ لأنه كان معه ﷺ داخل الكعبة، أما رواية ابن عباس فهي نقل لا مشاهدة؛ قال النووي: أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال؛ لأنه مثبت فمعه زيادة علم فواجب ترجيحه، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة تصح في داخل الكعبة إذا اتجه المصلى إلى أحد جدرانها، سواء في النافلة والفريضة، وصحح مالك النفل المطلق دون الفرض والرواتب.

1 . أعاد ﷺ مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة وقال له: (لا ينزعها منكم إلا ظالم)؛ وقد ذهب عامة العلماء إلى أنه لا يجوز انتزاعها؛ فهي ولاية لهم عليها منه ﷺ فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبداً، ما داموا موجودين صالحين، ولا تزال إلى اليوم في أيديهم.

2 . النساء 58.

3 . الحجرات 13.

4 . متفق عليه: البخاري كتاب المغازي، ومسلم كتاب الحج.

ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كباراً، فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرق، ثم قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل، قال: ولا تعصينني في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم، فبايعهن عمر.

وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء[1]، ولا يمس امرأة، ولا تمسه، إلا امرأة أحلها الله له[2]؛ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَايِعُ النِّسَاءَ بِالْكَلامِ بِهَذِهِ الآيَةِ {لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا}[3] قَالَتْ: وَمَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ إِلا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا)[4].

وأجارت أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنها رجلاً من المشركين، وكان علي ؓ يريد قتله؛ قالت: (ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ، وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ أَنَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلانَ بْنَ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ)[5].

وأما أولئك النفر الذين كان رسول الله ﷺ قد هدر دمهم فقد قتل بعضهم وأسلم الآخرون، قتل الحويرث، وعبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وقتلت إحدى الجاريتين، وأسلمت الأخرى، وشُفع في عبدالله بن أبي سرح وحسن إسلامه، وأسلم عكرمة، وهبار، وهند بنت عتبة.

روى ابْنُ هِشَامٍ أَنّ فَضَالَةَ بْن عُمَيْرِ بْنِ الْمُلَوّحِ اللّيْثِيّ أَرَادَ قَتْلَ النّبِيّ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عَامَ الْفَتْحِ[6]، فَلَمّا دَنَا مِنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَضَالَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَضَالَةُ يَا رَسُولَ

---

1 . بيعة النساء وما يتعلق بها من أحكام: نأخذ منها ما يلي:

أولاً: اشتراك المرأة مع الرجل ـ على أساس المساواة التامة ـ في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم، وعلى الخليفة أن يأخذ عليهنّ العهد بالعمل على إقامة المجتمع المسلم، بكل الوسائل المشروعة الممكنة، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال بلا فرق، ومن هنا كان عليها أن تتعلم شؤون دينها كما يتعلم الرجل والتسلح بسلاح الوعي؛ حتى تستطيع أن تنفذ عقد البيعة الذي في عنقها، وتتنبه إلى أساليب الكيد الأجنبي من حولها.

ثانياً: كانت بيعة النساء بالكلام فقط من غير أخذ الكف، وذلك على خلاف بيعة الرجال، فدلّ على أنه لا يجوز ملامسة الرجل بشرة امرأة أجنبية عنه، ولا خلاف للعلماء فيه؛ اللهم إلا أن تدعو ضرورة لذلك كتطبيب ونحو ذلك، وليس من الضروري شيوع العرف بمصافحة النساء، كما قد يتوهم البعض، فليس للعرف سلطان في تغيير الأحكام الثابتة.

ثالثاً: كلام الأجنبية مباح سماعه عند الحاجة، وأن صوتها ليس بعورة، وهو مذهب جمهور الفقهاء، وذهب بعض الحنفية إلى أن صوتها عورة للأجنبي؛ وهم محجوجون بالبيعة.

2 . رواه ابن اسحاق وابن جرير.

3 . الصف 12.

4 . البخاري: كتاب الأحكام، باب بَيْعَةِ النِّسَاءِ.

5 . متفق عليه: البخاري كِتَاب الصَّلاةِ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

6 . من أحكام الحرم المكي:

أولاً: حرمة القتال فيه: قال العلماء لا يجوز القتال في مكة وما يتبعها من الحرم؛ ووفقوا بين النصوص التي تأمر بقتال المشركين والبغاة؛ فقالوا: أما المشركون فقتالهم جائز؛ لأنه اتفق الأئمة أنه لا يجوز شرعاً تمكين أحد يدين بغير الإسلام

اللهِ قَالَ: مَاذَا كُنْت تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَك؟ قَالَ: لا شَيْءَ كُنْت أَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيّ ﷺ، ثُمّ قَالَ اسْتَغْفِرْ اللهَ، ثُمّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَسَكَنَ قَلْبُهُ، فَكَانَ فَضَالَةُ يَقُولُ: وَاَللهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتّى مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ شَيْءٌ أَحَبّ إلَيّ مِنْهُ، قَالَ فَضَالَةُ: فَرَجَعْت إلَى أَهْلِي فَمَرَرْت بِامْرَأَةِ كُنْت أَتَحَدّثُ إلَيْهَا، فَقَالَتْ: هَلُمّ إلَى الْحَدِيثِ فَقُلْت: لا، وَانْبَعَثَ فَضَالَةُ يَقُولُ:

قَالَتْ هَلُمّ إلَى الْحَدِيثِ فَقُلْت لا ... يَأْبَى عَلَيْك اللهُ وَالإِسْلامُ
لَوْمَا رَأَيْتِ مُحَمّدًا وَقَبِيلَهُ ... بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسّرَ الأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِينَ اللهِ أَضْحَى بَيّنًا ... وَالشّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلامُ

وأقام ﷺ في مكة تسعة عشر يوماً؛ فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (أَقَمْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ تِسْعَ عَشْرَةَ نَقْصُرُ الصَّلاةَ)[1].

من الاستيطان بمكة؛ لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} -التوبة 28- وأما البغاة على الإمام فيُقَاتَلُونَ عَلَى بَغْيِهِمْ إِذَا لَمْ يُمْكِن رَدّهمْ عَنْ الْبَغْي إلا بِالْقِتَالِ؛ لأَنَّ قِتَال الْبُغَاة مِنْ حُقُوق اللهِ الَّتِي لا يَجُوز إِضَاعَتهَا فَحِفْظهَا أَوْلَى فِي الْحَرَم مِنْ إِضَاعَتهَا؛ قال النووي -في شرح مسلم 124/9-: (هذا الذي نقل عن الجمهور هو الصواب، وقد نص عليه الشافعي في كتاب اختلاف الحديث من كتاب الأم)؛ وأجاب الشافعي حديث منع القتال مطلقاً؛ فقال: تَحْرِيم نَصْب الْقِتَال عَلَيْهِمْ، وَقِتَالهمْ بِمَا يَعُمّ كَالْمَنْجَنِيقِ وَغَيْره إِذَا أَمْكَنَ إِصْلاح الْحَال بِدُونِ ذَلِكَ، بِخِلافِ مَا إِذَا تَحَصَّنَ الْكُفَّار فِي بَلَد آخَر، فَإِنَّهُ يَجُوز قِتَالهمْ عَلَى كُلّ وَجْه وَبِكُلِّ شَيْء، وذهب بعض الفقهاء إلى أنه يحرم قتال البغاة بل يضيق عليهم في كل الوجوه حتى يضطروا إلى الخروج من الحرم أو الرجوع إلى الطاعة - الأحكام السلطانية للماوردي 166- وأما إقامة الحدود فقد ذهب الإمام مالك والشافعي إلى أن الحدود تقام فيه؛ لحديث: (إِنَّ الْحَرَمَ لَا يُعِيذُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ وَلَا فَارًّا بِخُرْبَةٍ) -البخاري باب لَا يُعْضَدُ شَجَرُ الْحَرَمِ- وذهب أبو حنيفة - ورواية أحمد - إلى أنه آمن ما دام في الحرم، ولكن يُضيّق عليه ويضطر إلى الخروج منه، حتى إذا خرج استوفى منه الحد؛ ودليل هؤلاء عموم الحدي ؛ قال الزركشي: (فوجه الخصوصية إذن للحرم المكي أن الكفار والبغاة لو تحصنوا بغير مكة من البلدان الأخرى جاز نصب حرب عامة شاملة عليهم، على أي وجه وبأي شكل تقتضيه المصلحة، ولكنهم لو تحصنوا بها لم يجز قتالهم على ذلك الوجه)؛ وقد تعهد الله تعالى بأن يكون هذا الحرم موئلاً ومثابة للمسلمين وحدهم.

ثانياً: تحريم صيده: لقوله ﷺ:(لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ) -رواه البخاري في أبواب المحصر- فإذا حرم التنفير فالإتلاف أولى؛ فإن أصاب صيداً فيه وجب عليه إرساله، وإن تلف في يده ضمنه بالجزاء كالمحرم، ويستثنى من عموم الحيوانات خمسة أصناف؛ قال ﷺ: (خَمْسُ فَوَاسِقَ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلّ وَالْحَرَمِ الْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ) -رواه النسائي في باب ما يقتل في الحرم من الدواب- وقد قاس عليها العلماء ما يشاركها في صفة الإيذاء من الحيوانات الأخرى كالحية والسباع الضارية.

ثالثاً: تحريم قطع شيء من نباته: ودليله قوله ﷺ:(لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ) -رواه البخاري في أبواب المحصر- وضابط ذلك قطع كل نبات أنبته الله تعالى، دون أن يغرسه أحد من الناس ما دام رطباً، فلا يحرم ما غرسه الآدميون، واستثنى الجمهور من عموم النباتات ما كان مؤذياً منها قياساً على الفواسق، فهو من قبيل تخصيص النص بالقياس.

رابعاً: وجوب دخوله محرماً: فمن قصد مكة وكان ممن لا يتكرر دخوله كالتجار فإن عليه أن لا يدخل إلا محرماً بحج أو عمرة، وقد اختلف العلماء هل يتعلق الطلب بذلك وجوباً أم ندباً؟ والمشهور عن الأئمة الثلاثة أن الطلب على سبيل الوجوب، وذهب جمهور الشافعية إلى أنه على سبيل الندب، وسبب الخلاف أن النبي ﷺ حينما دخل مكة يوم الفتح لم يكن محرماً؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ) -رواه مسلم في باب جواز دخول مكَّة بغير إحرام- فالذين قالوا إن الإحرام مندوب استدلوا بهذا الحديث، والذين صححوا الوجوب قالوا: إن النبي ﷺ دخل خائفاً من غدر الكفار فكان متهيأ لقتال من سيقاتله منهم، وهي من الحالات التي تستثنى من عموم حالات الوجوب.

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ زَمَنَ الْفَتْحِ.

غزوة حنين

كانت في شـوال سـنة ثمان من الهجرة، وسـببها أنه بعد فتح مكة توغرت صـدور هوازن وثقيف على المسلمين، فحشـدوا حشـوداً كبيرة، وجمع أمرهم مالك بن عوف سـيّد هوازن، فجاؤوا بأموالهم ونسـائهم وأبنائهم، حتى نزلوا بأوطاس[1]، وإنما أمرهم بذلك حتى يجد كل منهم ما يحبسـه عن الفرار، وهو الدفاع عن الأهل والمال والولد! وأجمعوا المسـير إلى الرسـول ﷺ، فخرج إليهم ﷺ في اثني عشـر ألفاً من المسلمين؛ عشـرة آلاف من أهل المدينة وألفان من أهل مكة، وبعث الرسـول ﷺ عَبْدَاللهِ أَبِي حَدْرَدٍ الأَسْـلَمِيّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي النّاسِ[2]، فَيُقِيمَ فِيهِمْ حَتّى يَعْلَمَ عِلْمَهُمْ ثُمّ يَـأْتِيَـهُ بِخَبَرِهِمْ، فَـانْطَلَقَ فَـأَقَامَ فِيهِمْ ثم جـاءه بخبرهم، وكـان قد ذكر لرسـول الله ﷺ أن عند صـفوان بن أمية أدراعاً وأسـلحة، فأرسـل إليه - وهو يومئذ مشـرك - فطلب منه الدروع والأسلحة[3]، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟! قال: بل عارية، وهي مضمونة حتى نؤديها إليك، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السـلاح، وعلم مالك بن عوف بمقدم الرسول ﷺ فعبأ أصحابه في وادي حنين، وانتشروا يكمنون في أنحائه، وأوعز إليهم أن يحملوا على محمد وأصـحابه حملة واحدة، ووصـل المسـلمون إلى وادي حنين، فانحدروا فيه في غبش الصـبح، فما راعهم إلا الكتائب خرجت إليهم من مضـايق الوادي وشُـعَبه، وقد حملوا حملة واحدة على المسـلمين، فانكشـفت الخيول، وانشـمر الناس راجعين[4]؛ لا يلوي أحد منهم على الآخر، وانحاز الرسـول ﷺ؛ فعن العباس رضي الله عنه قال: (شَـهِدْتُ مَعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا، وَأَبُو سُـفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُـولَ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَـاءَ، أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْـلِمُونَ وَالْكُفَّارُ، وَلَّى الْمُسْـلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "أَيْ عَبَّاسُ! نَادِ أَصْـحَابَ السَّـمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ -وَكَانَ

---

1 . مكان بين مكة والطائف.

2 . بث العيون بين الأعداء لمعرفة شأنهم وأخبارهم عمل جائز بلا خلاف بل هو واجب عند الحاجة.

3 . الاستعانة بالكفار تنقسم إلى نوعين؛ الأول الاستعانة بالأشخاص منهم للقتال مع المسلمين، وهو جائز إذا دعت الحاجة إليه واطمأن المسلمون إلى صدقهم وأمانتهم، والنوع الثاني الاستعانة ببعض ممتلكاتهم كالسلاح وأنواع العدة؛ وهو جائز بشرط أن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين، وأن لا يتسبب في دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم، أو تركهم لبعض واجباتهم الدينية.

4 . تعتبر دروس غزوة حنين متممة لدروس غزوة بدر؛ فالقلة الصابرة لا تضرهم شيئاً، والكثرة لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين، فتلك الجماهير التي لم يتغلغل معنى الإسلام بعد في أعماق أفئدتها لم تفدهم شيئاً، بل أدبرت متفرقة في متاهات وادي حنين، وحين كرّ الصادقون وهم يلتفون حول الرسول ﷺ ثبتوا وانتصروا، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين! قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَـيْئاً وَضَـاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} التوبة 25-27.

رَجُلاً صَيِّتاً-: فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ[1]؟ قَالَ: فَوَاللهِ لَكَأَنْ عَطْفَتَهُمْ، حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي، عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ! يَا لَبَّيْكَ! قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! فنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ، كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ[2]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا، وَرَبِّ مُحَمَّدٍ)[3]، وقذف الله في قلوب المشركين الرعب، فانهزموا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فما رجع الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي الرسول ﷺ، فقال ﷺ: (مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً، لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، فَلَهُ سَلَبُهُ)[4]، عن أنس ﷺ قال: لقد استلب أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلاً وحده؛ هو قتلهم، وروى ابن اسحاق أن الرسول ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة، فقال لها الرسول ﷺ: أم سليم! قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل؛ فقال رسول الله ﷺ: أويكفي الله يا أم سليم؟- وكان معها خنجر- فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به[5].

وعن رَبَاح بنِ رَبِيعٍ قال: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ فَرَأى النّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ، فَبَعَثَ رَجُلاً فقالَ: انْظُرْ عَلَى مَا اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ، فَجَاءَ فقال: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ، فقالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ[6]، قال: وَعَلَى المُقَدّمَةِ خَالِدُ بنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلاً فقال: قُلْ لِخَالِدٍ: لاَ تَقْتُلَنّ امْرَأَةً وَلا عَسِيفاً)[7]، وفرّ مالك بن عوف ومن معه إلى الطائف،

---

1 . السمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان.

2 . هذه هي الشجاعة التامة، وقد انكشف جيشه عنه، وهو على بغلته؛ يركضها إلى وجوههم، وليست سريعة الجري، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه.

3 . مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.

4 . رواه البخاري -كتاب الأحكام- ومسلم -كتاب الجهاد - واختلف العلماء في نوع هذا الحكم؛ هل هو من أحكام الإمام أم الفتوى؟ فذهب الشافعي إلى أنه قائم على الفتوى؛ فالمجاهد له في كل عصر أن يأخذ سلب من قتل، ولا حاجة إلى إذن الإمام، وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه حكم قضائي قائم على أساس الإمامة، فيتوقف على إذن الإمام.انظر الأحكام للقرافي 38.

5 . خروج المرأة لسقى العطاش ومداواة الجرحى جائز؛ وأما خروجها للقتال فلم يثبت؛ وإن كان فب البخاري (باب غزو النساء وقتالهنّ مع الرجال)؛ إذ أحاديث الباب ليس فيها ما يدل عليه؛ كما قال ابن حجر -فتح الباري 51/6- أما ما ذكره الفقهاء في حكم خروج المرأة للقتال فهو إن داهم العدو بلدة من بلاد المسلمين وجب على جميع أهلها الخروج لقتاله بما فيهم النساء، إن تأملنا منهنّ دفاعاً، وإلا فلا يشرع ذلك - مغني المحتاج 219/4- أما الخنجر الذي كان مع أم سليم فقد كان لمجرد الدفاع عن نفسها، وعلى هذا ينزل ما روي (عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ) -البخاري في باب جِهَادِ النِّسَاءِ- فالمقصود بالجهاد الذي استأذنت به إنما هو المشاركة في القتال، لا الحضور للمداواة والخدمة وما أشبه ذلك؛ فهو مشروع إذا توافرت شروطه باتفاق؛ ومن شروطه أن تكون في حالة تامة من الستر والصيانة، وأن يكون خروجها لحاجة حقيقية، ومن المكر القبيح التقاط ما قد يطلب من الفتاوى بعد أن يشذبوا منها القيود حتى تخرج موافقة للمطلوب خاضعة للأهواء.

6 . اتفق العلماء على تحريم قتل النساء والأطفال والأجراء والعبيد في الجهاد، ويستثنى منه إذا اشتركوا في القتال، وباشروا في مقاتلة المسلمين؛ فإنهم يقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين، كما أنه يستثنى ما إذا تترس الكافر بصبيانه ونسائه، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم فإن ذلك جائز، وعلى الإمام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة .انظر مغني المحتاج 223/4.

7 . أبو داود: كتاب الجهاد، باب في قتل النساء.

وتركوا وراءهم مغانم كثيرة، وأمر الرسـول ﷺ بالغنائم فحبسـت كلها في الجِعْرَانَةِ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، واتجه ﷺ إلى الطائف فحاصروها، وأخذت تقذف المسلمين بالنبال، فقتل بذلك ناس منهم، وظل الرسول ﷺ في حصاره للطائف بضعة عشر يوماً، وقيل بضعة وعشرين يوماً، ثم بدا له أن يرتحل، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: (لَمَّا حَاصَـرَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَـيْئًا قَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ، فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ؛ وَقَالُوا: نَذْهَبُ وَلا نَفْتَحُهُ، -وَقَالَ مَرَّةً: نَقْفُلُ - فَقَالَ: اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ، فَقَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَأَعْجَبَهُمْ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ)[1]، ولما قفل ﷺ عائداً قال لأصحابه: قولوا: (آيبُونَ تائبونَ عابدونَ لربنا حامدونَ)، وعن جَابِرٍ قَالَ: (قَالُوا يَا رَسُـولَ اللهِ أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفاً[2])[3]، وقد هدى الله ثقيفاً بعد ذلك بقليل، فقد جاء وفدهم إلى رسـول الله ﷺ بالمدينة لإعلان إسلامهم.

أمر الغنائم وكيفية تقسيم رسول الله ﷺ لها: عاد الرسول الله ﷺ إلى الجعرانة وفيها السبي والغنائم، التي أخذت من هوازن؛ فقسّم السبي هناك، ثم قدم عليه وفد هوازن من المسلمين، (فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْـدَقُهُ؛ فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْمَالَ وَإِمَّا السَّـبْيَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ[4]بِكُمْ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنْ الطَّائِفِ[5]، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَـبْيَنَا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَـبْيَهُمْ؛ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ، حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ، فَقَالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ، قَالَ: إِنَّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ، فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا)[6]، فأعيد إلى هوازن سبيها، وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال لهم: أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فأخبر مالك بذلك، فجاء

---

1 . متفق عليه: البخاري كِتَاب الْمَغَازِي ، مسلم كتاب الجهاد والسير.

2 . الجهاد لا يعني الحقد على الكافرين؛ ولذلك لم يدع الرسول ﷺ على ثقيف، ودعا لهم بالهداية والصلاح؛ وهذا يعني أن الجهاد ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسؤولية الناس جميعاً تجاه بعضهم؛ لمحاولة إعتاق أنفسهم من العذاب الأبدي يوم القيامة.

3 . الترمذي: كتاب المَنَاقِبِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، باب مناقب في ثَقِيفٍ وَبَنِي حَنِيفَةَ.

4 . أي أخرت قسم السبي والغنائم آملاً إسلامكم.

5 . أخَّر ﷺ تقسيم الغنائم آملاً بإسلام هوازن، وهو دليل على أن الجند إنما يملكون الغنائم بعد تقسيم الحاكم لها، ومهما دامت قبل القسمة فلا تعتبر ملكاً للمقاتلين، ويدل على أن للإمام أن يعيد الغنائم إذا جاءه أصحابها مسلمين؛ إذا لم يكن قد قسمها بين الجند، وما قسم من الأموال لا يجوز للإمام أن يسترد منه شيئاً، إلا بطيب نفس من أصحابه، دون أن يتأثر بأي جبر أو إكراه، وتلك هي العدالة والمساواة الحقيقية الرائعة.

6 . البخاري: كِتَاب الْعِتْقِ، باب مَنْ مَلَكَ مِنْ الْعَرَبِ رَقِيقًا فَوَهَبَ وَبَاعَ وَجَامَعَ وَفَدَى وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ.

يلحق برسول الله ﷺ حتى أدركه فيما بين الجِعْرَانَةِ ومكة، فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، وخصّ الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم[1] - وهم أهل مكة - بمزيد من الغنائم، والأعطيات يتألف قلوبهم على الإسلام، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك، (فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ)[2]، فبلغ ذلك الرسول ﷺ فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان أعد لهم، ولم يدع معهم أحد غيرهم، (فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا[3]، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ)[4]، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم[5]، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً ونصيباً.

وتبعه ﷺ ناس من الأعراب يسألونه مزيداً من العطاء؛ فعن جُبَيْر بْن مُطْعِمٍ: (أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا)[6]، وقال: (أَيّهَا النّاسُ إِنّهُ لَيْسَ لِي منْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلاَ هَذَا، وَرَفَعَ إِصْبَعَيْهِ إلاّ الْخُمُسَ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُم)[7]، وأدركه أعرابي فجذبه ﷺ جذبة شديدة من برده، وكان

1 . اختص ﷺ أهل مكة الذين أسلموا بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين، وهذا ﷺ من أهم الأدلة على أنه يجوز للإمام أن يزيد في عطاء مَن يتألف قلوبهم على الإسلام، بالقدر الذي تدعو إليه المصلحة من تألف قلوبهم، بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه، ولا مانع من أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم، وكان لهؤلاء سهم من الزكاة.

2 . البخاري: كِتَاب الْمَغَازِي، باب غَزْوَةِ الطَّائِفِ.

3 . في روايه أنه قال: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلاً فواسيناك، فصاحوا: بل المنّ علينا لله ورسوله).

4 . البخاري: كِتَاب الْمَغَازِي، باب غَزْوَةِ الطَّائِفِ.

5 . أراد الشيطان أن يبث في نفوس جماعة من الأنصار معنى النقد على السياسة التي اتبعها ﷺ في توزيع الغنائم، فكان الخطاب الذي ألقاه عليهم جواباً على هذه الوساوس؛ ليفيض بمعاني الرقة والذوق الرفيع، ومشاعر المحبة الشديدة للأنصار، وهو يفيض بدلائل التألم من أن يتهم من قبل أحب الناس إليه بنسيانهم والإعراض عنهم، فلقد ضمن خطابه أرق خفقات قلبه، ولامست هذه الرقة مشاعر الأنصار فهزتها هزاً، ونفضت ما كان علق بها من الوساوس والهواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحاً بنبيهم، وابتهاجاً بقسمتهم ونصيبهم؛ فما المال والشياه في جنب؛ إذ يعودون به ويعود بهم إلى ديارهم ليكون المحيا بينهم والممات بينهم؟! متى كان المال في ميزانه ﷺ؟ لقد عمد إلى الخمس الذي جعله الله خالصاً برسوله يضعه حيث يشاء، فوزعه بين أولئك الأعراب الذين كانوا من حوله، وتأمل فيما قاله لهم: ما لي إلا الخمس، والخمس مردود عليكم .

6 . البخاري: كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، باب الشَّجَاعَةِ فِي الْحَرْبِ وَالْجُبْنِ.

7 . أبو داود: كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال.

عليه برداً نجراني غليظ، حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنقه، وقال له: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.
قال ابن اسحاق: ثم خرج الرسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً فلما فرغ انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد.

غزوة تبوك

كانت في شهر رجب سنة تسع من الهجرة، وسببها أنه بلغ المسلمين -من الأنباط الذين كانوا يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة- أن الروم قد جمعت جموعاً، وأجلبت إلى جانبها لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب؛ الذين كانوا تحت إمرة الروم، ووصلت طلائعهم إلى أرض البلقاء، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج، وكان جيش الروم أربعين ألف مقاتل، وكان الفصل صيفاً، وقد بلغ الحر أقصاه، والناس في عسرة من العيش، وكانت ثمار المدينة - في الوقت نفسه- قد أينعت وطابت، فمن أجل ذلك أعلن الرسول ﷺ عن الجهة التي سيتجهون إليها؛ وذلك على خلاف عاداته في الغزوات الأخرى؛ قال كعب بن مالك: (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ)[1]، فقد كانت الرحلة ثقيلة على النفس، وفيها أقسى مظاهر الابتلاء والامتحان؛ فأخذ نفاق المنافقين يعلن عن نفسه هنا وهناك، على حين أخذ الإيمان الصادق يعلن عن نفسه في صدور أصحابه، فأخذ أقوام من المنافقين يقولون لبعضهم: لا تنفروا في الحر، وجاء آخر يقول: ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه ﷺ، وأذن له فيما أراد، وعسكر عبدالله ابن أبي ابن سلول في ضاحية بالمدينة مع فئات من أصحابه وحلفائه، فلما سار النبي ﷺ تخلف بكل من معه[2]!
ومما نزل في ذلك قوله تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[3]، وقوله تعالى:

---

[1] . متفق عليه: البخاري كِتَاب الْمَغَازِي، ومسلم كتاب التوبة.

2. تتحدث آيات كثيرة في سورة التوبة عن هذه الغزوة، وتركز على أهمية الجهاد بالمال والنفس، وأنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم، كما أطالت الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم؛ ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآني؛ قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} -التوبة 81-83- إن سياق الآيات في التحذير من المنافقين، فمعظم ما يصيب المسلمين من نكبات سببه المنافقون، ولا ينخدع المسلمون بعدوّهم كما ينخدعون للمنافقين منهم، وصدق الله: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلا خَبَالا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} -البخاري كتاب المغازي- ومكمن الخطورة فيهم أنهم إنما يحاربون الإسلام باسمه، ويكيدون له بسلاحه؛ يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح.

[3] . التوبة 81-82.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[1]، أما المؤمنون فأقبلوا إلى الرسول ﷺ من كل صوب، وكان قد حض أهل الغنى على النفقة، وتقديم ما يتوفر لديهم من الدواب للركوب، فجاء الكثيرون منهم بكل ما أمكنهم من المال والعدة، وجاء عثمان ﵁ بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وبألف دينار نثرها في حجره[2]؛ فقال الرسول ﷺ: (مَا ضَرّ عُثْمَانَ ما عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرّتَيْنِ)[3].

وجاء أبو بكر ﵁ بكل ماله[4]، وجاء عمر بنصف ماله، فعَن عُمَرَ بن الْخطّابِ قال: (أَمَرَنَا رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ نَتَصَدّقُ وَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً فَقُلْتُ اليَوْمَ أسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً، قالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَبْقَيْتَ لأهْلِكَ؟ قُلْتُ مِثْلَهُ، وَأَتى أَبُو بَكْرٍ بِكُلّ مَا عِنْدَهُ، فقالَ: يا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ فقالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: والله لاَ أَسْبِقُهُ إلى شَيْءٍ أَبَداً)[5]، قال العلماء: (هذا الندب بمناسبة غزوة تبوك)، وأقبل رجال من المسلمين أطلق عليهم البكاؤون؛ يطلبون من الرسول ﷺ ما يركبون للخروج معه إلى الجهاد، فلم يجد فبكوا، قال تعالى: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[6]، وخرج الرسول ﷺ فيما يقارب ثلاثين ألفاً من المسلمين، وتخلّف عنه نفر من المسلمين عن غير شك وارتياب؛ منهم كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة، وكانوا نفرَ صدقٍ لا يتهم في إسلامهم، غير أن أبا خيثمة لحق بالرسول ﷺ في تبوك.

---

1 . التوبة 49.

2. ليس الجهاد محصوراً بالغزو؛ بل حيثما توقف أمر الجهاد وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا ما يقع موقع الكفاية، بحسب ما يتفاوتون به من غنى، وللدولة حينئذ أن تفرض على الناس حاجتها، بشرط أن لا يكون في أموالها ما يوضع في نفقات كمالية.

3 . رواه الترمذي- كتاب المَنَاقِبِ - في هذا زجر وتأديب لكل من أراد أن يطيل لسانه على عثمان ﵁؛ كالذين يتشدقون بالنقد على سياسته أيام خلافته، مقتفين ما يطيب للمستشرقين القيام به من الكذب على التاريخ الإسلامي.

4 . اختلق بعضهم زيادة على الحديث؛ وذلك أن النبي ﷺ قال له: يا أبا بكر إن الله راض عنك فهل أنت راض عن الله؟ فاستفزه السرور والوجد، وقام يرقص أمام الرسول ﷺ قائلاً: كيف لا أرضى عن الله؟ ثم ذهبوا يجعلون من هذه الزيادة المختلقة دليلاً على مشروعية الرقص والدوران في حِلق الذِكر؛ على نحو ما يفعل طوائف من المتصوفة! فأما الدليل فهو مختلق، وأما المدلول فقد ثبتت حرمته؛ فقد ذهب الجمهور إلى أن الرقص محرم إن كان مع التثني، وأنه مكروه إن كان بدون ذلك، أضف إلى ذلك ما يتلبس به حالهم من التفوّه بأصوات ليست من ألفاظ الذكر، وإنما هي حمحمات وهمهمات تصّاعد من حلوقهم، ليتكون منها دويّ متناسق مع تواقيع المنشدين والمطربين، فكيف يكون هذا كالذكر الذي أمر به عبادةً وتقرباً؟! وإليك ما يقوله العز بن عبدالسلام -قواعد الأحكام في مصالح الأنام 186/2-: (أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث؛ لا يفعلها إلا راعنٍ أو متصنع كذاب؛ كيف يتأتي الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال ﷺ: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)- البخاري كتاب المناقب باب فَضَائِلِ أَصْحَابِ النَّبِيّ ﷺ- ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقتدون بهم يفعل شيئاً من ذلك)، ويقول مثل هذا ابن حجر في كتابه (كف الرَّعاع لمحرمات اللهو والسماع) -والرعاع هم الجهلة – وقاله ابن عابدين في حاشيته المشهورة المعتمدة عند الحنفية؛ مفرقاً بين الوجد القاهر والتواجد المصطنع؛ أما القرطبي فيتوسع في التحذير من هذه البدعة وبيان حرمتها توسعاً كبيراً، وذلك في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} -آل عمران 191- وتفسير قوله تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} -الإسراء 37- ولا خلاف فيه ولا نزاع؛ ويستثنى من ذلك ما إذا خرج الذاكر عن طوره بأن سيطرت عليه حال لم يملك معها شعوره وزمام نفسه؛ إذ لا يتعلق به حكم تكليفي حينئذ.

5 . الترمذي: كتاب المَنَاقِبِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

6 . التوبة 92.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: إنّ أَبَا خَيْثَمَةَ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ سَارَ ﷺ أَيّامًا إلَى أَهْلِهِ فِي يَوْمٍ حَارّ، فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ فِي عَرِيشَيْنِ لَهُمَا فِي حَائِطِهِ قَدْ رَشّتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِيشَهَا، وَبَرّدَتْ لَهُ فِيهِ مَاءً وَهَيّأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَامًا، فَلَمّا دَخَلَ قَامَ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ فَنَظَرَ إلَى امْرَأَتَيْهِ وَمَا صَنَعَتَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الشمسِ وَالرّيحِ وَالْحَرّ وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلّ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مُهَيّأٍ وَامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ فِي مَالِهِ مُقِيمٌ؟! مَا هَذَا بِالنّصَفِ، ثُمّ قَالَ: وَاَللّهِ لا أَدْخُلُ عَرِيشَ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا حَتّى أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ فَهَيّئَا لِي زَادًا فَفَعَلَتَا، ثُمّ قَدّمَ نَاضِحَهُ فَارْتَحَلَهُ ثُمّ خَرَجَ فِي طَلَبِ الرَسُولِ ﷺ حَتّى أَدْرَكَهُ حِينَ نَزَلَ تَبُوكَ، حَتّى إذَا دَنَا مِنْه ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ بِتَبُوكَ قَالَ النّاسُ: هَذَا رَاكِبٌ عَلَى الطّرِيقِ مُقْبِلٌ، فَقَالَ ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ هُوَ وَاَللّهِ أَبُو خَيْثَمَةَ، فَلَمّا أَنَاخَ أَقْبَلَ فَسَلّمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: أَوْلَى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَةَ، ثُمّ أَخْبَرَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ الْخَبَرَ؛ فَقَالَ لَهُ ﷺ: خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، وعانى المسلمون في هذه الرحلة جهوداً شاقة وأتعاباً جسيمة؛ فقد روي أن الرجلين والثلاثة كانوا يتعاقبون على بعير واحد، وأصابهم عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: افْعَلُوا، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: نَعَمْ، قَالَ: فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكِسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النَّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ: خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ، قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ، حَتَّى مَا تَرَكوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلاَّ مَلأُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضلَتْ فَضْلَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ)[1]، ولما انتهوا إلى تبوك لم يجدوا هناك كيداً ولا قتالاً، فقد اختفى وتفرق الذين كانوا قد تجمعوا للقتال، ثم أتاه حاكم أيلة فصالحه ﷺ؛ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: (غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَبُوكَ وَأَهْدَى مَلِكُ أَيْلَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَغْلَةً بَيْضَاءَ وَكَسَاهُ بُرْدًا وَكَتَبَ لَهُ بِبَحْرِهِمْ)[2]، واتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه أيضاً الجزية[3]، وكتب رسول الله ﷺ بذلك لهم كتاباً، وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ

---

[1] . مسلم: كتاب الإيمان، باب الدَّليل على أنَّ من مات على التَّوحيد دخل الجنَّة قطعاً.

2 . البخاري: كتاب الجزية، باب إِذَا وَادَعَ الْإِمَامُ مَلِكَ الْقَرْيَةِ هَلْ يَكُونُ ذَلِكَ لِبَقِيَّتِهِمْ.

3 . فيه دليل على مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم، كما فعل أهل أيلة وأذرح والجرباء، والجزية: ضريبة مالية تقوم بالنسبة لأهل الكتاب مقام الزكاة بالنسبة للمسلمين؛ والفرق بينهما أن الجزية تقوم على أساس قضائي مجرد على حين تقوم مشروعية الزكاة على أساس من الديانة والقضاء معاً، ويعتبر الخاضعون لحكم الجزية داخلين في حكم الإسلام القضائي في المجتمع الإسلامي، وإن لم يدينوا به عقيدة في نفوسهم، ولذلك فإن عليهم أن لا يجاهروا في مخالفة شيء من قوانينه إلا ما يتدينون بخلافه في زعمهم؛ كشرب الخمر ونحوه، والفرق بين الكتابيين وغيرهم من الملاحدة والوثنيين في أمر الجزية هو أن الكتابيين يمكنهم الانسجام مع المجتمع الإسلامي مع احتفاظهم بما يدينون به، أما الملاحدة فلن تجد بينهم وبين المسلمين قدراً مشتركاً يضمن الانسجام؛ إذ لا يمكن لفكرة الإلحاد والوثنية أن تلتقي مع الإسلام؛ في أي فرع من الفروع؛ لقيام تناكر وتخالف بينهم في أعمق الأسس والجذور.

قَالَ: لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ)[1]، وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ: (أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)[2]، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنْ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلا كَانُوا مَعَكُمْ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ)[3]، وقدم المدينة ﷺ في رمضان من السنة نفسها فيكون قد غاب قرابة شهرين[4].

أمر المخلفين: لما دخل الرسـول ﷺ المدينة بدأ بالمسـجد فصـلى ركعتين، ثم جلس للناس، فجاءه المخلفون، وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضـعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصـاحبيه إلى أن نزلت آيات قبول توبتهم[5]؛ قال كعب ﷺ: (كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَـرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ.. فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَـيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِـي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ[6]، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْـتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ... فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْـرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ[7] وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ

---

1 . رواه البخاري: كتاب المغازي، باب نُزُولِ النَّبِيِّ ﷺ الْحِجْرَ، ويكره للمسلم أن يدخل ديار الأمم الخالية ممن أهلكهم الله بكفرهم أن يمر على شيء من آثارهم إلا معتبراً بحالهم؛ يتأمل في مآلهم، ويسأل الله العافية والرحمة؛ إذ هي منازل شهدت مظهراً من غضب الله، فهي عبرة ، فمن الخطأ أن يمر الإنسان عليها ساهياً لاهياً لا يعبأ منها بغير النقوش.

2 . متفق عليه: البخاري كِتَاب الْمَغَازِي، ومسلم كتاب الحج.

3 . البخاري : كِتَاب الْمَغَازِي باب: نزول النبي ﷺ الحجر.

4 . استقر الإسلام في الجزيرة، واستولى سلطانه على الأفئدة، وكان النصارى الرومان يراقبون من بعيد في خوف وقلق؛ لأنهم اتخذوا النصرانية ذريعة إلى استعمار شعوب تلك المنطقة؛ وليس إيماناً منهم بها، ولذلك تلاعبوا بها، وغيّروا وبدلوا، وأما الإسلام الذي دعا إليه جميع الرسل فإنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان الله، والنصارى أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الأخيرة، وما تحمله من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين، فشكّلت مصدر قلق؛ فتلقوا خبر فتح مكة بالذعر؛ فأخذوا يجمعون جموعهم؛ علّهم يقفون في وجه هذا الدين، وكان من مقتضى هذا الاهتمام لدى الروم أن يكون الاشتباك بينهم وبين المسلمين عظيماً وخطيراً، ولكن حكمة الله تشاء أن يكتفي من المسلمين بذلك الجهد العظيم الذي بذلوه؛ إذ قطعوا تلك المسافة المضنية بين المدينة وتبوك ذهاباً وإياباً، وهذا هو الجهاد الذي أمر الله به، وحق لهم بجهادهم النصر والتأييد، وهكذا فقد كان عسر خضوع الروم لحكم الجزية وقيودها مقابل العسر الذي تحمله المسلمون.

5 . تخلّف كثير من المنافقين عن هذه الغزوة، وجاءوا يعتذرون، وصفح ﷺ عنهم، وقَبِل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وتخلّف عدد يسير من المؤمنين من غير نفاق، ثم جاءوا إليه ﷺ؛ لا يصطنعون عذراً؛ يسألونه العفو والصفح، ومع ذلك لم يصفح عنهم، وأنزل بهم عقوبة قاسية؛ فلماذا اختار مع المنافقين اللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة؟! والجواب أن الشدة والقسوة هنا مظهر إكرام وتشريف، وهو ما لا يستأهله المنافقون؛ إذ كيف يستأهل المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم وعفو الله عنهم؟ والمنافقون كفرة، وقد أمر الله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، بدون تحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط كما يبدو لنا منهم أيضاً الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم؛ قال ابن القيم - زاد المعاد 20/3-: (وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم؛ فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عين الله تعالى وهان عليه فإنه يخلى بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة).

6 . أي: لن يعيقني شيء عن سرعة التجهز.

7 . أي خرجوا وفاتوا.

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لا أَرَى إِلا رَجُلاً مَغْمُوصاً عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ... فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلاً حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ...فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ، فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي... يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ؛ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ، فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ، وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ؛ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي...فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ- مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ- يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ... فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ؛ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ:

فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ...فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ... حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ-: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[1])[2].

---

[1] . التوبة 117-119.

2 . البخاري، باب حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ومن دلالات حديث كعب:

أولاً: مشروعية الهجر لسبب ديني؛ فقد نهى ﷺ المسلمين عن مكالمة كعب وصاحبيه طيلة تلك المدة؛ قال ابن القيم -زاد المعاد 3/-20: (فيه دليل أيضاً على أن رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب)، ولو كان رد السلام عليه واجباً لكان لا بد من أن يسمعه ﷺ كعباً.

ثانياً: ابتلاء من جهة ملك غسان؛ إذ أرسل إليه معظماً ومبجلاً؛ يدعوه إلى ترك هؤلاء الذين آذوه وأعرضوا عنه، واللحاق ببلاده؛ ليجد عنده الإكرام والسعادة؛ وقد بلغ الكرب إذ ذاك بكعب أشده، ولكن هذا الابتلاء لم يكشف إلا عن مزيد إيمان وإخلاص ومحبة لله، ولم تزل قدمه.

ثالثاً: سجود الشكر لله تعالى عبادة؛ دل عليها سجود كعب حينما سمع صوت المبشر.

رابعاً: ذهب الحنفية إلى أن الرجل إذا نذر ماله كله صدقة على المساكين لم يلزمه التصدق إلا بالأموال الزكوية فقط، ولهم أدلة على ذلك؛ لعل من جملتها ما أجاب به ﷺ كعباً حينما قال له: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله؛ فأمره أن يمسك بعض ماله، والذين ذهبوا إلى أن كل ماله يصبح صدقة إذا نذره قالوا: إن قول كعب ليس في حقيقته إنشاء لصيغة نذر، ولكنه استشارة له ﷺ فأخبره أن بعض ذلك يجزيه، ولعل هذا هو الأقرب.

حج أبي بكر ﷺ بالناس سنة تسع

لما عاد الرسول ﷺ من تبوك أراد الحج، ثم قال: إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة[1]! فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر ﷺ وأردفه بعلي ﷺ ينهيان المشركين عن الحج بعد ذلك العام، ويعطيانهم مهلة للدخول في الإسلام أربعة أشهر، ثم ليس بينهم وبين المسلمين إلا القتال؛ عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ بَعَثَهُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ النَّحْرِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُ فِي النَّاسِ أَلا لا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ)[2]، وروى محمد بن كعب القرظي وغيره أن النبي ﷺ بعث أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع من الهجرة، وبعث عليّ ابن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة؛ فقرأها على الناس يؤجل المشركين -أي يمهلهم- أربعة أشهر يسيحون في الأرض؛ فقرأها عليهم يوم عرفة؛ أجّلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر[3]، وقرأها عليهم في منازلهم وقال: (لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: كنتُ مَعَ عَلِيّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكّةَ بِبَرَاءَةَ قَالَ: مَا كُنتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنّا نُنَادِي إِنّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنّةَ إِلاّ نَفْسٌ مُؤمِنَةٌ وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَوْ أَمَدُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِذَا مَضَتِ الأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولَهُ وَلاَ يَحِجّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ فَكُنْتُ أَنَادِي حَتّى صَحِلَ[4] صَوْتِي)[5]، فذلك هو المقصود بقوله تعالى: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[6]،

---

1 . الحج من بقايا الحنيفية؛ التي ما زالوا محافظين عليها؛ إلا أن كثيراً من أدران الجاهلية وأباطيل الشرك قد تسلل إليه، حتى غدا مظهراً من مظاهر الشرك، أكثر من أن يكون عبادة؛ فقد كان المشركون يحجون مع المسلمين، ويرفعون أصواتهم ليغلطوهم بذلك؛ فيقولون: (إِلاَّ شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ- يَقُولُونَ: هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ) - رواه مسلم في كتاب الحج- وكان الرجال منهم يطوفون بالبيت عراة ليس على رجل منهم ثوب؛ يرون ذلك تعظيماً للبيت! وكان يقول أحدهم: أطوف بالبيت كما ولدتني أمي، ليس على شيء من الدنيا خالطه الظلم، وظلت هذه الأرجاس إلى ذلك العام، وهذا الإنذار إيذان بطهارة المسجد الحرام عن تلك الأرجاس وزوالها إلى غير رجعة.

2 . البخاري: كتاب الحج، باب لَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَلَا يَحُجُّ مُشْرِكٌ.

3 . كان المشركون صنفين؛ أحدهما: كان بينه وبين النبي ﷺ عهد إلى ما دون أربعة أشهر من الزمن، فأمهل هذا الصنف إلى تمام المدة، وثانيهما: كان بينه وبين النبيﷺ عهد مفتوح؛ أي بغير أجل، فاقتصر به القرآن في سورة براءة على أربعة أشهر، ثم هو بعد ذلك الحرب بينهم وبين المسلمين؛ يقتل أحدهم حيث أدرك إلا أن يسلم ويتوب، وابتداءُ هذا الأجل من يوم عرفة من العام التاسع، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر.

4 . صحل صوتي: ذهبت حدته.

5 . النسائي: كتاب مناسك الحج، باب قوله عز وجل: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}.

6 . التوبة 3، وفيه تأكيد آخر لحقيقة معنى الجهاد؛ فليس الجهاد حرباً دفاعية كما يحب المستشرقون؛ يدل على ذلك قوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}- التوبة 5- فلم يبق أي مجال لتصور ما يسمى بالحرب الدفاعية أساساً لمعنى الجهاد في الإسلام، وسورة براءة من أواخر ما نزل من القرآن، فأحكامها مستقرة باقية، وليس هناك

وروي أن النبي ﷺ استعمل أبا بكر على الحج؛ فخرج في ثلاثمائة رجل من أهل المدينة، وبعث معه ﷺ بعشرين بدنة قلدها وأشعرها.

مسجد الضرار

كان في المدينة رجل من الخزرج اسمه أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وله مكانة كبيرة في الخزرج، فلما قدم الرسول ﷺ المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، أظهر أبو عامر العداوة للرسول ﷺ، ثم خرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب الرسول ﷺ، ثم إنه لما رأى أمره ﷺ في تقدم وارتفاع ذهب إلى هرقل يستنصره، فوعده ومنّاه، فأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من منافقي المدينة؛ يعدهم بما وعده به هرقل، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً؛ يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد قريب من مسجد قباء، فبنوه واحكموا بناءه، وفرغوا منه قبل خروج الرسولﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوه ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم من أهل العلة في الليلة الشاتية؛ فعصمه الله من الصلاة فيه؛ وقال: (إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله)، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين؛ فبعث ﷺ إلى ذلك المسجد فهدمه قبل مقدمه؛ ونزل قوله:{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}[1]؛ ومعنى {ضِرَارًا} أنهم إنما بنوه ضراراً لمسجد قباء[2]، وقوله: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى} إشارة إلى مسجد قباء.

ما يدعو إلى القول بأن الآية نسخت ما قبلها من الآيات التي تقرر الجهاد الدفاعي؛ كقول الله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}- الحج 39- لأن الجهاد في مشروعيته غير ناظر إلى هجوم أو دفاع، إنما هو لإعلاء كلمة الله، وإشادة صرح المجتمع الإسلامي، فأياً كانت الوسيلة المتعينة إلى ذلك وجب إتباعها، فقد تكون الوسيلة لظرف ما المسالمة وبث النصيحة والتعليم والإرشاد والتوجيه، فهذا هو الجهاد المشروع حينئذ، وقد تكون الوسيلة الحرب الهجومية فهي عندئذ ذروة الجهاد وأشرفه، وإنما يقدر الظرف ويعين الوسيلة ويحددها الحاكم المسلم المتبصر الواعي المخلص.

[1] . التوبة 107-108.

2 . تعتبر قصة هذا المسجد قمة الكيد الذي وصل إليه المنافقون بالنسبة للرسول ﷺ وللمسلمين؛ وليس نفاقاً فحسب، بل هو مؤامرة وكيد؛ ولذلك لم يكن موقفه ﷺ من هذا الأمر استمراراً لموقف التجاهل، وإنما كان له موقف آخر استلهمه بالوحي، وهو الكشف عن حقيقة المنافقين، وتعرية أهدافهم، ثم هدم ذلك البناء الذي زعموه مسجداً، وإنما بنوه مرصداً لنفاقهم وموئلاً لتنظيم مكائدهم، وهذه القصة تعطينا صورة عن حكم الشريعة في حقهم؛ فهم يتركون لظواهرهم في كل ما يصدرون عنهم من كذب، ولكنهم فيما قد يصدرون عنه من مؤامرات ضد المسلمين يؤخذون من النواصي متلبسين بجريمتهم، كما ينبغي أن يهدم كل ما قد بنوه من مكائد، وقد دلّ على ذلك مجموع سياسته ﷺ ومعاملته مع هؤلاء المنافقين، فقد دلّ على ضرورة تعطيل أو هدم أو تحريق أماكن المعصية، وإن اختبأت حقيقة هذه الأماكن عن أنظار الناس وراء مظاهر الخير والبر، وإذا كان هذا هو ما فعله ﷺ بمسجد الضرار، فما بالك بالأماكن التي يعصى الله فيها

وفد ثقيف ودخولهم في الإسلام

روى ابن إسحاق أنه ﷺ قدم المدينة من تبوك في شهر رمضان، وفي ذلك الشهر قدم عليه وفد ثقيف، وكانوا قد تشاوروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايع كلهم وأسلموا، فأرسلوا وفداً منهم يرأسهم كنانة بن عبد ياليل، فلما دنوا من المدينة لقيهم المغيرة ابن شعبة -وهو منهم- فاستقبلهم[1]، وعلّمهم كيف يحيّون الرسول ﷺ عند دخولهم عليه، ولكنهم لم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، وأنزل الرسول ﷺ وفد ثقيف في المسجد[2]، وبنى لهم خياماً، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكث الوفد أياماً عديدة والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام.

لقد كان يأتيهم ﷺ كل ليلة بعد العشاء؛ فيقف عليهم يحدثهم حتى يراوح بين قدميه من التعب[3]؛ روى موسى بن عقبة في مغازيه أن عثمان ابن أبي العاص كان في ذلك الوفد، وكان أصغرهم، فكانوا إذا ذهبوا إلى مجلس الرسول ﷺ خلّفوه على رحالهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد وقالوا في الهاجرة[4] عمد إلى الرسول ﷺ فسأله عن الدين، واستقرأه القرآن، واستمر على ذلك مراراً حتى فقه الدين، وكان إذا وجد الرسول ﷺ

جهاراً وعلناً؟ وقد أحرق عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرية بكاملها كان يباع فيها الخمر، حرق حانوت رُوَيْشد الثَّقَفي وسماه فويسقاً.

1 . يدل على وجوب حسن معاملة الوفود والمستأمنين، والفرق بين الوفد والمستأمن؛ أن الأول قادم رسولاً عن قومه وهو يكون دائماً مكوناً من عدة أفراد، أما الثاني فقادم لنفسه يطلب الأمان في بلاد المسلمين، ريثما يأخذ علماً عنهم وعن الإسلام، وقد أمر الله بحسن استقباله والمحافظة عليه ثم إبلاغه مأمنه عندما يريد ذلك، وذلك بصريح قوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} -التوبة 6- وكذا حكم الوفود بالقياس، وعمله ﷺ في حسن سياسته ومعاملته معهم، فقد رأيت كيف أكرم ﷺ وفد ثقيف في القدوم والإقامة.

2 . يدل على جواز إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه؛ وإذا كان هذا جائزاً للمشرك فجوازه للكتابي أولى، وقد استقبل النبي ﷺ وفد نصارى نجران حينما جاءوه لسماع الحق ومعرفة الإسلام؛ قال الزركشي -إعلام المساجد 319- : (اعلم أن الرافعي والنووي رحمهما الله أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم بإذن المسلم بقيود؛ أحدها أن يكون قد شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول؛ فإن كان قد شرط عليه ذلك لم يؤذن له، وثانيها أن يكون المسلم أذن له مكلفاً كامل الأهلية، وثالثها أن يكون دخوله لسماع القرآن أو علم ورُجي إسلامه، أو دخل لإصلاح بنيان ونحوه، وقضية كلام القاضي أبي على الفارقي أنه لو دخل لسماع القرآن أو العلم وهو ممن لا يرجى إسلامه أنه يمنع، وليس لنا أن نأذن له في الدخول أي كما إذا كانت الحالة تشعر بالاستهزاء أو بالمجاملة السياسية؛ ابتغاء غرض معين كما هو شأن كثير من الأجانب اليوم، فأما إذا استأذن لنوم أو لأكل ونحوه قال النووي في الروضة: ينبغي أن لا يؤذن له في دخوله لذلك، وظاهره الجواز، وقيل لا يجوز لنا أن نأذن له في ذلك، قال الفارقي: وفي معنى ذلك الدخول لتعلم الحساب واللغة وما كان في معناه، ولا خفاء أن موضع التجويز إذاً لم يخش على المسجد ضرر ولا تنجيس) ، وأهم من ضرر التشويش ضرر الفتنة التي قد يتعرض لها المصلون بدخول نساء كافرات وهنّ بأزيائهن الفاضحة، ومثل الدخول للنوم والأكل في المنع، الدخول للنظر في معالم البناء ونقوشه.

3 . إن قبيلة ثقيف هي التي استقبلت النبي ﷺ يوم الطائف شر استقبال، وقد قال ﷺ لابن حارثة: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه! وهذه مكة وشتى قبائل العرب سعت جميعها تدخل في دين الله أفواجاً، ثم تأمل دعاءه (اللهم أهد ثقيفاً وائت بهم مؤمنين)، في الوقت الذي كان ينبغي أن يدعو عليهم انتقاماً، إنها ليست إلا طبيعة النبوة، حتى تؤتى هذه الدعوة ثمارها، وما أهون الآلام في هذا السبيل، وما أعظم الفرحة إذ يجتاز تلك المفاوز، وهذا الإسلام لا يعرف الضغينة، يأمر بالجهاد من غير حقد، يعلم القوة في غير أنانية، يدعو إلى الرحمة في غير ضعف، كل ذلك وفاء بموعد النصر العزيز الذي وعد الله به رسوله ﷺ.

4 . القيلولة في الوقت الذي يهجر الناس فيه المشي. .

نائماً ذهب إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك منه ﷺ وأحبه وأخيراً دخل الإسلام أفئدتهم، ولكن كنانة بن عبد ياليل قال للرسول ﷺ: أفرأيت الزنى؛ فإنا قوم نغترب، ولا بد لنا منه، قال: هو عليكم حرام؛ فإن الله تعالى يقول: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً}[1]، قال: أفرأيت الربا؛ فإنه أموالنا كلها، قال: لكم رؤوس أموالكم إن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[2]، قالوا: أفرأيت الخمر، فإن عصير أرضنا لا بد لنا منها، قال: إن الله قد حرمها، وقرأ آية تحريم الخمر[3]، قال ابن إسحاق: وسألوه أن يضع عنهم الصلاة، فقال لهم ﷺ: لا خير في دين بلا صلاة، فخلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في الأمر، ثم عادوا إلى الرسول ﷺ وقد خضعوا لذلك كله، ولكنهم سألوه أن يدع لهم وثنهم الذي كانوا يعبدونه (اللات) ثلاث سنين لا يهدمها، فأبى ﷺ ذلك، فما برحوا يسألونه سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها إلى أي أجل، قال ابن إسحاق: وإنما أرادوا بذلك أن يتخلصوا من أذى سفهائهم ونسائهم وذراريهم، وكراهية منهم أن يردعوا قومهم بهدمها حتى يدخل الإسلام قلوبهم؛ فقالوا للرسول ﷺ: فتولَّ أنت هدمها، فأما نحن فإنا لا نهدمها أبداً، فقال لهم: فسأبعث لكم من يكفيكم ذلك، ثم استأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم، وأكرمهم وحيّاهم، وأمر عليهم عثمان ابن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام[4]، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج، وبعث ﷺ إليهم وفداً على أثرهم أمّر عليهم خالد بن الوليد، وفيهم المغيرة ابن شعبة وأبو سفيان بن حرب، فعمدوا إلى اللات فهدموها[5]، وخرجت نساء ثقيف حُسراً يبكين عليها ويرثينها، وكلما ضربها المغيرة بن شعبة بفأسه قال أبو سفيان: واهاً لك، آهاً لك! يسخر منه، ويصانع حزن تلك النسوة اللاتي يبكين عليه؛ قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: فدخلت ثقيف في الإسلام، فلا أعلم قوماً من العرب بني أب ولا قبيلة، كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم[6].

تتابع وفود العرب ودخولهم في دين الله

لما افتتح الرسول ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، إذ كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام

---

[1] . الإسراء 32.

[2] . البقرة 278.

[3] . زاد المعاد 26/3.

4 . أحق الناس بالولاية والإمامة أعلمهم بكتاب الله؛ لذلك أمّر ﷺ عثمان بن العاص عليهم، والإمارة والولاية مسؤولية دينية، لإقامة المجتمع الإسلامي، فهو شرط لا بد من توفره فيها.

5 . يدل على وجوب هدم الأوثان، وليس من شرط وجوب ذلك أن يكون هناك من يعبدها، بل الحكم في ذلك عام؛ لعموم الدليل هنا، ولأمره ﷺ بتحطيم التماثيل التي استخرجت من جوف الكعبة، مع أنها لم تكن تعبد كتلك الأصنام الأخرى.

[6] . ابن هشام 327/2.

وقادة العرب، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول ﷺ؛ فدخلوا في
الدين أفواجاً[1]؛ قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[2].

خبر إسلام عدي بن حاتم

كان عدي نصرانياً، وهو ابن حاتم الطائي الجواد المشهور، وكان شريفاً في قومه، وكان يأخذ من قومه المرباع[3]، فلما سمع برسول الله ﷺ كره دعوته، وترك قومه ولحق بنصارى الشام، قال عدي: فكرهت مكاني هناك أشد من كراهتي له -أي للرسول ﷺ- فقلت: لو أتيته فإن كان ملكاً أو كاذباً لم يخف عليّ، وإن كان صادقاً اتبعته، فَخَرَجْت حَتّى أَقْدَمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْت عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ، فَسَلّمْت عَلَيْهِ، فَقَالَ مَنْ الرّجُلُ؟ فَقُلْت: عَدِيّ ابْنُ حَاتِمٍ؛ فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ بِي إلَى بَيْتِهِ فَوَاَللّهِ إنّهُ لَعَامِدٌ بِي إلَيْهِ[4] إذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ، فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلاً تُكَلّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، قُلْت فِي نَفْسِي: وَاَللّهِ مَا هَذَا بِمَلِكِ، ثُمّ مَضَى بِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ، حَتّى إذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوّةٍ لِيفًا، فَقَذَفَهَا إلَيّ فَقَالَ: اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ، قُلْت: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ فَجَلَسْت عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالأَرْضِ، قُلْت فِي نَفْسِي: وَاَللّهِ مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، ثُمّ قَالَ: إيِهِ يَا عَدِيّ بْنَ حَاتِمٍ أَلَمْ تَكُ رَكُوسِيّا[5]؟ قَالَ: قُلْت: بَلَى، قَالَ: أَوَ لَمْ تَكُنْ تَسِيرُ فِي قَوْمِك بِالْمِرْبَاعِ؟ قُلْت: بَلَى، قَالَ: فَإِنّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلّ لَك فِي دِينِك؛ قُلْت: أَجَلْ وَاَللّهِ، وَعَرَفْت أَنّهُ نَبِيّ مُرْسَلٌ؛ يَعْلَمُ مَا يُجْهَلُ، ثُمّ قَالَ: لَعَلّك يَا عَدِيّ إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِي هَذَا الدّينِ مَا تَرَى مِنْ حَاجَتِهِمْ، فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ، حَتّى لا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ، وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوّهِمْ وَقِلّةِ عَدَدِهِمْ، فَوَاَللّهِ لَيُوشِكَنّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنْ الْقَادِسِيّةِ عَلَى بَعِيرِهَا، حَتّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ لا تَخَافُ، وَلَعَلّك إنّمَا يَمْنَعُك مِنْ دُخُولٍ فِيهِ أَنّك

---

1 . دخل المشركون في الإسلام، ورجعت وفودهم تحمل مشعل الإيمان إلى قومها، وأما أهل الكتاب فقد بقي أكثرهم على ما هم عليه من اليهودية أو النصرانية، ولقد كان الوفد الذي جاء يمثل نصارى نجران مؤلفاً من ستين رجلاً، ولقد لبثوا عنده ﷺ أياماً يجادلهم ويجادلونه في أمر عيسى عليه السلام ووحدانية الله تعالى، وقد تلا عليهم قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}-آل عمران 61- فلما أبوا أن يقروا دعاهم إلى المباهلة كما أمره الله تعالى بذلك، وذهب ﷺ فأقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي خلفه للمباهلة، فأبى رئيس وفدهم شرحبيل بن وداعة المباهلة، وحذر أصحابه من عاقبة ذلك عليهم، فأقبلوا إليه ﷺ يحكمونه فيما دون كل من الإسلام والمباهلة، وينزلون عند حكمه في ذلك، فصالحهم الرسول ﷺ على الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً، والتزم فيه ﷺ لهم - إن دفعوا الجزية المتفق عليها - أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً - أي غدراً أو خيانة - أو يأكلوا الربا.

2 . سورة النصر.

3 . المرباع: ربع ما يصلهم من غنائم الحروب كان العرب يجعلون ذلك للرئيس منهم.

4 . أي: قاصد بي إلى الدار.

5 . الركوسية: قوم لهم دين بين النصارى والصابئة.

تَرَى أَنّ الْمُلْكَ وَالسّـلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، وَايْمُ اللهِ لَيُوشِكَنّ أَنّ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ، قَالَ فَأَسْـلَمْت؛ قال عدي: فرأيت اثنين: الظعينة، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة[1].

بعوث الرسول ﷺ إلى الناس لتعليمهم مبادئ الإسلام

أخذ ﷺ يبعث رسله في شتى الجهات، وخاصة في جنوب الجزيرة العربية؛ لتعليم الناس مبادئ الإسلام وأحكامه، فقد أصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام، حتى يستقر في قلوبهم، بعد أن انتشر في ربوعهم؛ فأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى نجران، وعلياً رضي الله عنه إلى اليمن، وأبا موسى الأشعري رضي الله عنه ومعاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن؛ كل منهما في طرف من أطرافها[2]، ووصاهما قائلاً:(يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا)[3]، وقال لمعاذ:(إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ)[4]، عن

---

1 . رواه أحمد وابن إسحاق وابن هشام، وكان قدوم عديّ في الفترة التي قدمت فيها الوفود من كل جهة وصوب، وتميّز عن تلك الوفود بما فيه من تحليل دقيق، وتجسيد واضح لشخصية الرسول ﷺ، تلك الشخصية التي ظهرت جلية واضحة مصفاة من كل شوائب لزعامة أو ملك أو الكبرياء والجاه، لا يتراءى فيها سوى الإعلام من أنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين، فكانت أساس إيمانه وسر هدايته، فلنتأمل فيما تأمل فيه عديّ؛ لنقف أمام السمة التي صوّر بها عدي شخصية الرسول ﷺ فكانت سر إيمانه؛ ومنها:

أولاً: المرأة التي استوقفته؛ وما أبعد الطامع بالملك عن مثل هذه الوقفة؛ التي كانت من سجيته ﷺ.

ثانياً: فراش النبي ﷺ وسادة حشوها ليف، ويتربع على أرض يابسة، يسعى وراء ثروة ومجد.

ثالثاً: قول النبي ﷺ ليوشكن المال أن يفيض في المسلمين، وحصل أيام عمر بن عبد العزيز؛ إذ لم يجد من يأخذ المال؛ فعاد بها ثانية فاشترى بها أرقاء وأعتقهم.

رابعاً: قوله ﷺ: ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها، حتى تزور هذا البيت لا تخاف، وقد صدق فقد امتد فوق هذه الرقعة أمن الإسلام وسلامه.

خامساً: وعده بأن تفتح القصور البيض من أرض بابل، وقد قد فتحت على المسلمين.

لقد وجد سمات النبوة الصادقة في حياته، وفي لون حديثه وكلامه، فكان ذلك سبب إسلامه وانخلاعه عن مظاهر الأبهة والترف، وهذه هي الحرية للفكر، وإذا فقدت وضاعت قدسية العقل فلا مناص من العكوف على الباطل والتعامي عن الحق؛ قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} فصلت 5.

2 . الدعوة أمانة، وليست مهمة سهلة؛ إذ لا يكفي أن ندّعي الإسلام بألسنتنا، كما لا يكفي أن يكون نصيبها بعض العادات وتقاليد، ولا يكفى أن يتمسك الواحد منا بالإسلام لنفسه فقط، ثم يغلق بابه دونه، وقد أجمع العلماء أن القيام بالدعوة فرض كفاية، وما لم تتوفر فئة في كل بلدة فجميع أهل تلك البلدة آثمون؛ وهو حكم عام يشمل الذكور والنساء؛ كل حسب حدود إمكاناته ووسائل استطاعته، ويجب على الداعي أن يتحلى ببعض الآداب أثناء ما يقوم به من توجيه وتعليم؛ ومن ذلك أن يغلب جانب التيسير على التشديد والتضييق، وأن يعتمد على التبشير أكثر من الإنذار أو التهديد والتنفير، غير أن مظاهر التيسير ينبغي أن لا تتجاوز حدود المشروع والمباح؛ فليس من التيسير تبديل بعض الأحكام أو التلاعب بمفاهيم الإسلام، وليس منه الإقرار على المعصية مهما كان شأنها، ومن آداب الدعوة إلى الله المتعلقة بالإمارة والولاية الاحتراز عن التلبس بظلم أي إنسان.

3 . متفق عليه: البخاري كتاب الأحكام ومسلم كتاب الجهاد والسِّير .

4 . متفق عليه: البخاري كتاب المغازي ومسلم كتاب الإيمان .

عاصم السكوني أن معاذاً خرج إلى اليمن وخرج معه النبي ﷺ يوصيه ومعاذ راكب، والرسول ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال: (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري فبكى معاذ بن جبل لفراق رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: لا تبك يا معاذ إن البكاء من الشيطان)[1].

حجة الوداع وخطبته

عن جابر رضي الله عنه قال: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ[2]، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ.. حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ، نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ...وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ)[3]، واختلف الرواة؛ فأهل المدينة يروون أنه ﷺ أهلّ بالحج مفرداً، ويروي غيرهم أنه قرَن مع حجته عمرة، وروى بعضهم أنه دخل مكة متمتعاً بعمرة، ثم أضاف إليه حجة[4]، ودخل مكة من أعلاها من طريق كداء حتى انتهى إلى باب بني شيبة؛ فلما رأى البيت قال:(اللَّهُمَّ زِدْ هذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً، وَمَهَابَةً وَتَكْرِيماً وَزِدْ مَنْ شَرَّفَهُ وَعَظَّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ أَوِ اعْتَمَرَهُ، تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً، وَمَهَابَةً وَتَكْرِيماً وبَرّاً)، ثم مضى الرسول ﷺ، فعلم الناس مناسكهم وبين لهم سنن حجهم[5].

وألقى في يوم عرفة خطبة جامعة؛ هذا نصها: أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنّي لا أَدْرِي لَعَلّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا؛ أَيّهَا النّاسُ: (إِنَّ دِمَاءكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ

---

[1] . مسند الإمام أحمد.

2 . اختلف العلماء هل حج رسول الله ﷺ غير هذه الحجة في الإسلام؟ فعن جابرٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَجَّ ثَلاثَ حِجَجٍ: حَجَّتَينِ قَبلَ أَنْ يُهَاجِر وحَجَّةً بَعدَ مَا هَاجرَ) -رواه الترمذي في بابُ ما جاءَ كَمْ حَجَّ النَّبيُّ ﷺ- قال ابن حجر - فتح الباري: 8/74- : (وهو مبنى على عدد وفود الأنصــــار إلى العقبة بمنى بعد الحج، فإنهم قدموا أولاً فتواعدوا، ثم قدموا ثانياً فبايعوا بيعة العقبة الأولى، ثم قدموا الثالثة فبايعوا بيعة العقبة الثانية)، ومنهم من روى أنه ﷺ كان يحج كل ســـنة قبل أن يهاجر، وأيّا ما كان الأمر، فإنه مما لا شك فيه أن وجوب الحج إنما شرع في العام العاشر، فلم يكن واجباً قبل ذلك، ولم يحج النبي ﷺ بعدها غير هذه الحجة، ولذلك كان يطلق عليها كثير من الصحابة اسم حجة الإسلام، أو حجة رسول الله ﷺ وبها عنون الإمام مســـلم حديث هذه الحجة، ومن الأدلة على ذلك خبر وفد عبد القيس الذين قدموا على النبي ﷺ؛ فقد جاء فيهم أنهم قالوا له ﷺ: مرنا بأمر فصــــلٍ نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة؛ (قَالَ آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ) -البخاري في بابِ أداء الخمس من الإيمان- ولم يذكر الحج، وقد كان مجيء هذا الوفد في الســـنة التاســـعة للهجرة، فلو كان الحج مفروضاً إذ ذاك لعده من جملة الأوامر التي وجهها إليهم.

[3] . مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ .

4 . في هذه الحجة معنى جليل يتعلق بالدعوة الإسلامية؛ فلقد تعلم المسلمون صلاتهم وصيامهم وزكاتهم، وبقي أن يعلمهم مناسك الحج، بعد أن طويت تلك التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام موسم الحج من تصدية وصفير، وقضى عليها مع القضاء على الأوثان، وطهر بيت الله الحرام، وغسل هذه الشعيرة مما قد علق بها من أدران، وأعادها نقية صافية تشع بنور التوحيد وتقوم على أساس العبودية المطلقة لله تعالى، وأقبل الناس من كل صوب؛ ليأتموا به ﷺ وليتعلموا الأعمال الصحيحة للحج، ويبدو أنه قد ألقي في روعه ﷺ أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي؛ فقد أدى الأمانة، وأينعت أرض الجزيرة وأن الناس كثرة متفرقون يشتاقون إلى لقاء رسولهم، وهو أيضاً يشتاق إلى ذلك اللقاء، معهم لا سيما تلك الحشود التي دخلت في الإسلام حديثاً، وأكبر وأجمل فرصة لذلك إنما هو الحج؛ ليلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة، وموعظة مختصرة يضمنها كوامن وجدانه ونبرات محبته لأمته.

5 . مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ .

عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا؛ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ) ، أَيّهَا النّاسُ فَإِنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ، أَيّهَا النّاسُ إنّ النّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلّ بَهْ الّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلّونَهُ عَامًا وَيُحَرّمُونَهُ عَامًا، لِيُوَاطِئُوا عِدّةَ مَا حَرّمَ اللّهُ فَيَحِلّوا مَا حَرّمَ اللّهُ وَيُحَرّمُوا مَا أَحَلّ اللّهُ وَإِنّ الزّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللّهُ السّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَإِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَرَجَبُ مُضَرَ، الّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، (فَاتَّقُوا اللهِ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ)[1]، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنّ رِزْقُهُنّ وَكُسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ خَيْرًا، فَاعْقِلُوا أَيّهَا النّاسُ قَوْلِي، فَإِنّي قَدْ بَلّغْت، وَقَدْ تَرَكْت فِيكُمْ مَا إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيّنًا، كِتَابَ اللّهِ وَسُنّةَ نَبِيّه، (يا أيها الناس: اتّقُوا الله وإنْ أُمّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيّ مُجَدّعٌ[2] فاسْمَعُوا لَهُ وأطِيعُوا ما أقَامَ لَكمْ كِتَابَ الله)[3]، (أرقاءكم أرقاءكم؛ أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون فإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم)[4].

أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ تَعَلّمُنّ أَنّ كُلّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنّ الْمُسْلِمِينَ إخْوَةٌ فَلا يَحِلّ لامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إلا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَلا تَظْلِمُنّ أَنْفُسَكُمْ اللّهُمّ هَلْ بَلّغْت؟ (وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلا لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ)[5].

وقال: (وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)[6]، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفاً حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وحينئذ دفع بمن معه إلى المزدلفة، وهو

---

[1] . مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ .

[2] . مجدع: مقطوع الأنف والأذن.

[3] . الترمذي: كتاب الجهاد، باب مَا جَاءَ في طاعَةِ الإمام.

[4] . مسند أحمد.

[5] . البخاري: كتاب المغازي، باب حجة الوداع.

[6] . رواه مسلم باب حجة النبي ﷺ، وما أروعها من كلمات؛ خاطب فيها الأجيال بعد ثلاثة وعشرين عاماً؛ لا يكل ولا يمل، واجتمع حوله الآلاف خاشعين متضرعين، يلمح لهم بالرحيل؛ ويلخص المبادئ التي ينادي بها في كلمات جامعة وبنود معدودة؛ ومنها:

الأول: أن دماءهم وأموالهم عليهم حرام، ولا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس.

الثاني: أن أمر الجاهلية دماءها ورباها وتقاليدها العصبية واستعباد الإنسان للإنسان باطل.

الثالث: أن الزمن تطابق إذ ذاك مع أسماء الأشهر، وذلك بعد تلاعب الجاهلية إذ كانوا يحجون في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين، فلما حج ﷺ وافق حجه شهر ذي الحجة؛ وأعلن ﷺ أن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق، وذكر بعضهم

يشير بيده اليمنى قائلاً: أيها الناس السكينة السكينة، فصلى في المزدلفة المغرب والعشاء جمع تأخير، وبات تلك الليلة في المزدلفة ثم دفع قبل أن تطلع الشمس إلى منى، فرمى جمرة العقبة بسبع حصيات؛ يكبّر مع كل حصاة منها، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة، ثُمَّ أَعْطَىَ عَلِيّاً فَنَحَرَ مَا غَبَرَ[1]، ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، وأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم؛ فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلوه فشرب منه، ثم قفل ﷺ عائداً إلى المدينة[2].

أن المشركين كانوا يحسبون السنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً؛ فكان الحج في غير أشهره، ولقد حج أبو بكر في السنة التاسعة من الهجرة واقعاً في شهر ذي القعدة بسبب ذلك، فلما كان العام المقبل وافق ذا الحجة في العشر منه وطابق الأهلة.

الرابع: أوصى ﷺ خيراً بالنساء، وأكّد في كلمته القضاء على ظلم المرأة، وتثبيت كرامتها الإنسانية، وبيان الفرق الكبير بين كرامة المرأة وحقوقها التي ضمنتها الشريعة الإسلامية.

الخامس: أن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله أمان من كل شقاء وضلال.

السادس: أن علاقة الحاكم مع الرعية تقوم على السمع والطاعة مهما كان نسبه ولونه ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، فإذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة؛ ومن هنا لم تتعرف الشريعة على شيء مما يسمى بالحصانة أو الامتيازات لطبقة ما من المسلمين في شؤون الحكم أو القانون والقضاء.

1 . أي تتمة المائة.

2 . بذلك يشعر ﷺ أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها عن عنقه، فالإسلام انتشر، وضلالات الجاهلية تبددت، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}- المائدة 3- ولقد أشهدهم ﷺ على التبليغ، وكان سعيداً؛ فقد أمضى شبابه في سبيل الدعوة، وينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدم والعمر الذي بذل؛ أصوتاً تعج وترتفع بتوحيد الله، وجباهاً ساجدة لدين الله، فلتكتحل به عيناك يا سيدي سعادة وسروراً، وليبارك لك ربك، وليست تلك الشهادة مقصورة على تلك الآلاف المحتشدة فحسب، ولكنها شهادة كل المسلمين، تعلن نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته.

شكوى الرسول ﷺ ولحاقه بالرفيق الأعلى

بعث أسامة بن زيد إلى البلقاء: لما عاد ﷺ إلى المدينة أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم، واختار ﷺ لإمرة هذه الغزوة أسامة بن زيد رضي الله عنه، وكان شاباً حدثاً؛ فأمره ﷺ أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة، وأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وذلك مع بدء شكواه ﷺ من مرضه الذي توفي فيه، ولكن المنافقين راحوا يقولون مستنكرين: (أمّر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار)، فخرج ﷺ إلى الناس وقد عصب رأسه وخطب فيهم قائلاً:(إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ -يُرِيدُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ- فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقاً لَهَا، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَايْمُ اللهِ إِنَّ هَذَا لَهَا لَخَلِيقٌ يُرِيدُ أُسَامَةَ ابْنَ زَيْدٍ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّهُمْ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ، فَأُوصِيكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ)[1]، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرين والأنصار[2]، وخرج أسامة بجيشه إلى ظاهر المدينة، فعسكر بالجرف[3].

شكوى رسول الله ﷺ[4]: في هذه الأثناء اشتدت بالرسول ﷺ شكواه التي قبضه الله فيها، فأقام الجيش هناك، ينظرون ما الله قاض في هذا الأمر، وكان ابتداء شكواه ما روي عَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ؛ فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ هَذَا الْبَقِيعِ، فَانْطَلِقْ مَعِي، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: السّلامُ عَلَيْكُمْ يَأَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِئَ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمّا أَصْبَحَ النّاسُ فِيهِ؛ أَقْبَلَتْ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوّلَهَا، الآخِرَةُ

---

1 . متفق عليه: البخاري كتاب الأحكام ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة.

2 . لا مفاضلة إلا بالعمل الصالح في حكم الإسلام؛ فلقد كان زيد بن حارثة رقيقاً، وهو والد أسامة وهو دون العشرين من العمر، ومع ذلك فلا الصغر ولا الرق القديم منع الرسول ﷺ أن يجعله أميراً في مهمة كبرى! وقد جاء الإسلام ليحطم مقاييس الجاهلية التي كانوا يتفاضلون بها، ولعله ﷺ وجد في أسامة ميزة جعلته أولى من غيره بإمارة الجيش، وليس على المسلمين إلا الطاعة وإن أمّر عليهم عبد حبشي؛ ولذلك قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته هو إنفاذ جيش أسامة، وخرج ماشياً، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلنّ، فقال أبو بكر: والله لا نزلت ولا ركبت، وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله؟ ولقد رجع أسامة رضي الله عنه من هذه الغزوة منصوراً ظافراً وكان في تسيير ذلك الجيش نفع عظيم للمسلمين.

3 . مكان على بعد فرسخ من المدينة.

4 . تلوح قصة الحقيقة الكبرى؛ التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين، وطغيان البغاة والمتألهين، وتُمد صفحة هذا الوجود المائج كله بغاشية الانتهاء والفناء، وتصبغ الحياة بصبغة العبودية والذل للقهار، وتعلن في أذن كل سامع وعقل أن لا ألوهية إلا لله وحده، وأن لا حاكمية إلا لله المتفرد بالبقاء، ولا مرد لقضائه، ولا مخرج عن حكمه، ولا غالب على أمره، حقيقة الموت؛ الذي قهر الله بهما الناس منذ فجر الوجود إلى أن تغيب شمسه، لقد مر في معبر الدنيا كثير من المغترين في قوتهم وعلومهم، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} -العنكبوت 57- إطلاق لا قيد فيه، عموم لا مخصص له، فليأت دعاة العلم الجديد ومتوثبو الغزو الفضائي فليجمعوا أمرهم، وليحشدوا كل أقمارهم فليستعينوا بذلك كله ليزيحوا عن أنفسهم سلطان الموت، فإن فعلوا ذلك فإن لهم أن يشيدوا لأنفسهم صروحاً عالية من الطغيان، وإلا فأحرى بهم أن يتفرغوا للتأمل في تلك القبور، التي لن ينجوا منها، ولقد كان من اليسير أن يجعل الله مرتبة الرسول ﷺ فوق مستوى الموت، ولكن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون الموت عاماً لكل أحد، ليعيش الناس معنى التوحيد وحقيقته، فليس لأحد أن لا يكثر من ذكر الموت وسكرته بعد أن عانى حبيب الله منه {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} -الزمر 30- {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} -الأنبياء 34-35- فنحن أمام حقيقتين؛ توحيد الله، والعبودية الشاملة لله.

شَـــرّ مِنْ الأُولَى، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَيّ فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إنّي قَدْ أُوتِيت مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا، ثُمّ الْجَنّةُ فَخُيّرْت بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبّي وَالْجَنّةِ، قَالَ فَقُلْت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا، ثُمّ الْجَنّةَ؟ قَالَ: لا وَاَللّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ لَقَدْ اخْتَرْت لِقَاءَ رَبّي وَالْجَنّةَ، ثُمّ أَسَـتَغْفِرُ لأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمّ أَنْصَـرِف فَبَدَأَ بِرَسُـولِ اللهِ ﷺ وَجَعُهُ الّذِي قَبَضَـهُ اللّهُ فِيهِ[1]، وكان أول وجعه ﷺ صداعاً شديداً يجده في رأسه؛ فعن عائشـــة رضـــي الله عنها قَالَتْ: رَجَعَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْبَقِيعِ، فَوَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ وَارْأَسَاهُ، فَقَالَ: بَلْ أَنَا وَاَللّهِ يَا عَائِشَـةُ وَارْأَسَاهُ، ثم ثقل عليه الوجع، فكان حمى شـديدة تنتابه، وكان بدء ذلك في صـــفر من السـنة الحادية عشر للهجرة؛ وكانت عائشة ترقيه ﷺ خلال ذلك بمعوذات القرآن[2]؛ فعنها رضي الله عنها: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ
بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ) [3]، وشـــعرت نســـاؤه ﷺ برغبته في أن يمرض في بيت عائشـــة رضـــي الله عنها؛ لما يعلمن من محبته لها وارتياحه إليها، فأذنّ له في ذلك، فخرج

[1] . رواه ابن إسحاق وابن سعد.

2 . **مشـروعية الرقية وفضـلها:** وهي التعويذ؛ ففي الحديث (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اشْـتَكَىَ نَفَثَ عَلَىَ نَفْسِـهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ)- رواه البخاري كتاب المغازي ومسلم كتاب السَّلام- وقد كان ﷺ يرقى أصحابه بالقرآن؛ فقد (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَىَ إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَماً) -رواه مسلم باب استحباب رقية المريض- وعَنْ عَائِشَـةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اشْـتَكَىَ يَقْرَأُ عَلَىَ نَفْسِـهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا) -رواه البخاري كتاب فضائل القرآن ومسـلم كتاب السَّـلام- ومن أوضـح الأدلة على مشـروعية الرقية قوله تعالى:{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَـارًا}- الإسـراء 82- والفرق بين الدعاء والرقية أن الرقية تزيد عليه المسـح باليد والنفث- وهو النفخ بدون ريق بالفم - ثم إنه ذهب مالك والشـافعي وأحمد إلى جواز أخذ الأجر على الرقية، وفصّـل أبو حنيفة؛ فمنعها على تعليم القرآن وأجازها على الرقية لحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانُوا فِي سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَـافُوهُمْ فَلَمْ يُضِـيفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَـيِّدَ الْحَيِّ لَدِيغٌ، أَوْ مُصَابٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ، فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعاً مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَىَ أَنْ يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: حَتَّى أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، واللهِ مَا رَقَيْتُ إِلاَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَتَبَسَّـمَ وَقَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ ثُمَّ قَالَ: خُذُوا مِنْهُمْ، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ)- رواه مسلم في باب جواز أخذ الأجرة على الرُّقية- وقد نقل الإجماع على مشروعية الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:**أولاً:** أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، و**ثانياً:** أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، و**ثالثا:** أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى، وقد دلت على هذه الشـروط أحاديث صـحيحة عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْـجَعِيِّ قَالَ: (كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا: يَا رَسُـولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: اعْرِضُـوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِـرْكٌ) رواه مسلم في باب لا بأس بالرَّقي ما لم يكن فيه شرك.

3 . متفق عليه: البخاري كِتَاب الْمَغَازِي، ومسلم كتاب السلام ، وقد رقى ﷺ نفسه من السحر، وجمهور المسلمين على إثبات السـحر، وأن له حقيقة، لقوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} -البقرة 102- والتفريق بين المرء وزوجه شـيء حقيقي، وقد يستشكل بعضهم هذا لسببين؛ **الأول:** كون السحر حقيقة ثابتة، ويتوهم البعض أنه مناف التوحيد والتأثير لله وحده، **والثاني:** أن يقال إن الرسـول ﷺ قد سـحر؛ فذلك مما يحط من النبوة، والحقيقة أنه لا إشـكال في الأمر البتة؛ أما الجواب عن الوهم الأول فهو أن اعتبار السـحر حقيقة ثابتة لا يعني كونه مؤثراً بذاته، بل هو كقولنا: الدواء له مفعول حقيقي ثابت، فهذا كلام صـحيح لا ينكر، غير أن التأثير فيها إنما هو لله ؛ قال تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَـارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} -البقرة 102- فنفى الله عن السحر التأثير الذاتي، وأثبت له مفعولاً بإذن الله، وأما الجواب عن الوهم الثاني فهو أن السـحر الذي أصـيب به الرسـول ﷺ إنما كان متسلطاً على جسده وجوارحه، لا على

إلى بيتها من عند ميمونة يتوكأ على الفضل بن عباس وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهما؛ قالت عائشة: (لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ وَهُوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاهُ فِي الأَرْضِ، بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ- وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ: هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ؛ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ، فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ[1] لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقِرَبِ، حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ)[2]، خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه، فجلس عَلَىَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ: (عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ ، فَبَكَىَ أَبُو بَكْرٍ، وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُو الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَو كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ، لاَ تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ)[3]، وقال ﷺ: (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ

عقله واعتقاده، كمعاناته من آثار أي مرض يتعرض له البشر، قال القاضي عياض - شرح الشفاء 278/4-: (أما ما جاء في الحديث من أنه ﷺ كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه نقص في شيء من تبليغه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طروّه من أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها مالا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما حصل)، وهو كما يحصل للمريض عند شدة الحمى؛ فمن الأعراض الطبيعية لذلك أن تطوف بالذهن أوهام لشدة وطأة الحرارة، وهذا يستوي فيها الأنبياء مع الناس؛ على أن خبر سحره ﷺ إنما يدخل في جملة الخوارق التي أكرمه الله بها، فهو ليس مثار نقيصة له، وإنما هو دليل إكرام الله تعالى له وحفظه إياه؛ فقد دعا الرسول ﷺ إلى أن أطلعه الله على المكيدة؛ التي صنعها له لبيد؛ فذهب إلى حيث كان قد طوى الرجل أسباب سحره، فأبطل كل ذلك؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ ابْنُ الأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ أَتَانِي رَجُلانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ - ما يخرج من الشعر إذا مشط- وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ - الغشاء الذي يكون على طلع النخل - ذَكَرٍ، قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ، فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ قَالَ: قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرّاً فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ) -رواه البخاري في الطب- فالحديث دليل عصمة؛ ولكن كيف تتميز المعجزة الإلهية عن السحر ما دام أن له حقيقة؟ والجواب أن المعجزة تكون مقترنة بدعوى النبوة والتحدي وليس السحر كذلك، ثم إن سلطان السحر محدود؛ ولا يمكن التوصل به إلى قلب الحقائق، ولذلك عبّر الله عن صنع سحرة فرعون بقوله: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} -طه 66- فعبر عما رآه موسى من صنيعهم بالخيال؛ فالحبال لم تنقلب إلى ثعابين، وإنما اتجه السحر، إلى أبصار المشاهدين؛ قال تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} -الأعراف 116- فلا تنافي بين أن السحر حقيقة وبين {يُخَيَّلُ}؛ إذ انقلاب الحبال ثعابين تسعى خيال، أما تأثير العين بهذا الخيال وضعفها عن رؤية الحقيقة فذلك هو مفعول السحر وحقيقته، وهذا يؤكد أن مناط السحر هو جسم الإنسان وجوارحه؛ تظهر بسببه بعض المحسوسات على غير حقيقتها.

1 . المخضب: إناء تغسل فيه الثياب.

2 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

3 . مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْــرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُــوا فِيهَا)[1]، وعاد ﷺ إلى بيته، واشــتد به وجعه، وثقل عليه مرضــه، عَنْ عَائِشَــةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُــولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِـــهِ: (ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ، وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَاباً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ)[2]، وروى ابن عباس رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (لَمَّا حُضِــرَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ، فَقَالَ بَعْضُــهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ، حَسْــبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاخْتَصَــمُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرِّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِـــلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالاخْتِلافَ قَالَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ: قُومُوا)[3]، ولم يعد رســول الله ﷺ يطيق الخروج إلى الصلاة مع الناس؛ فعن عائشة قالت: (فقال: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُـــولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِــيفٌ[4]، وَإِنَّهُ مَتَى مَا يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْــمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَــلِّي بِالنَّاسِ، فَقُلْتُ: لِحَفْصَــةَ قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِــيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْــمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ قَالَ: إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ وَرِجْلَاهُ يَخُطَّانِ فِي الأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّــهُ ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَـــارِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَـــلِّي قَائِمًا، وَكَانَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ يُصَــلِّي قَاعِدًا يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَـــلاةِ رَسُـــولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ مُقْتَدُونَ بِصَـــلاةِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ)[5]، واســتبشــر الناس خيراً بخروجه ﷺ إذ ذاك، ولكن البرحاء اشـــتدت عليه، وكان ذلك آخر مرة خرج يصـــلى فيها مع الناس؛ عَنْ عَبْدِاللَّهِ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، قَالَ: أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، قَالَ: أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)[6]، وروى البخاري أنه (لَمَّا نَزَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً

---

1 . البخاري: كتاب الرقاق، باب فِي الْحَوْضِ.

2 . مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ .

3 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

4 . أسيف: الأسف وهو شدة الحزن، والمراد أنه رقيق القلب.

5 . البخاري: كتاب الأذان، باب الرَّجُلُ يَأْتَمُّ بِالإِمَامِ وَيَأْتَمُّ النَّاسُ بِالْمَأْمُومِ.

6 . البخاري: كتاب الأنبياء، باب أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ.

لَـهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كشَـــفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذلِكَ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ[1]، يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا)[2].

رسول الله ﷺ وسكرة الموت

ذلك هو حكم الله في عباده كلهم؛ {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[3]؛ فقد دخل فجر يوم الاثنين ثاني عشـــر ربيع الأول من العام الحادي عشـــر للهجرة، وبينما الناس في المسجد، (وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَشَـفَ سِـتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَـةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاةِ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ[4]، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِـلَ الصَّــفَّ، وَظَنَّ أَنَّ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّــلاةِ، وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاتِهِمْ فَرَحًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ)[5]، وانصرف الناس من صلاتهم وهم يحسبون أن رسول الله ﷺ قد نشط من مرضه، ولكن تبين أنها كانت نظرة وداع منه ﷺ إلى أصحابه؛ فقد عاد ﷺ فاضطجع إلى حجر عائشة رضي الله عنها، وأسند رأسه إلى صدرها؛ وجعلت تتغشاه سكرة الموت؛ قالت: (كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشُــكُّ عُمَرُ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَــحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَــكَرَاتٍ)[6]، وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: (لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّـــاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّـلام وَاكَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ)[7]، وقالت عائشـــة: (إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَـــحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ؛ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّــوَاكُ، وَأَنَا مُسْــنِدَةٌ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ

---

1 . نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم السابقة، وتتحقق صورة النهى عنه بأن يشاد فوق القبر مسجد؛ فيصبح ما حول القبر مصلى بذلك للناس، أو بأن يصلى عند القبر ويتخذ مسجداً، والعلماء في حكمهم على الصلاة عند القبور بين مُحرّم ومُكّره، والذين قالوا بالكراهة شددوا بها عندما تكون عند القبر؛ أي بأن يكون القبر بين المصلى والقبلة، ولكنها صحيحة على كل؛ لأن الحرمة تستلزم البطلان فيكون حكمها كحكم الصلاة في الأرض المغصوبة؛ قال الإمام النووي -شرح صحيح مسلم 13/5-: (ولما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن أدخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها، ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها؛ مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله؛ لئلا يظهر في المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور، ثم بنوا جدارين على ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر).

2 . مسلم: كتاب المساجد، باب النَّهي عن بناء المساجد على القبور.

3 . الزمر 30.

4 . سرور النبي ﷺ بصلاتهم خلف أبي بكر يُشعر بحال أمته وما سيكون عليه حالهم من بعده، وحبه لأصحابه وهم يقفون خاشعين بين يدي الله تعالى، لقد أراد ﷺ أن يتزود من أصحابه رضوان الله عليهم بآخر نظرة، وأن يطمئن إلى الحق الذي تركهم عليه والهداية التي أرشدهم إليها، ففرح حتى خيل للصحابة أنه ﷺ قد نشط من أوجاعه، وعوفي من آلامه، وبقيت العهد الباقي بينهم وبين الله، ولتكون همزة الواصلة بين لحظة الوداع لأمته في الدنيا ولحظة الاستقبال لها في الآخرة على حوضه الموعود.

5 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

6 . البخاري: كتاب الرقاق، باب سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

7 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ:لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ)[1]، وانتشر خبر وفاته ﷺ في الناس، عن عائشة قالت: (أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ[2] حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ[3] فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا)[4]، ثُمَّ خَرَجَ وَعُمَرُ ﷺ يُكَلِّمُ النَّاسَ؛ أن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وأنه ﷺ لا يموت حتى يفنى الله المنافقين، فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا عُمَرُ أَنْصِتْ، فَأَبَى إلا أَنْ يَتَكَلَّمَ فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ لا يَنْصِتُ أَقْبَلَ عَلَى النّاسِ،فَلَمّا سَمِعَ النّاسُ كَلَامَهُ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمّ قَالَ: أَيّهَا النّاسُ إنّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمّدًا فَإِنّ مُحَمّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ فَإِنّ اللّهَ حَيّ لَا يَمُوتُ؛ قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}[5]، فَوَاَللّهِ لَكَأَنّ النّاسُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ حَتّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ[6]، فتلقاها منه الناس كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا وأخذ يتلوها، قال عمر ﷺ: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقِرتُ؛ ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى

---

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

2 . اسم مكان؛ كان قد ذهب إلى منزله هناك آملاً أنه ﷺ قد عُوفي من وجعه.

3 . نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن.

4 . البخاري: كتاب الجنائز، باب الدُّخُولِ عَلَى الْمَيِّتِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِذَا أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ.

5 . آل عمران 144.

6 . فيه أربع دلائل على فضل أبي بكر ﷺ عند الرسول ﷺ:

الأولى: أدرك أبو بكر دون غيره ما يعنيه ﷺ من قوله: إنه خيّر؛ إذ روي عن أبي سعيد لما بكى أبو بكر لقول الرسول ﷺ قلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ أن يكون رسول الله ﷺ يخبرنا عن عبد خيّر فاختار؟ قال: فكان الرسول ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر أعلمنا به.

الثانية: قوله ﷺ: (إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَو كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً) -رواه مسلم باب من فضائل أبي بكر- وإنها لكلمات خالدات ما سجل مثلها لغيره.

الثالثة: قوله ﷺ: (وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ) -رواه مسلم في باب من فضائل أبي بكر- وهو بمثابة نص على استخلاف رسول الله ﷺ له من بعده، وإن لم يأخذ عهداً على أصحابه بذلك وأن لا يسجل لهم كتاباً به؛ فكل ذلك كي لا يصبح توارث الحكم والخلافة سنة متبعة، وفي ذلك من مفسدة القضاء على إتباع شروط الصلاح في الحاكم ما هو غير خاف على أحد.

الرابعة: استخلافه ﷺ للصلاة بالناس في مكانه، وشدته في تعيين أبي بكر لذلك.

إن هذه المزايا الثابتة هي التي رجحت مبايعة المسلمين له بالخلافة، ولا يغض من خصائص الصحابة والخلفاء الآخرين خصوصاً عليّ ابن أبي طالب ﷺ؛ لأنه ﷺ أعطاه الراية في غزوة خيبر وصرّح بحبه الله ورسوله له، ولقد انتهى أمر الخلافة وأبرم المسلمون الحكم فيها عقب وفاته ﷺ دون أن يستلزم ذلك أي شقاق بينهم من وراء حدود المناقشة التي لا بد منها، وظل كل منهما مظهراً ولساناً ناطقاً بفضل الآخر، ولا ريب أن من تافه القول والعمل أن نعمد بعد مرور أربعة عشر قرناً فنضيع الوقت ونستثير الشحناء والبغضاء، في سبيل القول بأن هذا كان أولى بالخلافة أم ذاك؟! مع أن أصحاب العلاقة أنفسهم لم يقم بينهم أي شقاق من هذا القبيل، وما مضوا إلى لقاء ربهم إلا وهم ينبضون بقلب واحد حباً وتضامناً.

الأرض حين سـمعته تلاها أن النبي ﷺ قد مات، وقد أجمع الرواة وأهل العلم أنه ﷺ توفي عن ثلاثة وستين عاماً من العمر، قضى أربعين منها قبل البعثة، وثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله في مكة وعشر سنين قضاها في المدينة بعد الهجرة، وكانت وفاته في أول العام الحادي عشر.

وروى البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: (مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَلا عَبْدًا وَلا أَمَةً إِلا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا وَسِلاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا لابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً)[1].

1 . البخاري: كتاب المغازي، باب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

في بعض صفاته ﷺ وفضل زيارة مسجده وقبره

دفنه والصلاة عليه:

كُفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب، ليس فيها قميص ولا عمامة، ولما أدرج في أكفانه وضع على سريره على شفير القبر، ثم دخل الناس أرسالاً يصلّون عليه فوجاً فوجاً؛ لا يؤمهم أحد؛ فأولهم صلاةً عليه العباس، ثم بنو هاشم ثم المهاجرين ثم الأنصار، ثم سائر الناس، ودفن رسول الله ﷺ في مكانه الذي توفي فيه في حجرة عائشة.

زوجاته

توفي ﷺ عن تسع نساء؛ هن: سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن أخطب، وميمونة بنت الحارث، ولم يتزوج ﷺ بكراً غير عائشة رضي الله عنها.

1. **أولاده:** له ﷺ ثلاثة بنين؛ القاسم -وبه كُني- ولد قبل النبوة، وتوفي وهو ابن سنتين، وعبدالله وسمي الطيب، والطاهر؛ ولد بعد النبوة، وإبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان وتوفي سنة عشر، وكان له أربع بنات؛ زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، وكان وفاة رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنتين للهجرة، وتوفيت أم كلثوم في شعبان سنة تسع من الهجرة، وكلاهما كان عند عثمان بن عفان رضي الله عنه.

من صفاته

كان ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، وكان أحسنهم خلقاً وخلقاً، وألينهم كفاً وأطيبهم ريحاً، وأحسنهم عِشرة، وأشدهم لله خشية، لا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لها، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله، فلا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، وكان خلقه القرآن، وكان أكثر الناس تواضعاً يقضي حاجة أهله ويخفض جناحه للضعفة، وكان من أشد الناس حياءً، وما عاب طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه، ولا يأكل متكئاً ولا على خوان، وكان يحب الحلوى والعسل ويعجبه الدُبّاء - اليقطين- وكان يأتي الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار، وكان يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويعود المريض، ويجيب من دعاه من غني وفقير، كان فراشه من أدم حشوه ليف، وكان متقللاً من أمتعة الدنيا كلها، وقد أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض كلها، فأبى أن يأخذها واختار الآخرة عليها، وكان كثير الذكر دائم الفكر جلّ ضحكه التبسم، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان يتألف أصحابه، ويكرم كريم كل قوم ويوليه أمرهم؛ عن عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: (مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ وَلا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ

رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ ﷺ)[1]، وعنه: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ عَشْرَ سِنِينَ، واللهِ مَا قَالَ لِي: أُفَّاً قَطُّ، وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا؟)[2].

زيارة مسجده وقبره ﷺ

إن زيارة مسجده وقبره ﷺ من أعظم القربات؛ وقد أجمع على ذلك جماهير المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا ابن تيمية غفر الله له؛ فقد ذهب إلى أن زيارة قبره ﷺغير مشروعة، ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدة وجوه:

الوجه الأول: مشروعية زيارة القبور عموماً واستحبابها؛ فقد كان ﷺ يذهب كل ليلة إلى البقيع؛ يسلّم على أهله ويدعو لهم ويستغفر لهم؛ ثبت ذلك في الصحيح، ومعلوم أن قبره ﷺ داخل في عموم القبور فيسرى عليه حكمها.

الوجه الثاني: ما ثبت من الإجماع على زيارة قبره ﷺ والسلام عليه كلما مروا على الروضة الشريفة؛ روى ذلك الأئمة الأعلام بما فيهم ابن تيمية.

الوجه الثالث: ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره ﷺ منهم بلال رضي الله عنه، وابن عمر -فيما رواه مالك في الموطأ- وأبو أيوب -فيما رواه أحمد- دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم استنكار أو نقد لذلك.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ لما خرج يودع معاذاً إلى اليمن قال له: (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري) -رواه أحمد- فكلمة (لعل) تأتي في أعم الأحوال للرجاء، وإذا دخلت (أن) على خبرها تمخضت للعرض والرجاء، فالجملة تنطوي بصريح البيان على توصية معاذ؛ بأن يعرج عند رجوعه إلى المدينة على مسجده ﷺ وقبره ليسلم عليه، إذا تبين هذا فاعلم أنه لا وجه لما انفرد به ابن تيمية من دفع هذه الأوجه كلها في غير ما دافع والقول بأن زيارة قبره ﷺ عمل غير مشروع؛ وجملة ما اعتمده ابن تيمية في ذلك قوله ﷺ: (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىَ ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الأَقْصَىَ)[3]، وقوله ﷺ: (لَعْنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارىَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)[4] وقوله ﷺ: (لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً)[5]، وليس في هذه الأحاديث ما يصلح مستنداً؛ للأسباب الآتية:

أولاً: قوله ﷺ: (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ) استثناء مفرغ؛ والمستثنى منه محذوف، وإنما يقدر المستثنى من جنس المستثنى منه، وإلا كان استثناءً منقطعاً، وهو استثناء مجازي، ولا يجوز إضمار المجاز إلا عند الضرورة التي لا تصلح الحقيقة؛ فتقدير الحديث: لا تشد الرحال إلى المساجد إلا إلى ثلاثة منها؛ فالمستثنى منه هو المساجد، والمعنى إن جميع المساجد في الفضل سواء، إلا هذه المساجد الثلاثة، فلا وجه لتفضيل بعضها على البعض

---

[1] . البخاري كتاب المناقب باب: صفة النبي ﷺ .
[2] . مسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺأحسن الناس خلقاً.
[3] . متفق عليه: البخاري أبواب التطوع، ومسلم كتاب الحجّ.
4 . متفق عليه: البخاري كتاب اللباس، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصّلاة.
5 . أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور.

في زيارة أو اعتكاف أو نحو ذلك، وعملاً بهذا الحديث قال الفقهاء: إنه لو نذر الاعتكاف وسمى مسجداً معيناً غير هذه المساجد الثلاثة لم يجب عليه قصد ذلك المسجد بخصوصه، ولم يسنّ بل يغنيه أن يعتكف في أي مسجد من مساجد الدنيا، أما حديثنا فهو عن زيارة قبر رسول الله ﷺ وهو ليس داخلاً لا في المستثنى ولا في المستثنى منه؛ فالحديث بمعزل عن أي إشارة إليه، ثم إننا نسأل بعد هذا: أفيفهم ابن تيمية من كلمة (تشد الرحال) معناها الحقيقي أم المعنى المجازي؛ الذي هو القصد والعزم على الشيء؟ فإن كان يفهم منها المعنى الحقيقي فينبغي ألا تحرم زيارة غير هذه المساجد الثلاثة من المساجد الأخرى إلا إذا شد لذلك رحلاً ثم مضى إليه بواسطة الرحل، قربت المسافة أو بعدت، فإن سعى إليه بوسيلة أخرى غير شد الرحال لم يعد ذلك حراماً، وهل يقول عاقل بذلك؟ وإن كان يفهم من الكلمة معناها المجازي - وإنما المعنى المجازي هو الاتجاه إلى الشيء لا يقصد غيره - فإن عمل رسول الله ﷺ يعارضه ويرده، فقد كان صلوات الله عليه يزور مسجد قباء في كل أسبوع، وفي رواية كل يوم سبت، وقد كان مسجد قباء خارج المدينة، والخلاصة أن المستثنى منه في الحديث هو المساجد، وزيارة الأرحام والقبور والأشخاص والمعالم غير داخلة في المستثنى منه، فلا شأن للحديث بها، ومعنى الحديث: إن أولى المساجد بالاهتمام للتوجه إليها من مسافات بعيدة هي هذه المساجد الثلاثة.

ثانياً: قوله ﷺ: (لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارىَ) لا شأن له بموضوع الزيارة إطلاقاً؛ إذ هو نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء وما حولها مساجد، تعلم هذا من قوله: (مساجد)؛ ولو استقام أن يكون مجرد زيارة القبر اتخاذاً له مسجداً، لكان من مقتضى ذلك أن يكون ﷺ قد جعل من البقيع كله مسجداً له، إذ كان يزوره دائماً.

ثالثاً: وقوله ﷺ: (لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً) فإنما معناه لا تتخذوا لزيارة قبري وقتاً معيناً لا يزار إلا فيه كما هو شأن العيد، كما فسره بذلك الحافظ المنذري وغيره من علماء الحديث، ولا مانع من أن يضاف إليه أيضاً النهي عن إظهار الصخب واللهو ومظاهر الزينة عنده على نحو ما يكون في الأعياد، أما أن تدل الكلمة على النهى عن زيارة قبره فإنها عن ذلك بمعزل، وما كان النبي ﷺ لينهى الناس عن اتخاذ قبره عيداً بهذا المعنى المزعوم ثم يعمد هو فيتخذ البقيع في كل يوم عيد!

ثم اعلم أن لزيارة قبره آداباً لا بد من إتباعها، فإذا أكرمك الله تعالى بالتوجه إلى زيارته، فاعقد العزم أولا على زيارة مسجده ثم أنو مع ذلك زيارة قبره الشريف، ثم اغتسل قبل دخولك المدينة، والبس أنظف ثيابك، واستحضر في قلبك شرف المدينة وأنك في البقعة التي شرفها الله بخير الخلائق، فإذا دخلت المسجد فاقصد الروضة الشريفة وصلّ ركعتين تحية المسجد ما بين القبر والمنبر، فإذا دنوت إلى القبر الشريف بعد ذلك، فإياك أن تهجم عليه أو أن تلتصق بالشبابيك أو تتمسح بها كما يفعل كثير من الجهال، فتلك بدعة توشك أن تكون محرمة، بل قف بعيداً عن القبر نحو أربعة أذرع ناظراً إلى أسفل ما يستقبلك من جدار القبر، وأنت غاض الطرف تستشعر الهيبة والإجلال، ثم سلم على رسول الله ﷺ بصوت خفيض قائلاً: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول

الله؛ أشهد أنك قد بلغت رسالة ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وعبدت الله حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك كثيراً كما يحب ربنا ويرضى)، ثم استقبل القبلة وانحرف إلى اليمين قليلاً حتى تكون بين القبر والاسطوانة التي عند أول القبر، وارفع كفيك بالدعاء خاشع إلى الله جل جلاله، ولا تتوهم أن في ذلك سوء أدب مع رسول الله ﷺ وأن الدعاء ينبغي أن يكون مع استقبال القبر، فإن الدعاء خطاب الله عز وجل، والخطاب لله لا يجوز أن يشرك فيه غيره، وخير اتجاه إلى الله عز وجل لدعائه هو اتجاه القبلة، ولا تلتفت إلى كثرة من قد تراهم يخالفون هذا من الجهال والمبتدعين وابدأ دعائك قائلاً: اللهم إنك قلت وقولك الحق: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}[1]، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً برسولك إليك، فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، ثم أكثر من الدعاء لما تشاء من أمر دينك ودنياك ولإخوانك وعامة المسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[1] . النساء 64.

المحتويات

تمّ بحمد الله